

المرأة في موقعها ومرتجاها

كوستي بندلي

مجلس كنائس الشرق الاوسط

الكتاب : المرأة في موقعها ومرتجاها
المؤلف : كوستى بندلى
السلسلة : دراسات مسكونية — ٢
إشراف : دكتور موريس أسعد
المطبعة : دار العالم العربى للطباعة
رقم الإيداع بدار الكتب : ٩٤/٥١٠٤

تقديم

المرأة المظلومة ، المرأة المستضعفة ، المرأة المغتصبة ، المرأة المقهورة ، المرأة المستعبدة ، المرأة السلعة ... موقف المسيح من المرأة ، دورها فى المجتمع المسيحى ، تقويمها إنسانياً ، تحقيرها فى المجتمع الاستهلاكى ، إبراز أصالتها الإنسانية ، معنى الحرية عند المرأة ، نظرة بولس الرسول إلى المرأة ، إلى ما هناك من مواضيع مهمة تتعلق بها ... هذه المواضيع يعالجها كوستى بندلى فى هذا الكتاب بطريقة جدية ورصينة معتمداً العلم والمنطق والحجة ومعطيات الإيمان والكتاب المقدس : همه العدل والحق ، همه السمو بالمرأة إلى مرتبة تليق بها .

لقد خاطب المؤلف الشابات والشبان بندوات نظمتها «حركة الشبيبة الأرثوذكسية» . ولذلك نلاحظ عبارة «المرأة الحركية» أحياناً . والمعلوم أن الحركة هذه هى تيار روحانى هب فى كنيسة أنطاكية منذ خمسين سنة، وألهم الكثيرين فيها . فبرز أصحاب الفكر والنساك والرعاة . إذن حاور كوستى بندلى الشباب واتت نتيجة هذا الحوار بحثاً يجيب على مختلف التساؤلات التى طرحت . فالكتاب بالتالى ينبع من صميم الواقع ، وليس هو بسرد نظريات جافة . وظّف كوستى بندلى ثقافته وعلمه وشهاداته وإيمانه الحى فى سبيل تبليغ الرسالة المسيحية . وأما الجديد عنده فهو أنه أتى برأى الإنسان المؤمن فى معالجة مشاكل المجتمع . إنه رجل الإيمان الذى يتعاطى علم النفس ، هدفه مخاطبة شباب العالم العربى الذى يحبه والذى يتعطش إلى العلم والمعرفة والنور .

كوستى بندلى إنسان نسج كيانه كله بالإنجيل كلمة الله . إنه ابن ميناء طرابلس (لبنان) حيث استقرت بعض العائلات الأرثوذكية التى قد تكون من أصل يونانى ، عرفت الترحال وحط بها الطواف فى هذه البقعة الجميلة

حيث تتلاطم الأمواج بالصخور وتنعش القلب وتحمل على الانفتاح نحو آفاق لا نهاية لها . المسيحية كانت البيئة الأولى التى ترعرع فيها ، وحركة الشبيبة الأرثوذكسية كان من روادها . آمن بأن المسيحية ليست تعليماً وشرائع وكنيسة مستقرة فقط . إنها طريقة حياة ، ونظرة صائبة للأمور ، ومعاناة، وحمل صليب ، وثورة عميقة على الظلم ، واحترام مشروط للإنسان ، وسعى لمساعدته أياً كان لونه أو وطنه أو انتماؤه . فى كتبه التربوية نشعر بأنه ينتفض إذا سحقت شخصية طفل ، ويتألم أمام سوء تصرف الأهل . يرشد وينصح ، يدقق ويحلل ، مستشهداً بالكتب العلمية والدينية، مستفيداً من خبرته الشخصية . لقد كرس حياته كلها للعلم ، لا محبة بالعلم فقط ، بل محبة بالإنسان . دراسة الحالات النفسية تهدف إلى تفهم الإنسان بمحبة ومؤازرة ، والتربية هدفها التنشئة الأصيلة . واهتمامه بالمرأة جزء من اهتمامه بالمخلوق ككل ، المقام على صورة الله ومثاله .

« المرأة فى موقعها ومرتجاها» هو كتاب يعبر عن اختلاجات مؤلفه وعاطفته الجياشة ، وإحساسه المرهف ، مما يجعله يتحسس إلى مشاكل الآخر، ويحمله إلى نصرة المظلوم ومعاضدته . فالمرأة بالنسبة لكوستى بندلى هى إنسان رقيق ومميز ، وإنه يحترمها ويقدر تضحياتها ، ويؤمن بمقدرتها، ويريد تشجيعها ، لابل يعتبرها متفوقة على الرجل فى بعض المجالات . يتألم لوصفها الدونى عبر التاريخ ، وحتى فى القرن العشرين بالذات . يتأثر عندما يسمو بها إلى مرتبة رفيعة فيجد المجتمع قد حولها إلى سلعة لتشجيع التجارة والجشع. أين صورة الله أمام هذه الفحشاء ، وهذا التقهقر الأخلاقى؟

كوستى بندلى يشجع المرأة ويؤاسيها ، وينتصب كمدافع عنها ومحام يحثها على الدفاع عن نفسها ، وتثبيت دورها ، وتقوية شخصيتها فى هذا العالم الشرقى . إنه لا يتكلم هنا على المرأة فى البلدان المتقدمة كالولايات المتحدة ، (وإن أشار إلى هذا الموضوع فى كتابه «تعليم الفتاة وآفاق المرأة»، منشورات النور ، سلسلة تساؤلات الشباب ، ٤ ، سنة ١٩٨٥) حيث المرأة متفوقة ، مستقلة ، سباقة ، ومع هذا فهى لا تتمتع كلياً بالحقوق

التى يتمتع بها الرجل . إنه يتوجه إذن إلى المرأة الشرقية عامة والمسيحية خاصة ، فيريد أن يعيد لها مكانتها وكرامتها . إنه يقدس رسالتها الإنسانية معتمداً على الكتاب المقدس ، محاولاً شرح المقاطع التى تثير الالتباس والشك، فيضع النصوص فى أطارها التاريخى ، ويأتى بالبراهين المنطقية ليثبت رأيه، وهنا يتحول الباحث النفسى إلى معلم فى شرح الكتاب المقدس ، وكأنه لاهوتى يتكلم .

أرجو أن ينال هذا الكتاب الشيق إعجاب القراء . كما كان الحال فى الكتب السابقة التى صدرت لكوستى بندلى ، كما أنى أرجو أن تتجاوب المرأة لما ينتظره منها ، فتعى مسؤوليتها ، وتنطلق نحو التحليق فى عالم الثقافة والعلم والتطور ، وتساهم بطريقة فعالة فى إعادة نظر المجتمع ، وتناضل من أجل تثبيت خطاها ، غير مستسلمة للأمر الواقع وشباك الكسل ، فتجتهد لرفع شأنها بنفسها بعد أن تستقى قوة مما قيل عنها فى هذا الكتاب القيم.

إيما غريب خورى

المقـــدمة

هذا الكتاب يجمع مواضيع طُرحت فى أوقات مختلفة ، وفى فترة تمتد ما بين ١٩٨٣و١٩٨٩، فى إطار « ندوة الثلاثاء » . والندوة هذه انطلقت فى فرع طرابلس - الميناء (لبنان) لحركة الشبيبة الأرثوزكسية فى حزيران / يونيو١٩٨١ ، وتوخت منذ تأسيسها أن تكون مكاناً يُستكشف فيه الإيمان انطلاقاً من الأسئلة التى يواجهه بها الفكر الساعي بعناء إلى ملء الحقيقة ، والحياة المتوثبة عبر المشاكل والهموم والتناقضات . أما الغاية المنشودة من وراء ذلك ، فكانت السعى إلى تدامج بين الإيمان من جهة ، والهواجس الفكرية والحياتية من جهة أخرى ، بحيث يتعمق الإيمان بفعل التحديات ويتجذر فى هواجس الأرض ، مما يسمح له بالمقابل ، باحتضان تلك الهواجس وإنارتها من الداخل ، وفتح أرحب الآفاق أمامها ، ووضعها فى خطها الإنساني الصحيح . وقد حرصت هذه الندوة ، منذ إنشائها ، على أن تكون منبراً للشباب ، بحيث يتسنى لهم أن يطرحوا فيها ما شاؤوا من أسئلة بصراحة ، يحفزها ما اعتمد فى ما بعد من إغفال ذكر أسمائهم ، وأن يشاركوا فى الإجابة عنها بشحذ أفكارهم واستلهام خبراتهم قبل أن يستمعوا إلى مداخلة يقدمها لهم أحد المرشدين ، فيمدهم من خلالها بعناصر من معرفته وخبرته ، الغاية منها مؤازرة سعيهم للوصول إلى جواب مقنع على تساؤلاتهم . إن « ندوة الثلاثاء » - التى تعقد بانتظام بمعدل مرة كل أسبوعين - كانت إذاً ولا تزال مجالاً لبلوغ فهم للإيمان يتجاوز مجرد اجترار عبارات جاهزة ، واستنارة للفكر والحياة بهذا الإيمان الواعى الملتزم .

الكتاب الحاضر ، الذى نرجو أن يكون الأول فى سلسلة تستمد عناصرها من « ندوة الثلاثاء » هذه ، يجمع مواضيع تمحورت حول المرأة . ولا عجب أن نرى هذا الموضوع يتكرر ، بأشكال ومن زوايا مختلفة ، بين

الأسئلة التي طرحها الشباب . فموضوع المرأة من مواضيع الساعة . ولابد للشباب الذين هم ، بطبيعة عمرهم ، منفتحون على كل جديد ، أن يتحسسوا له ، خاصة في مجتمع إنتقالي كمجتمعنا حيث تتصادم بحده وصخب المواقف التقليدية الموروثة وتيارات الحداثة . وليس بالأمر المستغرب أن يحتدم هذا التصادم بنوع خاص في موضوع المرأة ، لأنه موضوع يمس كل إنسان في صميم كيانه – إذ يضع على المحك تصوره لجنسه وللجنس الآخر وللعلاقة بينهما ، علماً بأن الجنس يمتد إلى جذور الشخصية ويطبع كل أبعادها – ولأنه محاط بهالة من القدسية بسبب تداخله مع الأعراف الحضارية والمعتقدات الدينية . من هنا اقتضى بحث الموضوع بأقصى درجة ممكنة من الصفاء والموضوعية ، خوفاً من الإنزلاق وراء الأفكار المسبقة والإنفعالات والتشنجات– وما أكثر إحتمال حدوثها في هذا المضمار – مما لا يعني أن يبقى المرء « محايداً » . إذ لا قِبَل له أن « يعلو » فوق صراع يمسه بالحقيقة، شاء أو أبى ، في صميم إنسانيته ، ولابد له بالتالي من أن يتخذ فيه موقفاً، إنما مع الحرص الشديد على أن يأتي هذا الموقف واعياً ومسؤولاً ومنفتحاً ومتزناً .

هذا ما حاولنا جاهدين أن نحققه في هذا الكتاب . فقد حرصنا على أن نسلّط على هذا الموضوع الشائك ، المعقّد ، ما استطعنا من معطيات نفسية واجتماعية ولاهوتية ، إنما مع تحاشي نهج الإختصاص وأسلوبه ، دعمنا بها قناعتنا بأن المرأة إنما هي حكماً مستلبة إلا ما قارنّا بين ما تحمله من طاقات وبين الدور المفروض عليها منذ آلاف السنين ، وبأن إختلافها عن الرجل – وهو حقيقة كيانية ثابتة ، وإن كان المجتمع يضخّمها ويؤوّلها بشكل مغرض – لا يبرر بحال من الأحوال إعتبارها دونه في الكرامة والمبادرة والمسؤولية ، وبأن الحق والإنصاف وإنتعاش الجنسين ومستقبل البشرية، كل ذلك يتطلب تحريرها من قصورها المفتعل وإطلاق يدها في إقامة علاقة الند بالند مع الرجل والتعاون معه على قدم المساواة في بناء الأسرة والمجتمع .

يتضمن الكتاب ثلاثة فصول . الفصل الأول يتناول « موقع المرأة فى المجتمع » ويحاول إبراز أسباب إستضعافها وإنتقاصها . أما الفصل الثانى فيتعرض لموقع المرأة فى الكنيسة مبرزاً التوتر القائم بين المكانة التى منحها إياها الإنجيل فى رسالته الثورية وبين تلك العتاقة البشرية التى وقفت منذ البدء فى وجه الجدّة الإنجيلية ، مما يقتضى قراءة جديدة للنصوص المقدسة ، حريصة على التمييز بين الوحى الإلهى وبين ما تغلّف به أحياناً من تصورات بشرية . وهو ما تدعو إليه أصوات كثيرة فى كافة الكنائس المسيحية ، تكشف ما ألحقته الجماعات المسيحية التاريخية من إجحاف بحق المرأة وتنادى بإعطائها الدور الذى يتناسب مع الرؤيا الإيمانية الأصيلة . أما الفصل الثالث ، وهو بعنوان « المرأة كصانعة لنفسها وخميرة للمجتمع » ، فإنه يحاول رسم الخط الذى يمكن للمرأة أن تسلكه إذا ما شاءت إحقاق كرامتها السليبة وتأدية الدور الجديد المنتظر منها فى الجماعة البشرية . وقد بدا لنا انه يترتب عليها ، فى ذلك السياق ، تجنب الوقوع فى فخين يتربصان بها ، أولهما الإنسياق وراء خداع « مجتمع الإستهلاك » الذى يحاول أن يحتويها وتمردها المشروع ضد ما يصيبها من غبن وإنتقاص ، بحيث يجعل منها ، بحجة تكريمها وتحريرها وإبراز مفاتنها ورعاية حاجاتها ، أداة فى سبيل أغراضه التجارية النفعية ، فيلهيها عن السعى إلى إحقاق كامل إنسانيتها ، بتحويلها إلى « شيء » جميل وإلى « عارضة للوجاهة » (د. مصطفى حجازى) . أما الفخ الثانى ، فهو أن تستميت فى تقليد الرجال لإنتزاع الإعتراف بها فى مجتمع يتحكمون به ويطبعونه بطابعهم ، بحيث تتبنى كل ما فى الذكورة من فظاظة ، معتبرة ذلك بمثابة ترقية لها ، بدل أن تستلهم إيجابيات تلك الذكورة وتحاول بالمقابل تلطيف ما تجده فيها من فجاجة بتأثير ما لديها هى من إيجابيات الأنوثة . بالمقابل فإن آفاقاً رحبة تنفتح أمام نضال للمرأة واع وطويل النفس ، يستمد لدى المرأة المؤمنة إلهاماً وزخماً من إيمانها ، ألا وهى أفاق قيام عالم أكثر

إنسانية لن يبصر النور إلا بفضل المساهمة الكاملة والفريدة التى تقدمها المرأة لبنائه ، بالتعاضد والتآزر والتضامن والتكافل مع الرجل . ذلك أن القضية ، كما أوضح الفيلسوف الإنكليزى جون ستوارت ميلّ منذ منتصف القرن التاسع عشر ، « ليست إطلاقاً أن يُسند إلى النساء حكم المجتمع ، بل أن نتساءل إذا لم يكن من الأفضل لهذا الحكم أن يساهم فيه الرجال والنساء معاً بدل أن يستأثر به الرجال وحدهم ».*

مشكلة المرأة يعانى منها بالحقيقة كل من الجنسين . فالرجل – وهو المستفيد فى الظاهر من إنتقاص المرأة – يتأذى بالفعل من هذا الإنتقاص وينوء تحت أعبائه . يبقى أن المرأة هى الضحية المباشرة له وصاحبة النصيب الأكبر من المعاناة . علماً بأن هذه المعاناة تزداد لدى المرأة على قدر نموّ وعيها الإنسانى والروحى ، حتى إنها قد تبلغ عند أكثرهن رهافة إحساس ، حدّ الشعور المأساوىّ بالغبن والجور . لذا شئتُ أن أختم الكتاب بإسماع صوت لمعاناة المرأة مباشرة . فأوردت رسالة لإحدى الفتيات المثقفات والمؤمنات تعبّر بنبرات مؤثرة عن شدة ضيقها وإحباطها وأتبعت هذه الرسالة بجوابى عليها الذى عرفت لاحقاً من الفتاة نفسها أنه حمل إليها بعض العزاء وأشعرها أنها ليست غريبة وشاذة ، تنادى فى الصحراء ولا من مجيب .

فى جوابها على رسالتى حمّلتنى هذه الفتاة مهمة ، بقولها : «ما آمله (...) ألا تضنّ بدفء هذه الكلمات المعزية كلما وجدتَ إلى ذلك سبيلاً وأن تنشرها على الملأ ...» . فوعدتها بأنى سوف أصدر كتاباً بهذا الموضوع . وها إنى الآن ، بعون الله ، أبرّ بوعدى ، آملاً أن يصل كتابى هذا إليها

* John Stuart MILL: L'asservissement des femmes, cité par Claire POINSIGNON: Féminisme et Luttes de Femmes, p. 83, in Terre des Femmes. Panorama de la situation des Femmes dans Le monde, pp. 82-90, La Découverte-Maspero (Paris), Boréal Express (Montréal), 1983

وإلى مثيلاتها الكثيرات ، فيكون لهنّ عوناً فى نضالهنّ ، وأن يطال أكبر عدد ممكن من الرجال والنساء ، والشباب منهم على وجه الخصوص ، فيدفعهم إلى إعادة النظر فى الأدوار والمواقف المألوفة بغية التآزر على إرساء قواعد مجتمع يجد فيه كل من الجنسين ملء إنسانيته فى علاقة من المساواة والتبادل والتعاون والتقدير والإحترام مع الجنس الآخر .

الكتاب يستلهم الروح الإنجيلية ويتوسع فى موضوع موقع المرأة فى الكنيسة ويندرج فى سياق ما يثيره هذا الموقع من مناقشات تجرى اليوم على قدم وساق بين أنصار المحافظة على الممارسات الموروثه وبين الدعاة إلى تجدد يستلهم من ينابيع الإيمان مواقف تلائم المتطلبات الحاضرة . ولكن الكتاب يستند أيضاً ، وبشكل هام ، إلى معطيات إنسانية شاملة يمكن أن يلتقى عليها كل ساع إلى الحقيقة من أى أفق مذهبىّ أتى . لذا فهو يطمح إلى مخاطبة الذين يتخذون من إنسانوية علمانية مرجعاً لهم ، داعياً إياهم إلى مراجعة مواقفهم من المرأة ، باسم القيم الإنسانية نفسها التى يدينون بها ، كما وإلى مخاطبة مؤمنى المذاهب الدينية على إختلافها ، حافزاً إياهم إلى مراجعة المواقف الراهنه التى تتخذها جماعاتهم الدينية من المرأة ، فى ضوء قراءة جريئة لتراثهم الروحىّ تأخذ بعين الإعتبار إلى أبعد حد كرامة الله وكرامة الإنسان ، «صورته» و «خليفته» فى الأرض . مع رجاء بأن يؤدى هذا الكتاب مساهمته المتواضعة فى إطلاق حوار واسع حول المرأة وموقعها فى مجتمعاتنا العربية على وجه العموم ، وفى المجتمع اللبنانى بنوع أخص ، بغية تعبئة الطاقات الإنسانية كلها – بما فيها الطاقات النسائية المهدورة للأسف إلى حد بعيد – وإطلاقها ، دونما تفرقة معيقة ، فى بناء غد أفضل .

طرابلس – الميناء (لبنان) فى ٢٩ كانون الأول / ديسمبر ١٩٩٠

المؤلف

الفصل الأول

موقع المرأة في المجتمع

- لماذا تُستضعَف المرأة ؟
- مسؤولية المرأة فى حال تعرضها للإغتصاب .

الفصل الأول

موقع المرأة في المجتمع

- لماذا تُستضعَف المرأة ؟
- مسؤولية المرأة فى حال تعرضها للإغتصاب .

أولاً : لماذا تُستَضْعَفُ المرأة

« ما هو سبب إستضعاف مجتمعنا للفتاة ؟ »*

مقدمة : طرح المشكلة

الفكرة الشائعة فى مجتمعنا – لابل إلى حد ما فى كل المجتمعات الإنسانية الراهنة ولو إدعت «تحرير المرأة» [1] – إنما هى الإعتقاد بأن المرأة « ضعيفة » بطبيعتها (بحيث يشار إليها بعبارة «الجنس الضعيف» إن بالعربية أو بالفرنسية le sexe faible [2]) : فإدراكها محدود ، وأفكارها سطحية ، وآراؤها متقلبة ، ومواقفها مشوبة بالإنفعال ، وآفاقها ضيقة ، وقدرتها على الإلتزام والمواجهة وتحمل المسئوليات هزيلة إلخ ... هذه التصورات نابعة أصلاً من الرجال ، الذين – ومنذ أقدم العصور – لا يزالون يحكمون المجتمعات الإنسانية كلها (وبنوع خاص مجتمعاتنا الشرقية) ، وبالتالى يوجهون أفكارها وتصوراتها وفقاً لمصالحهم وأهوائهم فيغرزون فكراً يدعم هيمنتهم ويبرر إمتيازاتهم (تلك هى « الأيدولوجية » بالمعنى الدقيق للعبارة : « خطاب ينظم حكماً »[3]) . ولكن الأدهى هو أن الكثير من النساء ، لا بل غالبيتهن أحياناً ، يتبنين هذه التصورات المجحفة بحقهن (شأنهن فى ذلك شأن سائر الفئات المغلوبة على أمرها ، التى تنزع إلى تبنى نظرة المسيطرين التبخيسية إليها) ويعتبرنها معبرة فعلاً عن جوهرهن ، فما يخطر على بالهن أن إعادة النظر هذه التصورات أمر ممكن ومشروع ، وهكذا يتواطئن مع الوضع الراهن ويقدمن الضمانة لرسوخه وإستمراره .

---

* بُحث هذا الموضوع فى ثلاث إجتماعات لـ « ندوة الثلاثاء » عُقدت على التوالى فى ١١ / ١١ / ١٩٨٦ و ٢٥ / ١١ / ١٩٨٦ و ٩/ ١٢ /١٩٨٦

إلا أن هذه المسلمات عن المرأة بدأت ، لحسن الحظ ، منذ قرن تقريباً ، تهتز وتتداعى بفضل تطور الأوضاع الإجتماعية من جهة ، ومواقف عدد من الأحرار ، رجال ونساء من جهة أخرى ، الذين لم يتورعوا عن التصدى لهذه المسلمات وإظهار زيفها وبطلانها . أذكر منهم ، على سبيل المثل ، غاندى ، محرر الهند ، الذى راعه تبخيس المرأة فى شعبه فراح يجاهد من أجل تحريرها . ومما قاله :

« ليس جنس النساء بالجنس الضعيف ، بل هو أشرف الجنسين بما فيه من قوة على تضحية النفس وإحتمال العذاب والضراعة والإيمان والمعرفة . وكثيراً ما فاق حدس المرأة إدعاء الرجل علماً فائقاً . »[٤]

ومما قاله أيضاً :

« إنه لمن باب الافتراء أن يُتحدث عن المرأة على أنها « الجنس الضعيف » . الرجل هو المسئول عن هذا الغبن . إذا عنينا بالقوة الشراسة ، فصحيح أن المرأة أقل شراسة من الرجل ، أما إذا كانت القوة مرادفة للشجاعة الأدبية ، فالمرأة عند ذاك تفوق الرجل بما لا يقاس . أليس لديها أكثر منه بكثير من الحدس ونكران الذات والتحمل والشجاعة ؟ (...) إذا كان اللاعنف شريعة كياننا ، فالمستقبل إنما هو للمرأة ...»[٥] .

ولقد كان تأكيد غاندى هذا مبنياً على خبرته لشجاعة النساء اللواتى ناضلن إلى جانبه وتحملن أحياناً ، من جراء ذلك ، الإضطهاد والسجن ، أمثال زوجته كاسترباى (التى شهد غاندى أيضاً لقدرتها العجيبة على تحمل سوء معاملته لها فى شبابه) ، وأناسوياباى ، وساروجينى نيدو التى قادت الإغارة السلمية الجريئة على مصانع الملح واعتقلت ، وغيرهن ... وقد شهد غاندى على ذلك بقوله :

« ... طالما أن المقاومة بموجب الساتياغراها (عبارة صاغها غاندى للإشارة إلى النضال اللاعنفى ويمكن ترجمتها بـ « قوة الحقيقة » : ك .ب .)

تستند إلى نكران الذات ، فإن هذا السلاح هو ، بشكل مميز ، فى متناول النساء . لقد لاحظنا فى الهند ، فى العام الماضى ، أن النساء ، فى مناسبات عديدة ، كن يتحملن الألم بأكثر صلابة من إخوتهن ، وأنهن ، أسوة بهم تماماً ، لعبن دوراً رائعاً أثناء هذه الحملة ، لأن المثل الأعلى لنكران الذات انتشر بينهن فشوهدن يقمن بأعمال تفترض تضحية خارقة ... »(٦).

ولكن التاريخ حافل بالنساء اللواتى ناضلن وما زلن فى سبيل إيمانهن وقناعاتهن أو فى سبيل شعوبهن وأوطانهن . من الشهيدات المسيحيات القديمات اللواتى لم ينقصن صلابة عن الشهداء الرجال (٧) إلى مسيحيات اليوم اللواتى يتحملن العذاب - والموت أحياناً - فى سبيل التعبير عن إيمانهن فى ظل نظام لا يقر لهن ، باسم أيديولوجيته الإلحادية ، بهذا الحق (كمثل زويى كرالمانيكوفا ونتالى لازاريفا وإيرنيا روتشينسكايا فى الإتحاد السوفياتى) ، أو فى سبيل ترجمة الإنجيل تضامناً مع المظلومين وجهاداً من أجل تحريرهم فى ظل أنظمة كانت تحمى ، باسم الدفاع عن « الحضارة المسيحية » ، مصالح حفنة من المستغلين على حساب السواد الأعظم من الشعب وبؤس جمهور من المحرومين (ومن النساء العديدات اللواتى استشهدن فى هذا السبيل أذكر الراهبتين الفرنسيتين اللتين « اختفيتا » فى ظل الديكتاتورية العسكرية فى الأرجنتين ، والراهبات الأميركيات الأربع اللواتى اغتالتهن عصابات الحكم فى السلفادور) ؛ إلى سائر النساء المناضلات ، حتى بذل الحياة أحياناً (وقد رأينا نماذج عنهن فى الجنوب اللبنانى فى مواجهة الإحتلال الإسرائيلى) عن استقلال أوطانهن ومن أجل تحرير شعوبهن .

هذا بالإضافة إلى ذلك النضال اليومى الذى يخوضه العديد من النساء ، فى ظروف عسيرة جداً أحياناً ، بدافع من عاطفة الأمومة أو الإخلاص الزوجى ، من أجل حماية أسرتهن وإسعادها ، وتحمل العديد منهن أعباء الأسرة ومسؤولياتها لوحدهن ، بشجاعة تقرب أحياناً من البطولة ، بعد وفاة الزوج أو هجره لهن .

أمام هذه الوقائع البالغة الدلالة ، لابد إذاً من التساؤل : إذا كانت فى المرأة طاقة هذا مقدارها ، فمن أين ينبع ، يا ترى ، إستضعاف المجتمع لها ؟

ما هى أسباب إستضعاف المجتمع للمرأة ؟

إذا كانت الصورة الشائعة عن « ضعف » المرأة تتنكر بهذا الشكل لواقع طاقاتها الفعلية ، فلابد من عوامل قوية قد أدت إلى هذا التشويه . ولسوف نجتهد فى تبيان عدد منها فى ما يلى :

١- المرأة أضعف عضلياً من الرجل

فالمرأة أضعف عضلياً من الرجل ، إذ أن نموها العضلى لا يتعدى معدله ثلثى معدل نمو عضلات الرجال وذلك بفعل عوامل هورمونية تعود إلى تفوق كمية الهورمونات الذكورية لدى الرجل (مما لا يعنى أن المرأة أضعف جسدياً من الرجل بشكل عام ، إذ أن هناك مؤشرات توحى بعكس ذلك ، منها تدنى مستوى الوفيات فى السنة الأولى من العمر عند الإناث منه عند الذكور ، وإرتفاع معدل متوسط العمر لدى النساء منه لدى الرجال). (٨)
وقد كانت القوة العضلية فى ما مضى ، أساس العمل المنتج وأساس الدفاع عن النفس وعن الجماعة . من هنا أن الرجال تفوقوا فى هذين الميدانيين الحيويين واستضعفوا بالتالى المرأة التى لم يكن بوسعها أن تجاريهم فيهما ، وهكذا توصلوا إلى أن يحدّدوا لها موقعاً هامشياً فى مجتمع سمحت لهم قوتهم العضلية بالإستئثار بسيادته دون منازع . ولكن الظروف تغيرت بفعل بروز الآلات التى خففت كثيراً من أهمية القوة العضلية ، إن فى العمل المنتج (الزراعة ، الصناعة) أو فى الحرب . ومع ذلك ، فقد بقيت الصورة القديمة ، صورة تفوق الرجال ، سارية ، بفعل قوة الاستمرار ، بعد زوال مبرراتها ،

وفق قاعدة سوسيولوجية عامة ، هى قاعدة تخلف تطور التصورات الجماعية عن تطور الظروف الموضوعية التى نشأت فيها .

٢- المرأة أقل عدوانية من الرجل

ثم إن المرأة أقل عدوانية من الرجل ، خاصة من حيث الفعل الجسدى العدوانى ، وهذا يعود إلى أسباب فيزيولوجية ، منها تفوق الرجل من حيث النمو العضلى ، وفعل الهورمونات الذكورية (التى إذا لُقّمَت بها دجاجة مثلاً زادت عدوانيتها بشكل ملحوظ) ، تلك الهورمونات التى تؤثر فى الدماغ منذ مرحلة الحياة الجنينية ، ناهيك عن الأسباب النفسية الإجتماعية (ومنها فعل التربية التى تنتظر من الأطفال الذكور منذ نعومة أظفارهم سلوكاً تسلطياً وعدوانياً تستهجنه عند الإناث)[٩] .

فإذا كانت المرأة أقل عدوانية من الرجل ، كما أشرنا ، كان لابد من أن تستضعف فى مجتمع لايزال العدوان يسود فيه إلى حد بعيد العلاقات الإجتماعية* رغم كل ما بذل ولا يزال يبذل من جهود لتلطيف مظاهره والحد من عنفوانه ، عبر العديد من القوانين والمؤسسات . هذا ما يثبته :

● حضور الحرب شبه الدائم فى تاريخ البشرية :

« من أصل الـ ٣٤٠٠ سنة من تاريخ الإنسان التى بوسعنا تأريخها إنطلاقاً من مستندات خطية أو مصادر أخرى ، كانت ٣١٦٦ منها أعوام حرب . أما الـ ٢٣٤ سنة المتبقية فلم تكن ، على وجه التأكيد ، أعوام سلام ، بل أعوام إستعداد للحرب . »*[١٠]

---

* لابل وأنه كثيراً ما يفسد العلاقات العائلية . فى ١٩٩٠/١١/٢٤ نقلت « إذاعة فرنسا الدولية » RFI أن مليونين من النساء الفرنسيات يتعرضن للضرب من أزواجهن وأن مؤتمراً عقد خصيصاً لبحث المشكلة تحدث فيه رئيس الوزراء ميشال روكار !

• المركز المرموق الذى لاتزال تشغله الحرب فى أيامنا ، كما يتضح من هذه الإحصاءات التى تعود إلى العام ١٩٨٣ :

« ... مليون وخمس مائة ألف دولار من النفقات العسكرية فى كل دقيقة ، خمس مائة ألف عالم يساهمون فى أبحاث ذات أهمية عسكرية ، ستة عشر مليوناً وثلاث مائة وتسعة وخمسون ألف من القتلى ، بينهم تسعة ملايين من المدنيين ، وهم ضحايا الحروب منذ ١٩٤٥ ، وأربع مائة مليار من الدولارات قيمة المساعدات العسكرية لبلاد العالم الثالث فى السنوات العشرين الأخيرة مقابل خمسة وعشرين مليار دولار فقط من المساعدات الإقتصادية ... »* (١١)

والجدير بالذكر أن وحشية هذه الحروب تتجلى ، لا بقضائها على نسبة كبيرة من المدنيين كما رأينا – ومنهم العديد من الأطفال – فحسب ، بل بزجّها بالأولاد أنفسهم ، وبشكل متزايد ، فى أتونها ، بصفة مقاتلين . وقد أشار تقرير حديث وضعته لجنة متخصصة من دائرة حقوق الإنسان فى الأمم المتحدة إلى وجود نحو مائتى ألف من هؤلاء ، تتراوح أعمارهم بين ١٢ و ١٥ سنة ، أقحمهم الراشدون فى الحرب قسراً أو طوعاً. (١٢)

• ولكن استفحال العدوان يتخذ أشكالاً غير الحرب ، منها المنافسة الضارية على الكسب بين الدول والشركات فى العالم الغربى ، واستئثار أقليات من المتمولين بنسب باهظة من الخيرات وإستثمار البلدان الرأسمالية المتقدمة لموارد العالم الثالث على حساب بؤس أبنائه ، وسلطوية الحكم فى العديد من البلدان حتى التى تنتمى منها إلى المبادىء التقدمية والإشتراكية .

فى هذا المجتمع ، الذى لا تزال العدوانية تعتبر فيه على أنها القيمة الأسمى والمقياس الأكبر للنجاح والوسيلة الأنجع لتأكيد الوجود ، لا مناصة

---

* فى أواخر عام ١٩٩٠ ، وهو زمن إعداد هذا الكتاب ، نرجو أن تؤول تباشير الوفاق الدولى التى لاحت فى الأفق إلى تراجع جذرى لهذه الأرقام المرعبة ...

من إستضعاف تلك التى تملك قسطاً أقل من هذه العدوانية – أى المرأة – وتهميشها .

٣- خوف الرجل الخفى من المرأة

وهناك سبب لا يستهان به لاستضعاف المرأة ، كامن فى ذاتية الرجل ، ألا وهو خوفه الضمنى من قوة المرأة . فالرجل ، فى قرارة نفسه ، ينسب إلى المرأة قوة خارقة ذات طابع أسطورى (تجلت قديماً فى الآلهات التى تعبد لها البشر قبل تعبدهم لآلهة ذكور) لا تعدو كونها صورة معكوسة لما يعتريه حيالها من شعور مبهم بالضعف . فهو بالفعل يسقط على المرأة صورة احتياجه الشديد إليها على الصعيدين الجنسى والعاطفى ، كما وعلى صعيد رغبته فى تخليد إسمه بذرية له (فالرجل ، فى قرارة نفسه ، لا يتقبل بيسر كون المرأة تستأثر وحدها بالقدرة على الإنجاب) [١٣] . ولا يسعنا أن ندرك أبعاد هذا الإحتياج كاملة وشدة وطأته على الرجل ، إلا إذا علمنا أنه يرتبط ، فى أعماق عقله الباطن ، بآثار خبرته الأولى ، خبرة ارتباطه الشديد ، عندما كان رضيعاً ، بالأم التى كانت تتوقف عليها آنذاك حياته وإنشراحه وطمأنينته بحيث أنها كانت تملك عليه اقتداراً شبه مطلق فيتصورها (أو بالأحرى يحياها) جبارة كلية الاقتدار . المرأة توقظ لدى الرجل أثر « الأم الهوامية » هذه [١٤] ، فيشعر ، من جراء ذلك ، أن بيدها مفتاح سعادته وشقائه ، وأن بوسعها أن تبنيه أو تحطمه ، فيخشى ذلك الاقتدار الذى ينسبه إليها ، ويسقط عليها خشيته هذه فيتصورها كائناً مرعباً [١٥]

جملة القول أن « الرجل يحسد المرأة ويرهبها بآن »[١٦] . ومن مؤشرات موقفه هذا عبارات مشهورة وشائعة ، مثل « فتش عن المرأة » أو « المرأة شر كلها وشر ما فيها أنه لابد منها »[١٧] ، أو تلك العبارة الفرنسية une femme fatale التى تصور بعض النساء وكأنهن وجه القدر الساحق . هذا

الوجه المرعب للمرأة جسدته الأساطير أيضا ، مثلاً ، فى الأوذيسة ، صورة « سيرسيه » الساحرة التى كان بمقدورها أن تحول الرجال إلى خنازير [١٨] ، وفى ذلك إشارة إلى استعباد المرأة للرجل بتسلطها على غرائزه واختزاله بالتالى فى حيوانيته [١٩] . وفى الأوذيسة نفسها تتمثل غواية النساء المميتة فى صورة عرائس البحر [٢٠] ويتحدث أغاممنون ، الذى فتكت به زوجته ، عن كيد النساء[٢١] .

من هذه الصورة المرعبة عن المرأة التى صنعها خياله ، يحاول الرجل أن يحتمى باعتماد نقيضها ، فيلوذ بفكرة « المرأة الضعيفة » مداراة لخوفه من « المرأة المرعبة » ، ويخفى عليه أنه ، بذلك يهرب من أسطورة إلى أسطورة ، ويدور فى دوامة الوهم . يقول الأخصائى النفسى بيار داكو بهذا الشأن :

« ... لقد اعتبر الذكور دوماً أن «النسل» (الأنثوى) خَطِر (...) فكان ينبغى بالتالى تحييد تلك الأنثى المخيفة وإستعبادها . وكانت الوسيلة الفضلى لذلك اتخاذ قرارٍ بدونيتها ، مما يسمح ، بالإضافة ، بإستبعادها إلى مسافة محترمة (...) وقد انتهت النساء إلى التصديق بأنهن «من رتبة أدنى» لكثرة ما تردد ذلك على مسامعهن فاحتقرن أنفسهن فردياً وجماعياً . لذا تغمر المرأة مشاعر الدونية منذ طفولتها ... »[٢٢]

هذا وأن الرجل يتوهم أنه ، بإستضعاف المرأة على هذا المنوال ، يتمكن من إخضاعها لمآربه فينال منها ما يطلب من راحة وهناء بشكل مكفول ومضمون (وكأنه دَجَّنَ « المارد » وجعله رهن اشارته) . ويغيب إذ ذاك عن باله أن الكائن الإنسانى لا يُملك كما تُملك الأشياء ، إنما يعطى ذاته تلقائياً لمن يشاء ، وأن السعادة لا تُنتزع عنوة من المرأة بل تنبع من التجاوب الحر الطوعىّ بينها وبين الرجل الذى تحبه ، وإن المرأة ، بالمقابل ، تُدفَع

دفعاً ، إذا ما أحست أن الرجل ينظر إليها نظرته إلى متعة وملك ، إلى الاستماته فى تأكيد استقلالها بما ملكت يدها من أسلحة ، فتقاوم الرجل بكيدها إذا لم تستطع أن تتصدى له بوجه مكشوف ، وتتسلط عليه بإغرائها إذا ما أعجزها اقتداره (قصة شمشون ودليلة) ، وتنكّد حياته بسلبيتها وشكواها ومطالبها التى لا ترتوى . وبذلك تبرر الصورة المرعبة التى رسمها عنها وتدفعه بالتالى إلى مزيد من الإنتقاص لها والتحكم بها ، وهكذا دواليك فى دوامة مهلكة للطرفين ...

٤- النزعة إلى تأكيد الذات على حساب الآخر

ومن أسباب استضعاف الرجل للمرأة أن المرء ينزع تلقائياً إلى تأكيد قوته على أساس استضعاف سواه . وكأنه لا يتأكد من اقتداره إلا إذا كان إلى جانبه كائن أضعف بوسعه أن يستقوى عليه . من هنا هذه النزعة الشائعة فى تاريخ البشر حتى الآن ، إلى تأكيد الناس لقدرتهم ، أفراداً وجماعات ، بالتسلط على سواهم ، سواء كان هؤلاء من عمر آخر (تسلط الكبار على الصغار) ، أو من جنس آخر (تسلط الرجال على النساء) ، أو من طبقة أخرى (تسلط المستغِلين على المستغَلين ، وتسلط الأغنياء على الفقراء) ، أو من شعب آخر (تسلط المستعمرين على الشعوب المستعمَرة) أو من لون آخر (تسلط البيض على السود) . هؤلاء كلهم ليسوا ضعفاء بـ«طبيعتهم» ، ولو صُوروا هكذا ولو تصوروه بالنتيجة هم أنفسهم ، إنما «يُستضعفون» ، أى يُحكم عليهم بموقع الضعف لإخضاعهم لسيادة المتسلطين ولتبرير هذه السيادة (٢٣) . فيقال مثلاً أن الولد لا فهم له ؛ وأن المرأة ناقصة العقل ولا حول لها ؛ وأن الفقراء خاملون ، كسولون ، عديموا الأخلاق ؛ وأن الشعوب المستعمَرة غير قادرة على قيادة ذاتها ، إلى ما هنالك .

هذه الحاجة إلى إستضعاف الغير للإستقواء عليهم تعبّر ، فى آخر المطاف ، وبعكس ما يعتقد أصحابها غالباً ، عن هشاشة الثقة بالنفس لدى الذين

يلجأون إلى هذه الوسيلة لتأكيد ذواتهم . من هنا تلك الظاهرة المعروفة وهى أن الرجال المستضعَفين حيث وضعهم الإجتماعى والإقتصادى والسياسى المتدنى ينزعون أكثر من سواهم إلى إستضعاف النساء (والأولاد) ليجدوا بذلك تعويضاً عن القهر والتبخيس اللاحقين بهم .

٥- قبول المرأة بدور المستضعَفَة

ولابد من الإشارة إلى أن مما يرسّخ الرجل فى إستضعافه للمرأة ، دخول المرأة فى لعبته وقبولها بالدور الذى يرسمه لها . ذلك أن المرأة تجد بعض الفائدة لها فى الاستجابة لتلك الصورة الدونية عنها التى يرسمها الرجل . فهى ، من جهة ، تنال من جراء ذلك حماية منه توفّر عليها مشقة النضال وخطر المسؤولية . فهناك من يجاهد عنها وهناك منّ يجنّبها مجازفة اتخاذ القرار وعبء تحمل المسؤولية . ومن جهة أخرى ، فإنها ، بتظاهرها بالضعف تهدىء مخاوف الرجل وتوهمه بتفوقه عليها وهكذا تجرده من سلاحه وتستطيع بالتالى أن تنال منه ما تشاء . هكذا يجد الرجل فى سلوك المرأة مبررا لاعتقاده بأنها ضعيفة ، ويخفى عليه أنها لا تبدو ضعيفة إلا لأنه شاء لها ذلك أو لأنه إضطرها إلى التظاهر بذلك .

ولكن هذا الحل ليس بالحل المشرف لأى من الطرفين .فالرجل يبقى فى وهمه واستعلائه ويُحرم بالتالىمن نعمة اللقاء بإمرأة حقيقية ، ومن غنى التفاعل والمشاركة بين قطبين متساويين يأخذ كلّ منهما بقدر ما يعطى ويفعل بقدر ما ينفعل ، ويخسر الطاقات التى كان بإمكان المرأة أن تطلقها لصالحها وصالح رفيقها وصالح البيت والمجتمع لو أعطيت كل حجمها وأُخذت على محمل الجد . أما المرأة فتبقى فى تبعيتها وقصورها واستلابها ، ولو جنت بعض الفوائد من جراء ذلك .

٦- إنسحاب المرأة

ومن أشكال إستجابة المرأة للدور الدونى الذى رسمه لها الرجل ودعمها بالتالى إستضعافه لها ، أنها كثيراً ما تنسحب من كبريات الأمور (الفكر والثقافة والعلم ، إلتزام القضايا الوطنية والإجتماعية والسياسية ...) التى يرغب الرجل بإبعادها عنها ليستأثر بها لنفسه ، فتنصرف إلى الصغائر (الزينة والأزياء ، قتل الوقت بالثرثرة والاغتياب ...) ، مما يؤكد للرجل بأنها فعلاً ضعيفة وتافهة لا رغبة لها ولا قدرة على الإضطلاع بجليل الأمور ، ولا يخطر على باله أنه يحمل قسطاً كبيراً من المسئولية ، بما رسمه لها من دور مسبق وفقاً لهواه ، فى إقصائها عن هذه الإهتمامات الكبرى وتحولها إلى الصغائر .

الخلاصة : كيف السبيل إلى إعادة الإعتبار للمرأة ؟

إن ما رأيناه فى ما سبق من عوامل إستضعاف المرأة لكفيل بأن يرسم لنا معالم الطريق المؤدية إلى تجاوز وهم إستضعافها بلوغاً إلى إنصافها وإعادة الإعتبار الواجب إليها . ومن هذه المعالم :

١- العمل على بناء مجتمع أقل عدوانية

إنصاف المرأة يمر بسير المجتمع الإنسانى نحو علاقات يسودها العدل والمساواه والتعاون وتحل فيها المشاكل بالنضال اللاعنفى والحوار .إن مجتمعاً كهذا من شأنه أن يقيّم الإنسان على غير معيار عدوانيته ، وبالتالى أن يعيد إلى المرأة – التى هى ، كما رأينا ، أقل عدوانية من الرجل – ملء إعتبارها. هكذا فإن كل نضال من أجل مجتمع أقل عدوانية إنما هو نضال من أجل إعادة الإعتبار إلى المرأة . وكل تحول فى النضال إلى الأساليب اللاعنفية

هو باب يُفتح للنساء للمشاركة الواسعة فيه وبالتالى للمساهمة فى صنع القرار ، كما هى الحال فى نضال قيصر شافيذ ونقابة العمال الزراعيين التى يقودها فى الولايات المتحدة.(٢٤) وبالمقابل ، فإن بروز المرأة فى المجتمع ومساهمتها الفعالة فى قيادته من شأنهما أن يعجّلا فى تحويل المجتمع من العلاقات العدوانية الراهنة إلى التعاون والتفاهم والحوار .

٢- أن يراجع الرجل نظرته إلى المرأة

مطلوب أيضا أن يراجع الرجل - ولو كلفه ذلك قلقاً ومشقة - نظرته إلى المرأة ، فيتعلم أن يراها لا من زاوية حاجته إليها وحسب ، مما يحدو به إلى التحكم بها بغية ضمان إشباع هذه الحاجة ، بل من حيث أنها إنسان مثله ، مهمّ بحد ذاته وليس فقط بالإضافة إلى الرجل (« الجنس الثانى » كما تقول سيمون دى بوفوار)* (٢٥) .فإذا ما شعرت المرأة بأنه معترَف فعلاً بوجودها ، لم تعد مضطرة إلى الإستماته فى تأكيد هذا الوجود عن طريق وسائلها الخاصة التى هى ، كما راينا ، سلاح المستضعَف ، كالكيد والتنكيد.(٢٦) هذا ما يؤول إلى خير الطرفين لأنه يمهد لعلاقة حقيقية بينهما ، يعترف بموجبها كل منهما بملء إنسانية الآخر ويتعهدها وينمّيها فيجنى منها بدوره إنتعاشاً وفرحاً وغنى .

هذا ما يفترض ، لدى الرجل ، تحرراً من التعلق المفرط بالأم الذى يتحول فى ما بعد إلى تعلق طفولى بالمرأة يغلب فيه الأخذ على العطاء وطابع الحاجة على طابع المشاركة . ولكن التعلق المفرط بالأم هذا يغذيه تشبث

---

* Cf Si mone de BEAUVOIR: Le Deuxièwe Sexe, Coll. "I dées", Edition Gollimard, Paris, 2 tomes, 1968.

الأم المفرط بطفلها ، وهو تشبث يأتى بدوره تعويضاً عن الإحباط الذى تعانى منه المرأة إذا استُضعفَت . من هنا أن تحرير الطفل يمهد السبيل لتحرير المرأة ، ولكن تحرير المرأة شرط «بدوره» لتحرير الطفل .

٣- أن يدرك الرجل أنه يستقوى بقوة المرأة

وفى هذا السياق يجدر بالرجل أن يدرك أن قوته لا تأتيه ، كما يظن غالباً ، من إستضعاف المرأة ، لأنه ، بالعكس ، إذا ما إستضعفها ، فإنه يضعف نفسه . إذ يحرم ذاته مما كان بوسع المرأة أن تقدمه له من حب خالص وتعاون صادق وإنجازات قيّمة ، لو أُخذت على محمل الجدّ وعوملت معاملة الندّ للندّ .

٤- النضال من أجل تحرير الفئات المقهورة

ولكن إنصاف المرأة يمرّ أيضاً بخوض المجتمع نضالاً من أجل تحرير الفئات المقهورة من إستلابها وتبخيسها ، فلا يعود الرجال فى هذه الفئات مضطرين إلى أن يقهروا بدورهم النساء (والأولاد) كى يعوضوا عما يلحقهم من قهر ويوهموا أنفسهم بأنهم أقوياء ومقتدرون وذات شأن وهيبة وكرامة . كما أن تحرير الفئات المقهورة يخلق المناخ الملائم لتحرير المرأة ، ذلك الكائن الذى كثيراً ما يعانى من إستلاب مزدوج ، بداعى وضعه الإجتماعى من جهة ، وبداعى جنسه من جهة أخرى .(٢٧) علما بأن تحرير المرأة من استضعافها ، من شأنه ، بالمقابل ، أن يعطى لهذا النضال من أجل العدالة والكرامة الذى نحن بصدده ، زخماً أكبر ، وأن يعجّل فى انتصاره ، إذ « ليس من مجتمع حر لم تصنعه النساء جنبا إلى جنب مع الرجال» .(٢٨) مهم أن يدرك المناضلون ، رجالاً ونساء ، أن الكفاح ضد الهيمنة ومن أجل التحرير إنما هو كفاح واحد مهما تنوعت مجالاته .

٥- تمرد المرأة على الـدور المرسوم لها

أخيراً ، لا آخراً ، ينبغى أن تدرك المرأة أن الدور المرسوم لها إنما هو مجحف بحقها ، يبخسّها ويتنكر لإنسانيتها ويتجاهل طاقاتها ، وأن الفوائد الظاهرية التى تجنيها منه إنما هى على حساب كرامتها وسعادتها الحقيقية ، وإنه ليس من «طبيعة الأشياء» كما يوهمونها ، وليس بالتالى قدرها المحتوم ، بل هو وليد توزيع اجتماعى جائر للأدوار بين الجنسين يفرضه الرجال وفقاً لأغراضهم فى حين أنه يخالف لا مصالح النساء وحسب بل مصالحهم هم أيضا الحقيقية ومصالح المجتمع الذى يدّعون الإستئثار بقيادته . فإذا ما أدركت المرأة إعتباطية الدور المرسوم لها وجوره وأذاه تسنى لها أن تتمرد عليه ، بدل الإنقياد إليه وكأنه أمر مفروغ منه . فإذا فعلت اضطرت الرجل إلى إعادة النظر فى أفكاره المسبقة عنها وإلى اكتشاف حقيقتها التى حجبتها عنه أوهامه وتواطؤ المرأة مع هذه الأوهام .(٣٠)

علماً بأن تغيير نظرة عدد من الرجال إلى المرأة ، من شأنه إذا حصل وعُبّر عنه بشتى الطرق ، من أقوال وكتابات ومواقف (وللمواقف الفعلية ، المعاشة ، دورها الأساسى فى هذا المجال وبدونها تفقد الأقوال كثيراً من مصداقيتها وفعاليتها) ، قلتُ من شأنه إذا حصل وعُبّر عنه ، أن يساعد المرأة على إستعادة الثقة بنفسها والتحرر بالتالى من الصورة التبخيسية عن نفسها التى يطبعها فيها المجتمع منذ نعومة أظفارها . إن ثقة الآخر بنا من شأنها أحياناً أن تسهم إلى حد كبير فى إعادة خلقنا من جديد .

هذا كله يفترض نضالاً يخوضه النساء والرجال على كافة الأصعدة ، من روحىّ وفكرىّ وإجتماعىّ وسياسىّ . إنما ينبغى للنساء أن يكنّ رائدات لهذا النضال ، لأنهن المعنيات بالأمر أولاً ، ولأن أمر تحريرهن يعود إليهن بالدرجة الأولى ، ولأن التزامهن فى قضية تحررهن إنما هو بحد ذاته بداية لهذا التحرر . علماً بأن تحريرهن إنما يعنى أيضاً مساعدة الرجال ، والمجتمع بأسره ، على التحرر والانعتاق .

ثانياً : مسؤولية المرأة فى حال تعرضها للإغتصاب

« يقولون : إذا المرأة أغتُصبت فى كرم لا تعود هى المسؤولة . ولكن إذا أغتُصبت فى مكان تستطيع (فيه) أن تصرخ أو تطلب النجدة فتكون هى المسؤولة . فماذا يقول لنا الإنجيل ؟»*

مقدمة

نص هذا السؤال يشير إلى موضوع يطرح بحدة فى دعاوى الإغتصاب ، ألا وهو موضوع مسؤولية المرأة المغتَصبَة . فالمحاكم لا تعترف بحقيقة الإغتصاب إلا إذا أبدت المرأة مقاومة لعنف المغتصب . لا بل إن التشريع القديم كان يشترط أن تكون هذه المقاومة قد تركت آثاراً على جسد الضحية كالكدمات والخدوش والجراح وما شابه ذلك . أما الآن فيُترك أمر تقدير مقاومة المرأة للقاضى ، وهى مهمة عسيرة ، خاصة وأنها تصطدم بأفكار مسبقة ذات طابع أسطورى شائعة بين الرجال – ومنهم معظم القضاة – حول موقف المرأة من عملية الإغتصاب التى تتعرض لها . لذا لابد من بسط هذه الأفكار ومن تمحيصها قبل التطرق إلى موقف إنجيلى من الموضوع .

١- الأفكار الشائعة حول مسؤولية المرأة المغتَصبَة

نادراً ما يشعر المغتصِب بأنه قد أذنب تجاه ضحيته ، بل غالباً ما يدعى بأن هذه كانت بالفعل راغبة فى الاتصال الجنسى وإنه بالتالى إنما منحها ما كانت ترغب هى به [٣١] .

والواقع أن الرجال – ومنهم القضاة – ينزعون إلى التجاوب مع هذا المنطق وإلى تحميل المرأة قسطاً كبيراً من مسؤولية الإغتصاب الذى وقع

* بُحث هذا الموضوع فى إجتماع لـ «ندوة الثلاثاء» عُقد فى ١٩٨٤/٢/٢٨

لها- وكأنهم بذلك يرفعون المسؤولية عن الرجل - وذلك إستناداً إلى الذرائع التالية :

١- يقال أن الضحية عرّضت ذاتها للإغتصاب بسبب إهمالها للاحتياطات الضرورية ، كأن تكون تجوّلت لوحدها في ساعة متأخرة من الليل ، أو أبدت ما شجّع المتحرش بها على التمادى ، أو أوقفت سيارة مجهولة لتطلب من سائقها أن ينقلها إلى مكان تقصده auto-stop إلى ما هنالك .

٢- يقال أيضاً أن المرأة قد تمارس ، عبر ما ترتديه من ملابس خلاعية أو ما تبديه من حركات ونظرات مثيرة ، إغواء يعبر عن رغبة خفية لديها فى الاتصال الجنسى ويستدرج الرجل إليه بحيث أن هذا الأخير ، إذا فوجىء بممانعة من قِبلها ، مارسه عنوة مع التى كانت فى الأصل مسؤولة عن إثارته .

٣- من ناحية أخرى ، فإن أبحاثاً حديثة فى ميدان التحليل النفسى بيّنت أن المرأة كثيراً ما يراودها ما يسمّى بـ«هوام الإغتصاب» fantasme de viol . أى أنها تتخيل أنها تبلغ الإشباع الجنسى من جراء إغتصاب تتعرض له ، مما يسمح لها بأن تتقبل هذا الإشباع دون أن يعتريها شعور بالإثم ، على أساس أنها غير مسؤولة عنه بل مكرهة عليه ومغلوبة على أمرها . كما أن هذا الهوام يسمح لها بأن ترى نفسها ثمينة ومشتهاة إلى حد أن رجلاً ما تجاوز ، فى سبيل إمتلاكها ، تحريماً بالغ الخطورة كتحريم الإغتصاب الذى تعاقب عليه بعض التشريعات بالإعدام كما هى الحال فى بعض الولايات الجنوبية من أميركا . هذا ويستنتج البعض من وجود هذا الهوام لدى العديد من النساء أن الإغتصاب ، فى حالة حصوله ، إنما يستجيب بالحقيقة لما ترغب به المرأة فى قرارة نفسها .

٤- ويجد أصحاب هذه الذرائع تأكيدا لمسؤولية المرأة عن الإغتصاب الذى قد تتعرض له ، بالاستناد إلى ما ينتاب معظم ضحايا الإغتصاب من النساء من شعور بالذنب يبلغ بهن حد الإمتناع عن رفع الشكوى عن الإعتداء

الذى استهدفهن . كما أنهم يجدون تبريرا لما يدّعون فى حال عدم توفر أى أثر موضوعىّ لعنف تعرضت له المرأة أو أى دليل ملموس عن مقاومتها (هذا ما نجده ضمنياً فى السؤال الذى انطلق منه الموضوع ، إذ المقصود به : لماذا لم تصرخ المرأة طالبة النجدة إذا تم الإعتداء عليها فى مكان مأهول ؟).

٥- بل يدّعى أنصار مسؤولية المرأة المغتصَبة إنها بالفعل تستدرج الاغتصاب الذى يلحق بها ، كونها لا تستطيع بلوغ اللذة الجنسية إلا عن طريق اعتداء يمارس عليها . هذا الإدعاء – الذى يستند إلى مزاعم بعض ممثلى التحليل النفسى بأن المرأة ماسوشية بطبيعتها تجد لذة فى الإذلال الذى يصيبها – هذا الادعاء كثيراً ما تشيعه الكتب والأفلام والبرامج التلفزيونية إذ تصور المرأة تتخبط برهة بين ذراعى مغتصبها ثم تستجيب له باستسلام ورضى ، وكأن العنف قادر وحده أن يوقظ رغبتها الجنسية .[٣٢]

٢- نقد هذه الأفكار

بعد أن توسعنا فى عرض حجج الذين يحمّلون المرأة مسؤولية تعرضها إلى الإغتصاب ، حان لنا أن نتناول بالنقد هذه الحجج .

١- ليس صحيحاً أن الإغتصاب يتبع دائماً إهمال المرأة للاحتياطات الضرورية . فالإحصاءات الفرنسية ، مثلاً ، تثبت أنه ، فى ٥٦٪ من الحالات ، تربط بين المغتصب والضحية معرفة سابقة (مما يشير إلى أن المرأة لم يكن لديها ، فى تلك الحالات ، ما يدفعها للإحتراس من الرجل كما لو كان غريباً) ، ويتم الإغتصاب فى منزل أحد الطرفين [٣٣] . لا بل قد يكون المغتصب ، فى حالات ليست بنادرة ، أحد الأقارب الأقربين [٣٤] ، كما قد يكون من الجيران أو الخدم أو المخدومين .[٣٥] .

٢- هذا وقد لا تقاوم الضحية لأسباب متعددة . منها أنها تعرضت للتهديد بالقتل (فكثيرا ما يتم الاغتصاب اليوم تحت وطأة التهديد بسلاح

نارى)؛ أو أنها أُخذت بالحيلة والمباغتة ؛ أو أنها تعرضت لإكراه معنوى[٣٦] أو ابتزاز عاطفى . وقد تخشى رفع الشكوى ضناً بسمعتها وشرفها وخوفاً من تشهيرها بين الناس .

٣- أما بخصوص ما يقال عن تشجيع المرأة للمتحرش بها ، فلابد من الإشارة إلى أن أى سلوك تقابل به المرأة هذا التحرش ، يمكن تأويله من قِبَل المغتصب على أنه تشجيع له . فإن بادلته التحية ، إدعى بأنها بذلك شجعته على التمادى ؛ وإن لم تُجب ، قال إنها بسكوتها هذا عبّرت عن قبولها الضمنى بأن يمضى قدماً فى مسعاه ، وإن صدته بعنف زعم أنها إنما فعلت ذلك لتتظاهر بالرفض من باب الإثارة .[٣٧]

٤- من جهة أخرى ، فإن الإدعاء بأن المرأة أبدت ، عبر مظهرها المغرى ، رغبة دفينة فى الإتصال الجنسى ، مبنى على تأويل خاطىء ينسب إليها ما يتلاءم مع رغبة الرجل ، فالمرأة تنزع بشكل طبيعى إلى إبراز أُنوثتها دون أن يكون وراء ذلك ، بالضرورة ، أى قصد محدد . أما إذا تمادت فى اعتماد مظاهر الإغراء ، فذلك عائد ، إلى حد بعيد ، إلى الوضع الدونى الذى حكم الرجل به عليها ولايزال ، إذ جعل من نفسه مبرر وجودها وغايته ، وأقامها فى موقع التبعية حياله بحيث يتوقف مصيرها على رضاه . مما يؤول بها إلى التهالك على استجلاب هذا الرضى بشتى وسائل الإغراء، إذ يصعب عليها أن تحسّ بأنها موجودة فعلاً إذا لم تتوصل إلى استلفات نظره إليها وإعجابه بمظهرها الجسدى .

٥- أما « هوام الإغتصاب » الذى يراود المرأة ، والذى قد يكون نتيجة لتربية جنسية قمعية تتعرض لها فتضطرها إلى مواجهة النزعة الجنسية فى داخلها عن طريق المداورة وليس بشكل صريح وسليم ، أو قد يأتى تعويضاً خيالياً عن الإحباط الناتج عن علاقة زوجية بائسة ، فلا يجوز الخلط بينه

وبين ما تريده المرأة لواقعها . فإنها ، وإن ارتضت أن يدغدغها هذا الهوام على صعيد الخيال لأنها إذ ذاك تستطيع أن تتحكم به كما تشاء وبدون خطر عليها طالما هو باقٍ على هذا الصعيد ، ليست بالمقابل مستعدة على الإطلاق أن تتقبله إذا ما تجاوز دائرة الخيال إلى واقع يفرض ذاته عليها ويقتحمها ويخرج من نطاق سيطرتها وينتهك ، لا بالتصور بل بالفعل ، حرمة جسدها ، ويلحق الذل بكرامتها .(٣٨) إن التصور بأن « هوام الاغتصاب » يحمل المرأة على الرضا عن اغتصاب فعلى يصيبها ، أشبه ما يكون ، بنظرى ، بموقف ذئب القصة الذى ، إذ سمع إحدى الأمهات تهدد ولدها ، عبر تخيّل عدوانى كان مجرد تنفيس عن ضيقها بشقاوته ، أن تعطيه للذئب كى يفترسه ويخلّصها منه ، أخذ هذا الكلام على محمل الجدّ ودنا من البيت منتظراً أن يُسلّم الولد إليه بالفعل .

٦- وإذا إنتقلنا إلى الشعور بالذنب الذى يعترى معظم النساء المغْتَصَبات ، فإننا نراه عائداً ، لا إلى مسؤوليتهن الخفية عما أصابهن ، كما يدّعى البعض ، بل عن توزيع الأدوار الذى يفرضه عليهن مجتمع يسوده الرجال . فبموجب هذا التوزيع يُعتبر من الطبيعى أن يؤدى الرجل دور الغزو والإقتحام ، أما المرأة فشأنها ، وفقاً للتوزيع نفسه ، أن تتشبث بدور الدفاع ، فتحرص على حماية نفسها وصيانة جسدها(«السيدة المصونة») من مبادرات الذكر(٣٩) . فإذا ما ترّسخ هذا التوزيع فى نفسية المرأة بفعل التربية والضغط الاجتماعى شعرت بأن الملامة إنما تقع عليها وحدها إذا أخفقت فى صدّ الإقتحام الذى مارسه الرجل عليها بموجب دوره « الطبيعى » .

٧- ومن باب هذا التوزيع الإعتباطى للأدوار الذى ينسب المبادرة للرجل والسلبية للمرأة ، نجد الادعاء ، الذى سبقت لنا الإشارة إليه ، بأن المرأة تحتاج إلى ممارسة العنف حيالها من قِبَل الرجل لتبلغ الإشباع الجنسى ، وكأن المرأة ، كما قلنا فى حينه ، ماسوشية بطبيعتها لا تستجيب جنسياً إلا لسلوك

سادىّ سلّطه عليها الذكر . والواقع أن الرجل ، باعتقاده هذا ، إنما يسقط على المرأة رغائبه الذاتية الدفينة . يقول الأديب والمفكر الفرنسى المعاصر بيار إمانوويل :

« كل رجل مغتصب بالقوة ؛ أما العذر الذى يقدمه عن نفسه أو عن سواه من الرجال ، فهو أن المرأة تريد أن تغتصَب . »[٤٠]

هذا ما أثبته اختبار أجراه الباحثان النفسيان FERCHBACH و MALAMUTH فى سنة ١٩٧٨ على مجموعة من الطلاب وُجّه إليهم السؤال التالى بعد أن قُرِأ عليهم وصفاً لحادث إغتصاب : « ما هو احتمال تصرفكم على شاكلة هذا المغتصب ، فى حالة تأكدكم من أنكم لن توقَفوا ولن تعَاقبوا ؟ » . فقد أجاب ٥١٪ منهم أنهم قد يمارسون الاغتصاب فى هذه الحال .[٤١]

أما الدافع الذى يحدو بالرجل إلى هذا التلازم بين دوره الجنسى وبين العدوان ، فمن أسبابه خوف دفين من المرأة مرده العلاقة التى تربطه ، فى مرحلة حاسمة من العمر ، هى فترة الرضاعة وما يليها من مطلع الطفولة ، بوالدة تتحكم آنذاك بمصيره لأنه محتاج إليها فى كل شىء ومنجذب إليها بكل جوارحه ومعتبر إياها من جراء ذلك كلية الإقتدار ، بينما هى تتشبث به بكل ما لديها من رغبة عارمة للتعويض عما تعانيه من إحباط فى علاقتها الزوجية غير المتوازنة ووضعها الإجتماعى المنتقص وتشده بقوة إليها لأنه بديل زوجها الغائب مادياً وعاطفياً ولأنه الذكر الوحيد الذى بوسعها أن تتصرف به فى عالم يتحكم فيه الذكور بالإناث كما يحلو لهم . هكذا يُضطر الطفل الذكر إلى الصراع من أجل تأكيد استقلاله عن أم تأسره بحبها معتبرة إياه امتداداً لكيانها ومكملاً له ، فتنشأ عنده من جراء هذا الصراع ، إلى جانب التعلق الشديد بأمّه وبقدر هذا التعلق بالذات ، نقمة خفية على سطوتها تنتقل فيما بعد إلى النساء على وجه العموم ، فلا يرى مناصة من إذلالهن

خشية خطرهن الوهمي عليه ، وكأن رجولته لا تتحقق إلا عبر عدائه للمرأة واحتقاره لها ، فتتأثر بهذا الموقف علاقته بزوجته ، مما يدفع هذه الأخيرة إلى أن تكرر مع أولادها الذكور ما عاشه زوجها في طفولته مع والدته ، وهكذا تمتد الدوامة جيلاً بعد جيل ، يساهم في تخليدها الطابع اللاشعوري إلى حد بعيد الذي تتخذه مقوماتها (٤٢) .

إن هذا الشعور العدائي حيال المرأة المتجذر في خوف دفين منها والنابع في الأساس من علاقة الرجل الطفولية بوالدته ، إنما يشكّل أرضية ملائمة للإغتصاب أو على الأقل للتساهل معه . هذا الشعور تغذيه وتنمّيه كل العوامل التي تحكم على الرجل بالخوف والإحباط وتعيق إنطلاقه وتحول دون نضجه النفسي ، ومنها ظروف القمع والقهر والتخلف والبؤس التي نعاني منها في شرقنا العربي . من هنا صيحة الشاعر نزار قباني التي تفضح برأيي ، بآن واحد ، عدوان الإغتصاب* ، والعدوان - النابع من نفس المصدر النفسي - الذي يمارس على ضحية الاغتصاب ، يقول :

« إن الرجولة لا تكون بالدعس والمعس وفكّ الرقبة ... وإلا لكان المحراث سيد العاشقين (...) الرجولة ، يا عزيزي ، هي حركة حنان (...) وليست (بلطة) نقطع بها رأس المرأة في ليلة زفافها ... أو غزوة نحرق بها الأخضر واليابس ...» (٤٣)

هذا ولابد من الإشارة إلى أن هذا التلازم بين الذكورة والعدوان الذي يتجلى في الغرب بترابط متزايد بين الجنس والعنف في الكتب (انظر مثلاً ظاهرة رواج كتاب .Histoire d'O) وسائر وسائل الإعلام ، تغذيه أيضاً طبيعة مجتمع الإستهلاك (٤٤) الذي ينظر إلى المرأة كسلعة تُعرض في سوق الشهوة

بما فيه ما يمكن أن يسمى بـ« الاغتصاب الزوجي »

بحيث تباع مفاتنها أو تستخدم من أجل الترويج لسِلَع أخرى ، مما يؤول إلى متاجرة بجسد المرأة تذلّها وتتنكر لإنسانيتها وتدوس كرامتها . مجتمع الإستهلاك يستهلك المرأة ولكنه بذلك يدمّرها ، كما يقول بيار إمّانوويل [٤٥] ، مرضياً بذلك عداء الرجل لها المبنى على خوفه الشديد .

إن هذا المفهوم العدوانى للذكورة عند الرجل هو ، فى آخر المطاف ، سبب الاغتصاب ، كما أنه يشيع مناخاً يوحى بالتساهل مع الرجال الذين يرتكبونه وبإلقاء المسؤولية على ضحاياه من النساء [٤٦] . ولكنه ، بالإضافة إلى ذلك وبصورة أشمل ، يعطل علاقة الرجل بالمرأة محولاً إياها إلى صراع يدمر إنسانية الطرفين ومبعداً إياها عن الحب الصحيح الذى به تتحقق إنسانية هذه وذاك ويتوفر فرحهما . هذه الخلاصة التى وصلنا إليها فى تحليلنا لمسؤولية الاغتصاب تمهد لاستجوابنا للإنجيل عما يمكن أن يسلّطه من أضواء على ما نحن بصدده .

٣- ماذا يقول الإنجيل ؟

١- يلاحظ الإنجيل موقف السطوة الذى يقفه الرجال من النساء (مثلاً فى ما كان مألوفاً بين اليهود من تطليق نسائهن إذا شاؤوا : راجع متى ١٩: ٣-١٠) ، هذا الموقف الذى رأيناه يبرر الإغتصاب فى آخر المطاف ، ملقياً مسؤوليته على المرأة ومسقطاً عليها ما يبرّر رغبة الرجال فى إذلالها . هذا الموقف صوّره العهد القديم :

« إلى بعلك تنقاد أشواقك وهو يسود عليك . » (تكوين ٣: ١٦) .

ولكن الإنجيل أبطل تلك القاعدة التى هى حصيلة الوضع البشرىّ الساقط واعتبرها نتيجة لما أفرزه هذا الوضع من « قساوة قلب » (متى ١٩: ٨) . وقد فتح الإنجيل صفحة جديدة فى تاريخ علاقة الرجل بالمرأة ، صفحة

تتحقق بها مقاصد الله التى كانت « فى البدء » (متى ١٩: ٨) حيث أعد الله الرجل والمرأة للمشاركة لا للصراع :

« فقال آدم هاهذه المرّة عظم من عظامى ولحم من لحمى ... ولذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته فيصيران جسداً واحداً » . (تكوين ٢: ٢٣-٢٤)

« فما جمعه الله لا يفرّقه إنسان » (متى ١٩: ٦) .

بهذه الجدة التى أُطلقها المسيح فى الأرض بكلمته وأعطى البشرية القدرة على تحقيقها بقوة قيامته ، صارت قاعدة العلاقة بين الرجل والمرأة ، المحبة :

«أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح الكنيسة». (أفسس ٥: ٢٥).

والتكامل :

« ... لا تكون المرأة فى الرب بلا الرجل ولا الرجل بلا المرأة ... » (١كورنثوس ١١: ١١) .

بدل الإستعلاء والتنافر . هكذا أصبح فى متناول كل إنسان أن يحقق ما كان يصبو إليه نزار قبانى للإنسان العربى عندما نادى قائلاً :

« إننى أطالب (بأنسنة) العلاقة بين الرجل العربى والأنثى العربية ، وجعلها أكثر شفافية وحناناً ... »

٢- ولكن الإنجيل يعلن أن دخول هذه الحياة الجديدة ، بما تقتضيه من علاقة متجددة أصيلة بين الرجل والمرأة ، تنتفى منها كل مقومات الاغتصاب ، إنما يفترض توبة ، أى تحولاً عن الذهنية العتيقة (metanoia) . وهذا التحول بدوره يفترض اعترافا بالخطيئة ، أى بالإنحراف عن تصميم الله المحيى . من علامات السقوط الواردة فى سفر التكوين أن آدم ألقى مسؤولية عصيانه على المرأة عوض أن يواجه وإياها متضامنَين الشر الذى

تسرب إلى قلبهما . هذا كان مؤشراً لتصدّع الحبّ وتعطّل المشاركة . هكذا فعل الرجال من بعد آدم ولا يزالون ، فألقوا مسؤولية الشرور كلها على النساء ، خاصة ما يتعلق منها باضطراب العلاقة بينهم وبينهن . أما يسوع فنراه ، عندما قُدمت إليه المرأة التى « بوغتت فى زنى » (يوحنا ٨: ٣) (لاحظوا غياب شريكها فى الزنى ...) ، وطُلب منه إدانتها ، يعكس الموقف المألوف . فإنه لم يرفع عن المرأة مسؤولية خطيئتها ولكنه شاء أن يطرح المشكلة من زاوية أخرى غيّبها الإهمال وشملها تعتيم مقصود . لذا صَمَتَ وإنكبّ يرسم على الأرض خطوطاً ، تاركاً للرجال ، الغيورين فى الظاهر على الفضيلة والناموس ، الذين تهافتوا على اتهام المرأة ، تاركاً لهم فرصة مراجعة أنفسهم والتساؤل عما إذا كانوا لا يتسترون ، بحجة تشددهم فى تطبيق الشريعة ، عن رؤية ما يعتمل فى أنفسهم من شهوة خفية أثارتها فعلة المرأة فراحوا يعاقبون فى شخصها ما لا يجرؤون على مواجهته فى ذواتهم ، متناسين أيضاً ما يتحملونه من مسؤولية كبرى فى إحلال النظام السلطوى الجائر الذى قد يكون دفع بهذه المرأة إلى الخيانة الزوجية نتيجة زواج لم تُستَشَر بشأنه ولم تراعَ حين عقده ميولها ورغباتها . ثم إذا به ينتصب ويتوجه إليهم صراحة مخاطباً ضمائرهم المخدّرة بقوله : « من هو فيكم بلا خطيئة ، فليبدأ ويرمها بحجر ! » ، منتظراً إنسحابهم الواحد تلو الآخر قبل أن يتوجه إلى المرأة بتنبيهه العطوف : « إذهبى ولا تعودى إلى الخطيئة من بعد . »(٤٧)

حواشى الفصل الأول

١- لقد كتب المحلل النفسى الكبير برونو بتلهايم :

« ... ينبغى (...) أن نكون قادرين على إخضاع التناقضات التى تتميز بها مواقفنا حيال النساء ، للنقد الذاتى .

فلو فعلنا أظن أننا سوف نلاحظ أنه ، رغم كون النساء يملكن حق التصويت وحق الدراسة وحق ممارسة مهنة ، فإن أفكارنا عنهن وعن طاقاتهن لا تزال بعيدة عن بلوغ مستوى النضج النفسى . ذلك أن هذه الأفكار لا تزال مشوهة من عدة وجوه من حيث الحدود المؤسفة التى تفرضها على النساء والتى تحول دون ممارستهن للقسط الأكبر من قدراتهن . إن نظرة أكثر عقلانية ، ومتزنة نفسياً ، من شأنها أن تقبل وتقدّر كون النساء ، من بعض النواحى ، مختلفات فعلاً عن الرجل ، وأن تعترف أيضاً أن ما هو مشترك بينهن وبين الرجال ، فى معظم الأمور ، أكثر بكثير مما يقرّ به مجتمعنا . »

'Bruno Bettelheim : Devenir femme, p. 285, in : Survivre (Surviving and other essays, 1952, 1960, 1962, 1971), traduit de l'americain par Théo Carlier, 1979), pp. 256-286, Coll. "Réponses", R. Laffont, Paris, 1979.

راجع أيضاً :

كوستي بندلى : تعليم الفتاة وآفاق المرأة ، منشورات النور ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ص ٥٩-٨٠

٢- وقد تتخذ النصوص الدينية نفسها حجة لتأكيد هذا « الضعف » الجوهرى المزعوم . كأن يُستشهد مثلاً بإشارة الرسول بطرس إلى المرأة على أنها « الإناء الأضعف » (١بطرس ٣: ٧) . علماً بأن عبارة الرسول هذه تعكس فى بشريتها - التى ينحدر الوحى الإلهى إليها دون أن يبطلها-

الوضع الإنسانى الراهن الساقط وما يحمله من انتقاص للمرأة . فى حين أن نظرة أخرى تبدو لنا فى رواية الخلق وفي ما تكشفه من حيث التصميم الإلهى الأصيل :

« ... إن قول الرب « أصنعُ له معيناً نظيره » (تك ٢: ١٨) قد يعنى أكثر مما نفهمه . وتفسير إيريناوس لما هو المعين « هو الشخص الأقوى » . وبحسب ما جاءت الكلمة فى السبعينية (وهى ترجمة يونانية مرجعية للعهد القديم : ك .ب .) فهى أميل إلى هذا المعنى . فقد وردت هذه الكلمة في الترجمة السبعينية ٤٥ مرة منها ٤٢ مرة بمعنى الشخص الأقوى الذي يأتى لنجدة الإنسان الأضعف ... »

القس فهيم عزيز : نظرة العهد الجديد إلى المرأة ، ص ٧٠-٧١ ، المرأة فى اللاهوت الكنسى ، برنامج المرأة فى مجلس كنائس الشرق الأوسط ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٦١ - ٩٣ .

٣- François VARONE ; Ce Dieu censé aimer la souffrance, Cerf, Paris, 1984, p. 235.

٤- مذكور فى : قدرى قلعجى : غاندى أبو الهند ، « أعلام الحرية » ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٥٦ ، ص٨٠ .

٥- Gandhi, in The mind of Mohatma Gandhi, compilé par R.K. prabhu et U.R. Rao, Oxford University press, London, mars 1945, p. 112, cité in : Gandhi : Tous les hommes sont frères. Textes choisis par krishna kripalani (All men are brothers, 1958), traduit en français par Guy Vogelweith (1969), "Idées", Gallimard, 1969, p. 272.

٦- Gandhi : Women and social injustice, Nowajivan Publishing House, Ahmedabad, éd. de 1954, p. 187, reproduit in Tous les hommes sont frères, op. cit., pp. 277-278.

٧- إن باسيليوس الكبير (القرن الرابع) « يشيد بحسنات المرأة ويشدد على مساواتها للرجل عندما يخبرنا قصة إستشهاد جوليت القديسة ، الذى

حصل فى السنة ٣٠٧ فى القيصرية (على عهد إضطهادات الإمبراطور ديوكليسيانوس) ، هذه القصة التى سمعها من أجداده . إذن هو يرتكز فى نصه هذا على معلومات مباشرة وحقيقية . يبرز باسيليوس تلك المرأة كبطلة فى حقل المسيح ويطلب من النساء أن يقتدين بها : « كانت القديسة تقول : لتهلك حياتى وليؤخذ مالى وليتلف جسدى قبل أن تخرج من فمى كلمة تجديف ضد الله خالقى ! » ثم يتابع : « ... كما يركض المرء إلى ملذات الحياة بشغف ، كذلك تقدمت جوليت بسرعة إلى الموقد ... أما وجهها فكان يفوح فرحاً وقداسة ويظهر للجميع غبطة روحها وصفاء أفكارها . كانت توصى النسوة اللواتى يحطن بها بألا يرضخن مدّعيات بضعف جنسهن ! إننا خُلقنا كالرجل فى طبيعة على صورة الله ونحن مثله ... المرأة خُلقت من الله بطاقة للفضيلة كالرجل . إننا نعادله فى كل شىء (...) ليس فقط لحماًمن لحمه بل عظماً من عظامه ولذلك يطلب الله منا إيماناً لا يقل صلابة عن إيمان الرجل ... »

إيما غريّب خورى : « المرأة بين حواء ومريم » ، ص ٢٠٠ – ٢٠١ ، فى : المرأة فى اللاهوت الكنسى ، ص ١٩٣ – ٢٠٩ ، برنامج المرأة ، مجلس كنائس الشرق الأوسط ، بيروت ، ١٩٨٠ .

هذا وتورد اللاهوتية الأرثوذكسية المعاصرة اليزابيت بير – سيغل ، نصاً معبراً لباسيليوس نفسه ، فيه يصحّح تصوّر مخاطبة وهمية اعتقدت أن عبارة « الإنسان » الواردة فى تكوين ١ (« وقال الله لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا ... » (تك ١: ٢٦) إنما تشير إلى الرجل وحده ، فيقول :

« كلا ! ولكى لا يعتقد أحد ، عن جهل ، أن عبارة « رجل » تشير فقط إلى الجنس الذكورىّ ، يضيف الكتاب : « ذكراً وأنثى خلقهم » . فالزوجة تملك أيضاً ، أسوة بالزوج ، إمتياز الخلق على صورة الله . فإن

طبيعتيهما متساويتان بالكرامة ، كما أنهما متساويان بالفضيلة والثواب والأمانة . فلا تقولنّ المرأة : إننى ضعيفة ؛ ففى النفس تكمن القوة (...) هل بوسع طبيعة الرجل أن تنافس طبيعة المرأة التى تقضى حياتها فى تحمّل ألوان الحرمان ؟ هل بوسعه ، هو ، أن يتشبه بتحمّل النساء للأصوام ، بحرارتهن فى الصلاة ، بغزارة دموعهن ، باندفاعهن فى الأعمال الصالحة ؟ (...) إنك قد أصبحتِ إذاً شبيهة بالله بالرأفة والصبر والوفاق ، بمحبتك للآخرين ولإخوتك ، بنفورك من الشر وسيطرتك على أهواء الخطيئة ، بحيث تمتلكين القدرة على احتلال موقع الآمِر . » (باسيليوس القيصرى : حول أصل الإنسان ، العظة الأولى) .

وتشير إليزابيث بير-سيغل ، معلقة على هذا النص ، إن باسيليوس عندما يمدح المرأة بهذا الشكل ، ويدعوها أن تتخطى ، بالقداسة ، الحدود المرسومة لجنسها ، بحيث تجمع بين الصفات المعتبرة عادة ذكورية (كالصلابة والسلطة) وتلك التى تعتبر عادة أنثوية (كالرأفة والصبر) ، يستند إلى خبرته الشخصية . فقد عرف بنفسه نساء مسيحيات عادلن لا بل فقن كثيراً من الرجال . ومنهن أخته الكبرى مكرينا التى أعترف لها بأنها كانت معلمته ومرشدته فى الحياة الروحية .

Cf Elisabeth BEHR-SIGEL : "La femme aussi est a l'image de Dieu" (Saint Basile de Césarée), pp. 66-68, in "Contacts", 35e année, no. 121, 1er trim.1983, PP. 62-70.

٨- « لماذا يموت الرجال أكثر من النساء ؟ تجيب ماريان راسموسون الأستاذة بقسم الوراثة بجامعة أوديا (السويد) عن هذا السؤال قائلة : « إن مدة الحياة الأقصر تبدو كطابع ملازم لطبيعة الذكر وناتج عن آلية الكروموسومات المحددة للجنس .»

فعند معظم الحيوانات ، وعند الإنسان بصفة خاصة ، إذا كان زوج الصبغيات التناسلية الناجمة عن إتحاد الحيوان المنوى مع البويضة من نوع

« س س » فإن الناتج يكون أنثى وإن كان من نوع « س ص » يكون ذكراً. وفى هذه الأنواع تعيش الأنثى مدة أطول من الذكر .

وتلاحظ الأستاذة راسموسون أنه ، على العكس من ذلك ، هناك أنواع من الطيور والزواحف والفراشات تولد فيها الصبغيات التناسلية « س ص » أنثى والظاهر أن الذكر هو الذى يعيش مدة أطول من الأنثى فى هذه الأنواع ، لذا فإنها تطرح السؤال الآتى : « هل الرجل هو الجنس الضعيف ؟ » ...

الجنس الأقوى ، ص ٨٢ – ٨٣ ، مجلة « دنيا العلم » ، السنة الأولى ، العدد ٥ ، ت٢ ١٩٧١ ، ص ٨٠–٨٣ .

من جهة أخرى فإن كتاباً صدر سنة ١٩٧٩ عن معهد نموّ الطفل فى نيويورك يذكّر بـ« هشاشة وعطوبية الصبيان عند الولادة ، إذا ما قيسوا بالبنات » ويضيف بأن « الصبيان ، حتى سن ثمانية أعوام ، يتعرضون لحوالى عشرين مرضاً لا تتعرض لها البنات » . ويؤكد لاحقاً بأن « النساء ينمين بأسرع من الرجال ولا يتعرضن لنفس الأخطار ».

Cf Mon enfant bouge tout le temps et il a du mal a apprendre. Travaux de l'Institut pour le Développement de l'Enfant de New York, sous la direction de I. Walsh (1979), adaptation française par Patrick VINCELET, traduit de l'américain par E. CHATELIN, pp. 70-71, Epi, Paris, 1983.

٩– راجع مثلاً بهذا الصدد :

د . عبدالستار إبراهيم : الإنسان وعلم النفس ، ص ٢٤ ، « عالم المعرفة » ، الكويت ، العدد ٨٦ ، شباط ١٩٨٥

* Anthony STORR : L'Agressivité nécessaire, R. Laffont, Paris, 1965, pp. 103-106.

* D.J. WEST : Homosexualité, Ed. Charles Dessart, Bruxelles, 1970, p. 228.

* Denise VAN CANEGHEM : Agressivité et Combatitivité, PUF, Paris, 1978, pp. 166 et 167.

* Denise VAN CANEGHEM: Comment ritualiser notre agressivité. Entretien avec Jacques SEMELIN, pp. 43-44, in "Alternatives non violentes", Lyon, no. 38, sept. 1980, pp. 36-48.

R. CLOUTIER et L. DIONNE : L'Agressivité chez l'enfant, Edisem - Le Centurion, 1981, pp. 31-35.

١٠ – Leonardo BOFF : Jésus-Christ libérateur, p.58 Cerf, paris, 1982, 58.

١١ – Betty WERTHER : Les Etats-Unis contre l'Unesco. La loi de la minorite, p. 28, in "Le Monde Diplomatique", 32e année, no 370, janvier 1985, p. 28.

١٢ – Cf. Alain LOUVET : Gosses de guerre (1989), Coédition R. Laffont, Paris et FMA, Beyrouth, 1989, pp. 11-12.

١٣– لذا نسب الرجل لنفسه أسطورياً القدرة على الإنجاب ليعوض بذلك عن إفتقاده الفعلى له . هذا ما يعبّر عنه « طقس الحضانة » عند الشعوب البدائية ، حيث يلزم الرجل الفراش عند وضع زوجته لطفل وكأنه هو المعانى من آلام المخاض . وهذا ما يتجلى أيضاً فى عدة تصورات أسطورية يذكر بعضها الدكتور ليديرير فى دراسته عن « الخوف من النساء » :

« إن آلهة كمثل زفس ، كانوا ينافسون النساء على صعيد الإنجاب . لا بل أن بعضاً منهم أنجبوا : فأثينا خرجت من جمجمة زفس وديونيسوس من وَرْكه . وقد حمل الإله الخنّى كومربى طفلين ، فى موضعين مختلفين من جسمه . وهناك بطل هندى وضع إبناً من وَرْكه . أما الجد الأول لعشيرة الـ أراندا ، بنديكوت ، فقد وضع إبناً خرج من إبطه . »

Dr. Wolfgang LEDERER : La Peur des femmes (The fear of women, New York, 1968), traduit de l'americain par Monique MANIN (1970), "Bibliothéque Scientifique", Payot, Paris, 1980, p. 141.

راجع أيضاً :

Glauco CARLONI et Daniela NOBILI : La Mauvaise Mére. Phénoménologie et Anthropologie de l'Infanticide (La mamma cattiva, Rimini-Florence, 1975), traduit de l'italien par Robert MAGGIORI (1977), PBP, no. 320, Paris, 1981, p. 155 et p. 155, note 5.

١٤– Cf Gabrielle RUBIN : Les Sources inconscientes de la misogynie. Coll. "Réponses" , R. Laffont , Paris, 1977.

١٥– يقول الدكتور ليديرير بهذا الصدد :

« ... بقدر ما يحس الرجل الراشد نفسه ضائعاً فى سعة الكون الشاسعة ، بقدر ما يحس نفسه ضعيفاً وحائراً ، بقدر ذلك يفتش فى المرأة التى تعيش إلى جانبه عن الأم المغذية والحامية . ولكن هذا المسعى فاشل لا محالة ، لسبب بسيط وهو أن المرأة ، رغم ما تملكه من صفات شخصية ، لا تملك أن تقدم له الكمالات التى يتوق إليها . لذا فهو يعتبرها محبطة وبخيلة وشحيحة وعدائية وهدامة . فالجنة التى أمتنعت وأغلقت أبوابها (فى وجهه) وأقصته عنها ، تلك الجنة أصبحت جحيماً .

(...) ليس المهم أن نفهم ذهنياً إلى أى حد تحتاج المرأة إلينا . المهم فعلاً هو أننا (...) فى العمق مقتنعون أنها قادرة تماماً على الإستغناء عنا ، فى حين أننا مرتبطون بها إرتباطاً وثيقاً . إننا حيالها فى نفس الوضع الذى نكون فيه حيال الإلّهة الكبرى ! »

W. LEDERER : La Peur des femmes, op. cit., p. 226 .

١٦– المرجع نفسه ، ص ١٣٩ .

١٧– ورد فى « نهج البلاغة » لعلى بن أبى طالب :« المرأة شرّ كلها وشرّ ما فيها أنه لابدّ منها » (كما ورد أيضاً ، « إن النساء نواقص الإيمان نواقص الحظوظ نواقص العقول ») . ولكن العلاّمة السيد محمد حسين

فضل الله ينفي نسبة الجملة الأولى إلى الإمام علي بن أبي طالب . ففي حوار أجراه نعيم علويّة معه حول كتاب « نهج البلاغة » ، أكد العلاّمة المذكور على عدم صحة نسبة كلمة « المرأة شرّ كلها ... » إلى الإمام علي بن أبي طالب لأنها لا تنسجم مع الفكرة القرآنية حول المرأة التي استقى منها الإمام علي فكره . راجع :

« نهج البلاغة » وحوار حوله مع العلاّمة السيد محمد حسين فضل الله . أجرى الحوار نعيم علويّة ، ص ٤٤٦ ، « الفكر العربي » ، السنة ٧ ، العدد ٤٢ ، حزيران ١٩٨٦ ، ص ٤٣٨-٤٥٣ .

١٨- Cf HOMÈRE: L"odyssée, pp. 677-680, in HOMÈRE : L'Iliade L'Odyssée, traduction de Mario MEUNIER, la Guilde du livre, Lausanne, 1961,

١٩- فكرة مماثلة نجدها عند أبي العلاء المعرّي (٩٧٣-١٠٥٧م) :

« إذا بلغ الوليد لديك عشرا فلا يدخل على الحرم الوليد

(...)

إلا أن النساء حبال غيّ بهن يضيع الشرف التليد »

(« لزوم ما لايلزم » ، ج١ ، ص ٢٤٧ ، تحقيق أمين عبدالعزيز الخانجي ، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٢٤) .

مذكور في : د . محمد عمارة : قاسم أمين وتحرير المرأة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط ٢ ، ١٩٨٠ ، ص١١٠ .

٢٠ - سيرسيه تحذر منهن أوليس بقولها :

« ... إنك سوف تبلغ أولا إلى عرائس البحر اللواتي تفتتن كل الرجال الذين يصلون إليهن . إنما كل من قاده التهور إلى الإقتراب من عرائس

البحر والإصغاء إلى صوتهن هذا لن يرى أبدا فيما بعد ، زوجته وأطفاله يجلسون قربه ، لدى عودته من البيت ، ويستقبلونه بقلب سعيد . فعرائس البحر يفتننه بنشيدهن الرخيم . يجلسن فى مرج ويشاهدَ حولهن ركام كبير من العظام البشرية ومن الأجساد المهترئة التى يجفّ جلدها ... »

HOMÈRE : L'Odyssée, op. cit., p. 710.

٢١ – تراءت روح أغاممنون لأوليس ، خارجة من مقر الأموات ، وروت له كيف إغتاله أجيست ، عشيق زوجته كليتمنستر ، بمساعدة هذه الأخيرة . فقال له أوليس :

« –يا أسفى ! إن زفس ذات النظرة الواسعة قد طارد دائماً بحقد ضار سلالة أتريه (وهو والد أغاممنون : ك .ب .) ، بواسطة كيد النساء . فبسبب هيلانة هلك منا الكثيرون (كان إختطاف هيلانة ، زوجة الملك منيلاس ، على يد باريس ، سبب حرب طرواده : ك .ب .) ، أما كليتمنستر فكانت، أثناء غيابك ، تُعد لك فخاً !

تكلمت بهذا فأجابنى أغاممنون على الفور قائلاً :

« لذا ينبغي لك ، أنت أيضاً ، أن لا تكون ، حتى حيال زوجتك ، أطيب مما يجب . لا تفض إليها بكل ما نضج فيك من مشاريع ؛ قل لها أموراً ، إنما أحجب عنها الأخرى (...) ولديّ أيضاً كلمة أخرى أقولها : القها بعناية فى أعماق فكرك . عليك أن ترسو سراً ، لا علناً ، بسفينتك فى أرض وطنك العذب ، إذ لا مجال للوثوق بنساء فيما بعد ... »

HOMÈRE : L'Odyssée, op. cit., p. 702.

٢٢– Pierre DACO : Comprendre les femmes ... et leur psychologie profonde (1972), Coll. "Marabout Service", no. 250, Les Nouvelles Editions Marabout, Verviers, 1983, pp. 46-47.

٢٣ – « ... أرسطو يقول : « يوجد ثلاث فئات من الأشخاص يعجزون عن العمل بأنفسهم ويحتاجون إلى من يحكمهم : العبد والولد والمرأة » .

إيما غريّب خورى : المرأه بين حواء ومريم ، مرجع مذكور ، ص ١٩٩

٢٤- Cf Jean -Marie MULLER et Jean kALMAN : César Chavez. Un comba non violent, Fayard-Le Cerf, 1977, p. 280.

٢٥- فى كتاب للمحللة النفسية كريستيان أوليفيه ، نجد هذا التصوير لمعاناة المرأة إذا ما جرّدتها نظرة الرجل من عمقها الإنسانى :

« كنت مصرة كلياً على نيل التقدير من أجل داخل شخصى وليس من أجل مظهره الخارجى ، ولكننى كنت أشعر ، للأسف ، إننى أسبح عكس التيار (...)

كانوا يصفّرون لى ، ويدنون منى ، ويشرّحوننى بالنظر ، بشكل يفقد معه المرء الجرأة على الخروج إلى الشارع (أتدرون أن نساء عديدات لم يعدن يجرؤن على مواجهة الشارع لأنهن لا يشعرن فيه أنهن كائنات بشرية بل أشياء معروضة (...) . كان يقال لى : إنك تعجبيننى ، إنك جميلة ، أود لو تزوجتك ولو إنجبت أطفالاً منك . ولم أكن أجد أى منطق في ما أسمعه ، كنت أعرف إننى أجتذب الرجال بما كان الأقل أهمية في شخصى . كنت أتمنى لو أن أحداً بدأ بلغة غير لغة الخارج . كنت أتمنى لو أن أحد سألنى : من أنتِ ؟ بماذا أنتِ تفكرين ؟ كيف تعيشين ؟ عما تفتشين ؟ »

(كنت أتمنى) لو بدأ أحد بأمر إنسانى يتعلق بى وليس بهذا الجسد الشقى الذى كان يبدو لى دائما حائلاً بين الآخر وبينى (...)

(...)

اكتشفت شيئاً فشيئاً أن لديّ ، بدل فكر منتج ، جسداً يشتهى ، وأن الرجل كان يحلم بأن يتملك هذا الجسد بشكل وقتى أو نهائى ... » .

Christiane OLIVIER : Les enfants de Jocaste. L'empreinte de la mère (1980), Ed. Denoël-Gonthier, Paris, 1982, pp. 94-95.

٢٦ - تقول العالمة الطبيعية والباحثة الإجتماعية أوديت تيبو :

« إن إختزال المرأة فى دور موضوع جنسى يدفعها إلى أخذ ثأرها بالأسلحة الوحيدة التى تُركت لها ، ألا وهى مفاتنها . أما حصرها فى البيت ، فهو يعرّضها إلى إقامة سيطرتها فيه ، فتملك باستبداد فى المجال الذى رُسم لها أن لا تتعداه ، وتصبح زوجة وأماً طاغية . »

Odette THIBAULT : Le Couple, aujourd'hui, Ed. Carterman, 1971, p. 95.

٢٧ - تقول العالمة الإجتماعية الأمريكية سوزن جورج ، فى دراستها الرائعة « كيف يموت النصف الثانى من العالم » :

« هل يوجد من يعانى من قلة التغذية ومن اليأس أكثر من فقير فى أدنى السلّم الإجتماعى فى بلد متخلف ؟ نعم : زوجته ، وغالباً ، أولاده (...)

(...) إن أكثر من خمسمائة مليون امرأة فى العالم الثالث يعانين من هذا الإستلاب المزدوج . »

cf Susan GEORGE : Comment meurt l'autre moitié du monde? (How the other half dies, 1971), traduit de l'anglais par Zéno Bianu (1978), Ed. R. Laffont, Paris, 1982, pp. 47-48.

٢٨ - Dominique FERNANDEZ : Mère Méditerranée (1965), "Le livre de Poche" , Paris, 1983, p. 74.

٢٩ - cf Erich FROMM : Avoir ou Etre? (To Have or To Be ?, New York, 1976), traduit de l"américain par Théo CARLIER (1978), R. Laffont , Paris, 1984, p. 221.

٣٠ - عن هذا التواطؤ ، تقول الباحثة الإجتماعية جرمان تليون « إن المرأة ، أسوة بكثير من المستعبدين ، كثيراً ما تكون متواطئة مع إستعبادها » . وتذكر بهذا الصدد ما أعلمها به صحفى سويسرى من أنه توجد فى بلاده رابطة نسائية ناشطة جداً هدفها معارضة اشتراك النساء فى التصويت .

Cf Germaine TILLION: Le Harem et les cousins (1966), Coll. "points," Ed du Seuil, Paris, 1982, p. 14.

٣١ – راجع :

Dr. Gilbert
Dr.Gilbert TORDJMAN : La violence, le sexe ... et l'amour, Coll. "Réponses " , Ed. R. Laffont, Paris, 1979, p. 238.

٣٢ – Cf J . Mac. KELLER : Le Viol, Payot, 1978, cité par Dr G. TORDJMAN : op. cit., pp. 221-230.

٣٣ – Cf Dr G. TORDJMAN : op. cit. , p. 238.

٣٤ – تقول إحدى الباحثات إن الإغتصاب بين المحارم viol incestueux هو من أكثر أنواع الإغتصاب إنتشاراً ، وإنه متفشٍ فى البلاد الغربية ، خاصة فى فرنسا ، وكذلك فى البلاد العربية .

Cf Marie-Josèphe DHAVERNAS : Le viol, p. 342, in Terre des Femmes, La Découverte-Maspero, Boréal Express, Paris-Montréal, 1983, pp. 342-344.

٣٥ – راجع :

الدكتوره نوال السعداوى : الوجه العارى للمرأة العربية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٧٢–١٧٥ .

Dr G. TORDJMAN : op. cit., pp. 219-220.

٣٦ – ومن أهمّ وجوه هذا الإكراه المعنوى ، ذاك الذى تشكو منه الكثيرات من عاملات ومستخدمات البلاد الصناعية من قِبَل رؤسائهن فى المصانع أو المكاتب الذين يدّعون عليهن حقاً جنسياً شبيهاً بما نُسب لإقطاعيي العهود البائدة من حق ممارسة الجنس مع نساء فلاحيهم ليلة زفافهن droit de cuissage بحيث تتعرض المرأة إلى عقوبات على صعيد عملها إذا ما تمنعت عن الإستجابة لمن يراودها على نفسها .

Cf M. J. - DHAVERNAS : Le viol, art. cit., p. 343.

وقد تبيّن ، من إستقصاء أوروبى أجرى سنة ١٩٨٢ ، أن فرنسا كانت البلد الذى يُرتكب فيه أكبر عدد من التجاوزات الجنسية فى ميدان العمل ، بحيث أن ٨٪ من النساء صرّحن بأنهن تعرضن لهذه التجاوزات بأشكال مختلفة تتراوح بين العدوان الكلامى والإغتصاب :

Elisabeth PAQUOT : France. Don Juan au pays du boeuf mode, p. 255, in Terre des Femmes. Panorama de la situation des femmes dans le monde, op. cit., pp. 255-258.

وقد وَرَد في إحدى الصحف اللبنانية ، سنة ١٩٨٨ ، هذا الخبر عن السويد ، منقولاً عن وكالة رويتر :

« أعلنت السويد المعروف عنها عالمياً نجاحها فى تحقيق المساواة بين الجنسين حرباً على المضايقات الجنسية التى تتعرض لها النساء فى المكاتب والمصانع .

وكشفت وزيرة المساواة السويدية أنجيلا تالن ، عن دراسة خلصت إلى أن المضايقات الجنسية فى العمل ما تزال تمثل مشكلة كبيرة فى السويد .

وتقول الدراسة أن ١٧ فى المائة من نحو ١٢ ألف امرأة شملتهن الدراسة ، يتحملن سماع العبارات البذيئة والتلميحات الجنسية والمداعبات ومراودتهن عن أنفسهن ومحاولات لإغتصابهن فى مكاتب أو مصانع .

(...)

وأظهرت الدراسة السويدية أن ٣٠ فى المائة من ضحايا المضايقات ، إما إستقلن أو تغيبن عن العمل أو حصلن على أجازة مرضية أو طلبن نقلهن من العمل .

وادعت كثيرات أنهن حرمن فرص الترقية أو زيادة المرتب . وفى بعض الأحيان خفضت درجاتهن الوظيفية عقاباً على رفضهن التلميحات الجنسية .

(« السفير » ، ٢٢-٢-١٩٨٨) .

Cf Dr G. TORDJMAN : op. cit., p. 226. — ٣٧

٣٨ – المشاعر الحقيقية التى تنتاب امرأة تتعرض للإغتصاب ، يمكن أن نتصورها عبر هذه الأسطر التى خطتها كاتبة فرنسية معاصرة ، وهى مارى كاردينال ، عن خبرة شخصية عاشتها . فقد تعرضت ذات ليلة لمحاولة إغتصاب أثناء نومها قام بها لص تسلل إلى البيت الذى كانت فيه . وقد حصل ذلك فى كندا حيث أتت لتلتحق بزوجها الذى كان يعمل فى ذلك البلد . وإليكم ما ساورها من إنطباعات عندما تعرضت لهذه المحاولة :

« كان رجلاً شاباً – ربما فى الخامسة والعشرين – (...) ولفتتنى بنوع خاص نظرته ، نظرة مرعبة .

(...) كان فى نظرته خطر ، ولكن كان فيها أكثر من ذلك : خطر ، وعيد ، ولا مبالاة تامة . احتقار مطلق . لم يكن لديه أى خوف منى ولا أى فضول حيالى . كنت فى نظره شيئاً ، شيئاً بوسعه أن يستخدمه دون خطر ، أداة يعرف طريقة إستعمالها .

الرعب حلّ بى فوراً ، كما لو أن سداً قد تصدّع وحرّر فيضاً مدمّراً . رعب : هل هى الكلمة المناسبة ؟ خوف . هَوْل . هَلَع . تقزز . هل من كلمة بوسعها أن تعبّر عن الرفض الجوهرى للإغتصاب ؟ لا ، ليس من كلمة . لقد خفت من القنابل أثناء الحرب . وفى طفولتى خفت من الضربات المتصلة الجنونية التى كانت تكيلها أميّ لي بالزنار ومن جهة الإبزيم . أحياناً أخشى وقوع حادث عندما أسوق بسرعة مفرطة . وقد خفت من الموت (...) إنما لا مجال للمقارنة بين أى من هذه المخاوف وبين الخوف من الإغتصاب ، هذا القتل الذى لا يقتل ، هذا الإغتيال الذى لا يحدث حتى ألماً . »

Marie CARDINAL : Autrement dit (1977). "Le Livre de Poche", Paris, 1978, pp. 127-128.

٣٩ – إن توزيع الأدوار هذا يؤدى إلى ممارسات غريبة تسجّلها الأعراف والأحكام ، نذكر فيما يلي بعضها :

تقول الباحثة ماري–جوزيف دافيرناس :

« في العديد من بلاد المتوسط من القارات الثلاث المتاخمة لهذا البحر ، كثيراً ما نرى أن ضحية الإغتصاب هي التي تُقتل ، لكونها جلبت العار على عائلتها ، عن طريق إغتيال يُموّه ليبدوا وكأنه حادث جرى قضاء وقدراً . إن كثيراً من هذه المجتمعات تكاد لا تفرّق بين إغتصاب النساء ونشاطهن الجنسي الطوعي ، إذ أن كليهما يُعتبر ذنباً تحمل المرأة مسئوليته . فسواء التي مارست أو التي تكبدت علاقة جنسية خارج سنن الزواج تعتبر أنها قد فرّطت بالكنز وتنزل بها ميتة يسمّونها « جريمة شرف » .

وقد كرّس « تشريع روكّو » هذه الممارسات في ايطاليا سنة ١٩٨٠ إذ أعطى عذراً لهذه الجرائم كما أنه سمح للمعتدي بأن ينجو من الملاحقة بزواج من ضحيته ... »

Marie-Josèphe DHAVERNAS: art. cit., p. 342.

وتضيف الكاتبة نفسها :

« في « البلاد الغربية » ، يكفي في كثير من الأحيان أن توجد امرأة في مكان عام دون حماية ذكورية ليعتبر ذلك تحريضاً على الإغتصاب ولكي يستند إليه كعذر أمام المحاكم المعتدون أو المدافعون عنهم . هكذا يتخذ الإغتصاب طابعاً مزدوجاً ، فهو من جهة قمع لحرية عمل النساء وتنقلهن ، ومن جهة أخرى وقاء من هذه الحرية نفسها بفعل ما يشيعه من خوف . »

id. , ibid, pp. 343-344.

* وإليكم واقعة جرت في الباكستان سنة ١٩٨٣ تشير إلى العقلية نفسها :

« فقد إتخذت المعارضة الليبرالية قضية لها من حالة فلاحة شابة مكفوفة حوكمت في آب ١٩٨٣ . المحكمة لم تجري أى تمييز بين الإغتصاب والزنا فحكمت على (ضحية الإغتصاب هذه) بخمسة عشرة جلدة وبالسجن

لمدة ثلاثة أعوام وبدفع غرامة قيمتها ٣٠٠٠ روبية ، فى حين أن المعتدى ، الذى كان من بيئة ميسورة ، أطلق سراحه لعدم ثبوت التهمة عليه . فوضع التجمع النسائى Women Action Forum يده على القضية واستأنف الحكم أمام المحكمة الشرعية العليا التى أصدرت ، تحت ضغط الرأى العام ، حكمها بتبرئة الفتاة . »

Alexandre DASTARAC et M. LEVENT : Pakistan : le verrouillage (Reportage), p. 12, in "Le Monde Diplomatique", 31e année , no. 365, août 1984, pp. 12-14.

٤٠ – Cité par Dr G. TORDJMAN: op. cit. , p. 237.

٤١ – Cf Dr. G. TORDJMAN : op. cit. , p. 231.

٤٢ – راجع :

* Gabrielle RUBIN : Les Sources inconscientes de la misogynie, op. cit.
* Christiane OLIVIER : Les Enfants de Jocaste. L'empreinte de la mère, op. cit.

٤٣ – نزار قبانى ، فى : ثورات فى سجن النساء من قاسم أمين إلى نزار قبانى . حوار مع نزار قبانى أجراه محيى الدين صبحى ، ص ١٩٤–١٩٥ ، « الفكر العربى » ، السنة الثانية ، العددان ١٧ و ١٨ ، أيلول – كانون الأول ١٩٨٠ ، ص ١٨٣–١٩٦ .

٤٤ – قد يكون ذلك من أسباب تلك الظاهرة المخيفة التى سُجّلت فى الولايات المتحدة : « ... فى سنة ١٩٨٠ قُدّر بأن فتاة واحدة من أصل كل ثلاثة فتيات عمرهن إثنا عشرة سنة ، يُتوقع أن تُغتصَب أثناء حياتها . »

Carol-Ann DOUGLASS : Etats-Unis. La crise des valeurs, p. 210, in Terre des Femmes, op. cit., pp. 206-210.

٤٥ – Cite par G. TORDJMAN: op. cit., pp. 236-237.

٤٦ – هذا المناخ بدأ الآن ينحسر فى بعض البلدان ، يُلاحظ فيها ، بفضل نضال النساء من أجل الإعتراف بكرامتهن ، تطور فى التشريع المتعلق بالإغتصاب بحيث يركّز أكثر مما قبل على مسئولية المعتدى . وفيما يلى نموذجان من هذا التطور ، أحدهما من كندا والثانى من السويد :

* كندا : « لقد أقرت كندا سنة ١٩٨٢ تشريعاً تقدمياً جداً ، إذ أن على المتهم أن يقدم البرهان على « الموافقة » المزعومة (لضحيته) . كذلك ترفض الحجج المبنية على سلبية (أى عدم مقاومة) ضحية أُخضعت للإرهاب (...) كما أنه يعترف صراحة بوجود إعتداء جنسى زوجى ».

Maire-Josephe DHAVERNAS : op. cit., p. 344.

* السويد : أما فى السويد ، فـ « التشريع المتعلق بالإغتصاب هو من أكثر التشريعات بهذا الشأن تقدمية فى العالم . فهو يرفض إعطاء الرجل أياً من الظروف التخفيفية التى يُستند إليها عادة للتلميح بأن الضحية كانت راضية . فلا يُعتدّ حتى بقبولها الركوب فى سيارة مجهول أو الذهاب إلى بيته . كذلك تُعطى المرأة المتزوجة حق رفع الشكوى على إغتصاب زوجيّ. والعقوبات المنصوص عليها فى هذه الحال كثيراً ما تكون ثقيلة (السجن لبضعة سنوات) . »

Lise-Lott JOHANSONN : Suède. Premières au hit-parade ?, p. 247, in Terre des Femmes, op. cit., pp. 245-248.

٤٧ – Cf Françoise DOLTO et Gérard SÉVÉRIN : L'Evangile au risque de la psychanalyse, Ed. Jean-PierreDelarge, Paris, 1977, pp. 77-101.

الفصل الثانى

موقع المرأة فى الكنيسة

- مكانة المرأة فى الإنجيل
- إيمانياً هل يتوجب على المرأة الخضوع ؟
- هل يترتب على المرأة أن تغطى رأسها فى الكنيسة ؟



أولاً : مكانة المرأة فى الإنجيل*

قبل الحديث عن مكانة المرأة فى الإنجيل لابدّ من التعرّف على التصور اليهودى عن المرأة الذى كان يطبع البيئة التى عاش فيها يسوع ، مما يبرز الطابع الثورى الذى اتسمت به ، فى هذا المجال كما فى سواه ، مواقف السيد وممارساته

١- التصور اليهودى عن المرأة فى عهد يسوع

أ - الوضع الدونى للمرأة

فى البيئة اليهودية التى عاش فيها يسوع ، كان للمرأة وضع دونى فُرض عليها فى مجتمع ساده الرجال على كل الأصعدة . وكان هذا الوضع يستند إلى نصوص الشريعة ، التى ، وإن وفرت للمرأة قسطاً من الحماية (راجع تثنية الإشتراع ٢١ ، ٢٢) ، إلا أنها إعتبرتها دون الرجل كرامة ومقاماً

* المرأة عُدّت من ممتلكات الرجل

ففى الوصايا العشر ، تظهر المرأة وكأنها من ممتلكات الرجل ، على شاكلة بيته وعبده وثوره وحماره . من هنا أن الوصية تحرّم على الرجال إشتهاء زوجات الآخرين ، تماماً كما تحرّم عليهم إشتهاء بيته أو أيٍ من ممتلكاته :

- « لا تشتهِ بيت قريبك . لا تشتهِ امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيء مما لقريبك . » (خروج ٢٠: ١٧)
- « لا تشتهِ زوجة صاحبك ولا تشتهِ بيته ولا حقله ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لصاحبك . » (تثنية ٥: ٢١)

---

* بحث هذا الموضوع فى اجتماعين لـ « ندوة الثلاثاء » عقدا على التوالى فى ١٩٨٨/٧/٢٦ و ١٩٨٨/٨/٩

* حرمان المرأة من الميراث

ومن حيث شريعة الميراث لم يكن للفتاة أن ترث أباها إلا إذا لم يكن له ابن يرثه . ففى هذه الحالة فقط يصبح الميراث من حق ابنته (عدد ٢٧: ١-١١) . كذلك لم يكن من حق المرأة أن ترث زوجها .

* سيادة الرجل وقصور المرأة

هذا وكانت المرأة ترى فى زوجها سيداً لها (هذا هو معنى عبارة « البعل » التي كانت تطلق على الزوج) . وكانت تعتبر أبداً فى وضع القاصرة : فلا يحقّ لها مثلاً أن تشهد فى المحاكم ولا يحقّ لها أن تقيم الدعاوى ولا أن تقتنى أملاكاً .

* عدم التساوى فى حق الطلاق

وكان من حق الرجل أن يطلّق امرأته ، شرط أن يعطيها كتاب طلاق (راجع تثنية ٢٤: ١،٣) كى يتسنى لها شرعياً أن تتزوج من غيره . وكان الطلاق يتم أحياناً لأخفّ الأسباب (مثلاً إذا لم تعد الزوجة تعجب زوجها أو حتى إذا أساءت الطهى ...) . أما الزوجة فلم يكن من حقها أن تطلب الطلاق إلا فى حالات نادرة (مثلاً إذا أصيب الزوج بداء البرص أو إذا كان يمارس مهنة تعتبر منفّرة كمهنة الدباغ) .

* إنتقاص الأنثى منذ الولادة

هذا التمييز بين الجنسين لصالح الذكر كان يبدأ منذ الولادة . فإذا وضعت المرأة طفلاً ذكراً أعتبرت نجسة لمدة أربعين يوماً . أما إذا وضعت طفلة أنثى فكانت تعتبر نجسة لمدة ثمانين يوماً (راجع لاويين ١٢: ١-٥)

* إنتقاص المرأة على الصعيد الدينى

لا بل كانت المرأة منتقصة الكرامة والحقوق حتى على الصعيد الدينى :

* كان على كل يهودى أن يقوم بالصلاة يومياً فى كل صباح قبل القيام بأى عمل ، وكذلك فى المساء ، متجهاً نحو أورشاليم ، نحو الهيكل . وكان يُستثنى من هذه الفريضة النساء والعبيد .

* فى الأعياد كان الرجال وحدهم يذهبون إلى بيت الله ، أما النساء فلا . (راجع تثنية ١٦: ١٦) .

* « صلاة اليهودى اليومية كانت كما يلى ، « مبارك أنت يارب لأنك لم تخلقنى بين الأمم (أى : بين الوثنيين : ك .ب .) ولا امرأة ولا جاهلاً » ، وأما المرأة فتقول بخضوع واستسلام :« مبارك أنت يارب لأنك خلقتنى حسب مشيئتك » . »[١] .

ب – إرتباط هذا الإنتقاص بالوضع الإنسانى الساقط

هذا الوضع الدونى للمرأة يستند فى الظاهر إلى الكلمة الإلهية . ولكن الكلمة الإلهية ارتضت ، كما نعلم ، أن تصاغ بكلمات بشرية تكشفها وتحجبها بآن . من هنا نرى الكتاب المقدس ، فى عهده القديم ، وإن كان يكرس بالظاهر دونية المرأة ، إلا أنه يشير إلى أن هذه الدونية لم تكن واردة فى التصميم الإلهى الأصيل الذى بموجبه خُلق الإنسان . فالمرأة ، فى الأساس ، صنو الرجل ، لأنها أقرب ما يكون إليه :

« وقال الرب الإله لا يحسن أن يكون الإنسان وحده . ينبغى أن أصنع له عوناً نظيره (...) فصاح الرجل : ها هذه المرَّة عظم من عظامى ولحم من لحمى !» (تكوين ٢: ٢٣,١٨)

ولكن « السقوط » الذى يفسد الخلق ، أى التخلف الراهن للإنسان عن مستوى إنسانيته الأصيلة ، هو الذى ينحرف بالعلاقة بين الرجل والمرأة عن أصلها الإلهى ، فيجنح بها إلى علاقة سلطوية تشبه علاقة السيد بالعبد . فالكتاب ينسب إلى « السقوط » الدونية الراهنة التى تعانى منها المرأة حيال الرجل . فالله ، بعد الخطيئة ، يقول للمرأة ، على سبيل ملاحظة الواقع المؤسف الحاصل :

« ... إلى بعلكِ تنقاد أشواقكِ وهو يسود عليكِ » (تكوين ٣: ١٦).

من هنا نستشفّ أن التشريع الذى يحكم على المرأة بالانتقاص فى العهد القديم ، إنما هو تشريع يعكس الوضع « الساقط » الراهن للإنسان ، لا إرادة إلهية بإذلال المرأة وتبخيسها . ولكن التصميم الإلهى الأصيل يبقى بادياً فى الخلفية ويتراءى فى أقوال الأنبياء إذا ما اتخذوا من علاقة الرجل والمرأة صورة لعلاقة الله بشعبه . وكأن النموذج الإلهى (نموذج علاقة الله بشعبه) الذى يتخذ مرجعاً عند ذاك يكشف أصالة العلاقة بين الرجل والمرأة وراء ما ينتاب هذه العلاقة من تشوهات .

* فقد ورد فى نبوءة هوشع (القرن الثامن قبل الميلاد) ، وهو أول من شبّه العلاقة بين الله وشعبه بالعلاقة الزوجية :

« ويكون فى ذلك اليوم يقول الرب : أنتِ تدعيننى رجلى ولا تدعيننى بعد بعلي » (هوشع ٢: ١٦)

علماً بأن كلمة « بعل » تعنى التسلط فى حين أن كلمة « رجلى » تفيد التوافق .

* أما كتاب « نشيد الأنشاد » (الذى كُتب بعد السبى) ، وهو نشيد حب بشرى أُتخِذَ صورة لعلاقة الحب بين الله وشعبه ، فإنه يصوّر إرتباطاً متبادلاً بين رجل وامرأة متحابّين ، لا تسلط بينهما ولا سيادة . هذا التوافق

الذى يجعل الطرفين على قدم المساواة فيما بينهما يتجلى مثلاً فى تسمية الحبيب لحبيبته « أختاً » :

« أختى ، عروسى ... » (نشيد ٤: ١٢)

(وعبارة « أخت » توحى بالمساواة ، كما يتضح من العبارة التى يستخدمها الرجال إذا ما شاؤوا أن « يرفعوا » امرأة إلى مستواهم ، فيقولون عنها إنها « أخت الرجال ») . كما أنه يتجلى فى مخالفة النموذج العلائقى المقترن بـ « السقوط » : ففى هذا النموذج تنقاد أشواق المرأة إلى الرجل من طرف واحد ؛ أما فى نشيد الأنشاد فلكل من الحبيبين شوق يشدّه إلى الآخر :

« أنا لحبيبى وإلىّ اشتياقه » (نشيد ٧: ١٠)

هذا النموذج الإلهى ، الذى يتراءى لنا فى أقوال الأنبياء مصححاً للعلاقة بين الرجل والمرأة ، معيداً إياها إلى ما كان ينبغى أن تكون عليه ، هذا النموذج كان من شأنه أن يصبح فاعلاً فى الإنسان الراهن إذا ما ترممت فى ذلك الإنسان الصورة الإلهية التى سقطت وتشوهت ، وقد تمّ هذا الترميم بفعل التجسد وتحقق أولاً فى شخص يسوع ، رائد الإنسان الجديد ونموذجه ، هذا ما يكشفه لنا الإنجيل .

٢ - مكانة المرأة فى تعليم يسوع وسلوكه

لقد كان ليسوع ، بصفته ممثلاً لملكوت الله ومجسداً له ، أو بعبارة أخرى بصفته أول ممثل للانسان المتجدد الذى رُممت فيه صورة الله ، لقد كان له موقف فريد حيال جميع الذين جعلهم المجتمع هامشيين بفعل الوضع « الساقط » المتحكم به . ومن بين هؤلاء المرأة . لقد أعاد يسوع للمرأة إعتبارها وحرّرها من نير الدونية والإنتقاص . عمله المحرّر هذا تجلّى إن على صعيد تعليمه أو على صعيد سلوكه .

أ - فى تعليمه

لم يعلّم يسوع مباشرة عن المرأة وطبيعتها ومكانتها وعلاقتها بالرجل . إنما نستطيع أن نستشف موقفه منها بوضوح من خلال تعليمه عن الطلاق وتعليمه عن الشهوة .

أ - ١ **تعليمه عن الطلاق** (راجع متى ١٩: ٣-٩ ؛ مرقس ١٠:١-١٢)

لقد سُئل يسوع إن كان « يحلّ لأحد أن يطلّق إمرأته لأية علة كانت » (متى ١٩: ٣) . وكان الفريسيون الذين طرحوا عليه السؤال ينتظرون منه فتوى شرعية بهذا الصدد . إذ كان الموضوع يُعالج فى اليهودية من منظار شرعى وكان الفقهاء يختلفون حوله . فمدرسة شماعي كانت متشددة فى حين أن مدرسة هِلاّل كانت متساهلة . أما يسوع فلم يشأ أن يجاريهم فى نظرتهم الشرعية بل تجاوزها إلى جذور القضية ، أى إلى طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة كما رسمها التصميم الإلهى لخلق الإنسان . ذلك أنه كان يعتبر أن الناموس جُعل من أجل الإنسان وليس الإنسان من أجل الناموس . لذا أجاب :

« أما قرأتم أن الخالق منذ البدء جعلهما ذكراً وأنثى وقال : لذلك يترك الرجل أباه وأمه ، ويلزم إمرأته فيصير الإثنان جسداً واحداً . فلا يكونان إثنين بل جسداً واحداً . لا يفرقنّ الإنسان ما جمعه الله . » (متى ١٩:٤-٦)

هكذا أعاد يسوع طرح الموضوع من منظار جديد بالكلية وثورى . لقد كانت المرأة فى اليهودية تعتبر ، كما رأينا ، من فصيلة **الأشياء** . كانت بالطبع شيئاً مميزاً يستحق رعاية خاصة ، ولكنها كانت شيئاً على كل حال . وكما أن المرء يتخلى عن شيء ما إذا ما تعب منه أو تضايق أو إذا قضى منه وطره أو أخذ يتطلع إلى ما هو أفضل منه ، هكذا كان يعتبر من الطبيعى أن يطلق إمرأته كما يخلع ثوباً ليستبدل به ثوباً جديداً قد يكون أبهى فى

نظره ، أو كما يخلع حذاء ليستعيض عنه بحذاء أكثر ملائمة لقدمه أو أفضل جودة من حذائه الأول ، أو كما يترك منزلاً لينتقل إلى آخر أكثر سعة أو رونقاً . كان إذاً من المسلم به بديهياً أن من حق الرجل التخلى عن زوجته كما أن من حقه التخلى عن أى شيء يملكه . الإختلاف بين الفقهاء كان محصوراً فى تحديد الشروط الشرعية التى تجيز هذا التخلى . أما يسوع فيقلب هذه المقاييس رأساً على عقب ، لأنه يؤكد أن العلاقة بين الرجل والمرأة ، كما يراها الله ، ليست علاقة إنسان بشيء ، مهما سمت قيمة هذا الشيء ، إنما هى علاقة شخص بشخص ، وأن الزوجة ، بالتالى ، ليست بحال من الأحوال شيئاً برّانياً ، ثوباً يخلعه الإنسان إذا شاء فيبقى كما كان ولا يطرأ على كيانه أى تغيير ، بل هى شخص أنثوى « نظيره » التحم وإياه فى علاقة حميمة جعلت منهما كياناً بشرياً واحداً (هذا هو معنى عبارة « جسداً واحداً » فى لغة الكتاب) ، بحيث لا يسع الرجل أن ينسحب من العلاقة « إنسحاب الشعرة من العجين » فيبقى كيانه سالماً غير متصدع ، بل صار واضحاً أن انفصاله عن زوجته إنما هو تمزيق لكيانه الذاتى الذى التحمت به تلك المرأة فى الصميم . هكذا برزت المرأة ، عبر هذا التعليم ، لا ملكاً للرجل يستغنى عنه إذا ما أراد ، بل شريكة قريبة منه قربه من ذاته ، لا بل « ذاته الأخرى » alter ego.

أ-٢ تعليمه عن الشهوة

نفس الرفض لتشييء المرأة يعبّر عنه يسوع فى تعليمه عن الشهوة :

« سمعتم أنه قيل : " لا تزنِ " . أما أنا فأقول لكم : من نظر إلى إمرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه . » (متى ٥: ٢٨)

أيعنى ذلك – كما يُفهم للأسف فى كثير من الأحيان – أن الجنس، فى نظر يسوع ، آثم إلى حد أن مجرد التفكير به يُعتبر من الكبائر ، مما يستتبع

إعتبار المرأة مصدراً للإثم والخطيئة لأنها توحي بالجنس وترتبط به ، وكأنها نجسة لا ينبغي للرجل أن ينظر إليها أو يتعامل معها إلا بحذر شديد لئلا يتنجس بدوره ؟ هذا التأويل هو أبعد ما يكون عن فكر يسوع الذى لا نرى عنده أثراً لهذا التركيز المهووس على الخطيئة الجنسية الذى تسرب فيما بعد ، بفعل الظروف التاريخية والتيارات الفكرية والعُقد البشرية ، إلى الذهنية المسيحية فأفسدها . كلاّ . إنما قصد يسوع أن يبيّن فداحة النظرة المنحرفة إلى المرأة ، لأن النظرة (أو « الرؤية » بشكل أعمّ) إنما هى أساس السلوك كله :

« سراج الجسد هو العين . فإن كانت عينك صحيحة ،كان جسدك (أى كيانك الحيّ الراهن : ك .ب .) كله نيراً . وإن كانت عينك مريضة ، كان جسدك كله مظلماً . فإذا كان النور الذى فيك ظلاماً ، فيا له من ظلام ! » (متى ٦: ٢٣,٢٢)

النظرة التى يتعرض لها يسوع فى قوله المذكور أعلاه نظرة « مريضة » تفسد السلوك كله . وهي مريضة بالضبط لأنها لا ترى فى المرأة إلا «شيئاً» يصلح للاستهلاك والمتعة ، إلا اداة لذة أنانية منطوية . إنها تجرد المرأة من إنسانيتها لترى فيها مجرد وقود للشهوة وطعام يُلقى للنهم الجنسى . إنها تلغي شخصها الفريد المتميز ، الموجود والمهم بحد ذاته ، لتتناولها فقط من زاوية حاجة الرجل إلى الإشباع الجنسى . إنها بعبارة أخرى نظرة « قاتلة » (والقتل هنا معنوى) ، شبيهة بتلك التى حللها الفيلسوف الوجودى المعاصر سارتر ورأى فيها إفراغاً للآخر من وجوده الذاتى .

هنا أيضاً يتجاوز يسوع النظرة الشرعية لينفذ إلى الجذور ويطرح القضية فى الصميم . الشريعة تقول : « لا تزنِ » . وقد كان يُفهم منها أنه ينبغى للرجل أن يكتفى بالزوجة التى « يملكها » وأن لا يتعدى على « ملك » سواه . وكأن القضية قضية إمتلاك يُعتبر مشروعاً فى بعض الحالات – وهى

التى يقرها الشرع – وغير مشروع فى ما عدا ذلك . يسوع ينسف من الأساس فكرة التملك هذه ، لأنها تلغى إنسانية المرأة وتحطم كرامتها . نلاحظ أنه لم يقل : « من نظر إلى إمرأة غير إمرأته ليشتهيها ... » . ذلك أن ما ينطبق على المرأة بشكل عام ينطبق على الزوجة أيضاً . فالزواج إذا عيش على حقيقته ، يعطى الشهوة دورها .. ومكانها ، ولكنه يروّضها بآن ، يهذبها ، يصقلها ، يكسبها بالحب مدلولاً جديداً يحولها عن إستيلائيتها ، كما يتحول الحجر إذا صار تمثالاً والصوت نغماً والخطّ كلمة والجسد وجهاً . الزواج لا يعطي الرجل صك ملكية على إمرأته ،بحيث يصبح « حلالاً » له أن « يستعملها » متى شاء وكيفما شاء . لذا فهو يخطىء ، ينظر يسوع ، إذا ما « اشتهاها » ، بالمعنى الفج للعبارة ، أى إذا نظر إليها كما إلى مجرد مصدر للمتعة وُضع شرعاً فى متناوله واعتقد أن بإمكانه أن يتصرف بها وفقاً لرغائبه بغض النظر عن مشاعرها الذاتية ورغباتها . الزواج ليس عقد ملكية بل ميثاق شراكة . والممارسة الجنسية فيه ، إن لم تكن تعبيراً حراً عن الشراكة ولغة للتلاقى ، تتحول إلى استغلال يتستر بغطاء الشرعية ليسلب من المرأة وجودها الذاتى الحميم ويحوله إلى أداة للتمتع الأنانى .

خلاصة الكلام أن تعليم يسوع عن الشهوة لا يشكل بحال من الأحوال تحقيراً للمرأة ، ودعوة إلى الحذر منها – كما فُهم غالباً للأسف – بل دفاعاً عن كيانها وإحقاقاً لكرامتها الإنسانية .

ب – فى سلوكه

ولكن موقف يسوع من المرأة تعدى تعليمه إلى مجمل سلوكه ، هذا السلوك الذى تتجلى فيه ، بشكل لافت ، سمات الإنسان الجديد .

إن يسوع يتميز عن زمانه بموقفه الفريد من النساء ، ذلك الموقف الحرّ والمحرِّر بآن . وقد كتب المطران غريغوار حداد بهذا الصدد :

« لم يكن لديه أية « عقدة » تجاه المرأة :
لا عقدة حذر منها ،
ولا عقدة خوف من المجتمع فيما يخص علاقته معها ،
ولا عقدة إستعلاء تجاهها لكونه رجلاً ،
ولا عقدة إستهزاء ، على أنها كمية مهمله يمكن الإستخفاف بها ،
ولا عقدة إستعمال واستخدام لأجل مأرب له ، أو رغبة جنسية .

بل إنه لم يكن يركز على هذه المعاملة – الاستثنائية (...) فى ذلك المجتمع – ولا استخلص منها العِبَر ، ولا علّم شيئاً حولها ، لأنه ولاشك كان يعتبر الأمر طبيعياً ... »[٢]

هكذا كان سلوك يسوع كله بمثابة إعادة إعتبار للمرأة المستلبة ، المهدورة الكرامة ، وعودة إلى التصميم الإلهى الأصيل فى التوافق ، الذى لا خوف فيه ولا عدوان ولا تسلط، وعودة بين الرجل والمرأة . ولم يحجم يسوع ، فى سبيل ذلك ، عن مخالفة الأعراف الإجتماعية السائدة لابل عن مخالفة حرفية الناموس نفسه .

ولنستعرض الآن بعض وجوه هذا السلوك البالغ الجدّة والجرأة :

ب–١ سمح يسوع بانضمام نساء إلى تجواله التبشيرى

فى بيئة يسوع التاريخية ، لم يكن للمرأة دور فى الحياة العامة . يقول المطران غريغورا حداد بهذا الصدد :

« لم يكن للمرأة (...) أية مسؤوليات فى المجتمع المدنى ، ولا فى المجتمع الدينى اليهودى (...) وكانت كل المسؤوليات محصورة بين الرجال .

وتنحصر مسؤولية المرأة فى بيتها وفى إنجاب الأولاد وتربيتهم . »[٣]

وإذا بيسوع يخالف هذا العرف فيسمح بأن تنضم النساء إلى الجماعة التى كانت ترافقه فى تجواله التبشيرى . وإننا نجد فى إنجيل لوقا (وقد دُعي بحقّ «إنجيل النساء» .) قائمة بأسماء بعض النساء اللواتى خرجن مع يسوع وكنا يخدمنه بأموالهن (كما كن ، على الأرجح ، يقمن بسائر أعمال الخدمة التى كانت ولا تزال النساء يتميزن بها) :

« وسار بعد ذلك فى المدن والقرى ، يعظ ويبشر بملكوت الله ، يصحبه الإثنا عشر ، وبعض النسوة اللواتى برئن من الأرواح الخبيثة والأمراض ، وهن مريم المعروفة بالمجدلية (...) وحنة إمرأة قوزى خازن هيرودس ، وسوسنة ، وغيرهن كثيرات كنّ يساعدنهم بأموالهن . » (لوقا ٨: ١-٣)

وقد كتب غريغوار حداد معلقاً على هذه الظاهرة الفريدة فى ذلك المحيط : « وهكذا ، عندما نتخيل محيط يسوع الذى كان ينتقل معه من مدينة أو قرية إلى أخرى ، يجب أن نزيل من مخيلتنا الصحابية الرجالية الصرف . فقد يكون عدد النسوة التلميذات كعدد الرسل ، إن لم يكن أكبر . »[٤]

ويضيف الكاتب نفسه أن يسوع

« كان دائماً فى علاقة مع محيط فيه نسوة وتشعر فيه النسوة أنهن لسن على الهامش ، أو غير مرغوب بهن . وهذا بحد ذاته ظاهرة قليلة الحدوث ، تنّم ولو من حيث الظاهر ، على مكانة المرأة لدى يسوع . »[٥]

إن وجود النساء فى زمرة يسوع يشير إلى الحرية السامية ، الخالية من العقد ، التى كان يتعامل بها يسوع مع النساء .

ويذكر الإنجيلى مرقس قائمة أُخرى من النساء اللواتى كن يتبعن يسوع فى تجواله واللواتى بقين إلى جانبه عند الصلب وشاهدن دفنه ، فى حين أن الرجال هربوا (راجع مرقس ١٥: ٤٠ و٤١,٤٧) . هؤلاء بلغ تعلقهن

بالمعلم حدّ الذهاب إلى القبر ليجرين على جسده مراسيم التطييب التى لم يسمح حلول السبت بإجرائها فى حينها . فكنّ ، من جراء ذلك ، أول من عرف بالقيامة المجيدة ، وكان ذلك بمثابة مكافأة لهن على إخلاصهنّ الفريد (راجع مرقس ١٦: ١-٨ ، يوحنا ٢٠: ١ ,١١-١٨) .

صحيح أن يسوع لم يرفع المرأة إلى مصفّ الرسل الإثنى عشر الذين أنيطت بهم مسؤولية قيادة البشارة . وذلك أن ضرورات هذه البشارة كانت تقتضى حداً أدنى من المراعاة لذهنية العصر ، من جهة ، وإن الإثنى عشر ، من جهة أخرى ، كانوا يمثلون أسباط إسرائيل الإثنى عشر (لأن الكنيسة هى « إسرائيل الجديد ») وهى أسباط تنتسب حكماً إلى رجال حسب العرف المألوف . لكن النساء ضاهين الرسل لا بل تفوقن عليهم لأنهنّ كُلّفن بأن يحملن إليهم بشرى القيامة التى هى محور تبشير الرسل . لذا فإن مريم المجدلية ،التى يقول إنجيل يوحنا أنها تلقت هذه المهمة من يسوع نفسه (يوحنا ٢٠: ١٨,١٧) ، قد أخذت فى كنيستنا لقب « المعادلة الرسل » . وقد كتبت فريدا حداد بهذا الصدد :

« ... ان هيبوليتوس (وهو كاهن ولاهوتى وشهيد فى كنيسة روما ، عاش بين ١٧٠-١٧٥ و٢٣٥م : ك .ب .) فى شرحه لسفر نشيد الأنشاد وتمشياً مع التراث الكتابى ، يدعو مريم المجدلية « رسولة القيامة للإثنى عشر » ... »[٦]

ب-٢ يسوع أخرج المرأة من الهامشية والإنزواء

هذا وقد قلب يسوع حواجز الحذر والإستعلاء التى كانت تعيق علاقة الرجل والمرأة فى مجتمعه وتحكم على المرأة بالهامشية والإنزواء .

* من حيث التعامل االعلنى مع المرأة

فقد كان من المستغرب والمثير للإنتقاد أن يتكلم رجل مع إمرأة فى مجتمع أو طريق . ولكن يسوع لم يتورع عن مخالفة هذه القاعدة فى مناسبات عدة :

* منها أنه تكلم علناً وعلى إنفراد مع المرأة السامرية ، بحيث تعجب التلاميذ عند عودتهم لما رأوه يحادث إمرأة (يوحنا ٤: ٢٧)(٧) . وقد فعل ذلك رغم علمه بأن سمعة تلك المرأة لم تكن فوق الشبهات : فقد تقلبت من رجل إلى آخر وكانت فى آخر المطاف تساكن رجلاً لم يكن بزوجها . ولكن يسوع لم يشأ أن يختزلها فى سمعتها أو خطيئتها بل نظر إلى كرامتها الإنسانية التى تتجاوز هذه وتلك .

* ومنها أنه قبل بكل بساطة الإكرام العلنى الذى قدمته له امرأة كانت معروفة من الجميع على أنها « خاطئة » (أى مومساً بلغة اليوم) ،وذلك عندما كان فى بيت أحد الفريسيين البالغين التشدد فى موضوع الطهارة . وقد دافع عن عملها بقوة ولم يتورع عن المقارنة بينها وبين الفريسي مضيفه وعن إظهار تفوقها على هذا الإنسان « الوقور » (راجع لوقا ٧ :٣٦-٥٠) .

* ومنها أنه لم يوبخ المرأة المصابة بنزيف نسائى على لمسها إياه سعياً إلى الشفاء (وهى لم تجرؤ على ذلك إلا خلسة) ، فى حين أنها كانت ، بنظر الشرع والعرف ، تعتبر نجسة تنجس من تلمسه ، بل تحدث إليها أمام الجمع وقال لها بعد أن إستمع إلى قصتها :

« يا إبنتى ، أبرأك إيمانك ، فاذهبى بسلام ، وتعافى من علّتك . »
(مرقس ٥: ٣٤)

* من حيث مصادقة المرأة

كذلك كان مستغرباً أن تقوم صداقة بين رجل وامرأة . ولكن يسوع قد تجاوز هذا العرف . فقد كان معروفاً أنه مرتبط بعلاقة صداقة ليس مع

لعازر وحسب بل مع أختيه مرتا ومريم أيضاً . وكان يتردد على منزلهم فى بيت عنيا ليأخذ قسطاً من الراحة . حتى إن إنجيل يوحنا ، فى ذكره لهذه الصداقة ، يقدّم الأختين على الشقيق فيقول :

« وكان يسوع يحب مرتا وأختها ولعازر » (يوحنا ١١:٥) . وقد عبّرت مريم عن مودتها له بجلوسها عند أقدامه تسمع كلامه (لوقا ١٠: ٣٩). كما أنها ، فى مناسبة أخرى ، دهنت قدميه بطيب غالى الثمن ، ومسحتهما بشعرها (يوحنا ١١: ٢ ، ١٢: ١-٨) [٨] . أما مرتا فإن ألفتها مع السيد كانت تسمح لها بمعاتبته :

« يارب ، أما تبالى أن تتركنى أختى أخدم وحدى ؟ فمرها بأن تساعدنى . » (لوقا ١٠: ٤٠)

« ياربّ ، لو كنت ههنا لما مات أخى . » (يوحنا ١١: ٢١) .

ب-٣ يسوع اتخذ من حياة المرأة مادة لتعليمه

وفى حين أن معلمى اليهود لم يكونوا ليجرأوا على ذكر النساء وعملهنّ فى معرض تعليمهم ، نرى يسوع يتخذ فى أمثاله أعمال المرأة وأوضاعها نموذجاً للملكوت الله الذى يبشر به .

* فهو يشبّه نمو الملكوت بما يحصل عندما تضع إمرأة خميرة فى الدقيق (راجع متى ١٣: ٢٣) .

* كذلك يعبّر عن حنان الله وشوقه إلى عودة الخاطىء ، بصورة المرأة التى فقدت درهماً من دراهمها وأخذت تفتش عنه بحرص شديد إلى أن وجدته (راجع لوقا ١٥: ٨,٩) .

* ويتخذ من الأرملة التى ألحت فى الطلب لدى قاضٍ ظالم إلى أن نالت منه حقها ، نموذجاً لإلحاح المؤمنين فى الصلاة (راجع لوقا ١٨: ١-٩) .

* كذلك شبّه ما سوف يختبره تلاميذه من فرح لقيامته بعد حزنهم لفراقه ، بأوضاع المرأة التى تعبر من ألم المخاض إلى فرح الولادة (راجع يوحنا ١٦: ٢١,٢٢) .

* كما نراه يأخذ من عادة إنتظار العروس ، محاطة برفيقاتها ، لمجيىء العريس إلى بيت والديه ، صورة عن ضرورة الإستعداد لمجيىء ملكوت الله (راجع متى ٢٥: ١-١٣) .

ب-٤ يسوع أبدى إعجابه بإيمان بعض النساء

ثم إن يسوع لم يتردد فى إبداء إعجابه علناً بإيمان بعض النساء ، فى حين أن المجتمع اليهودى آنذاك كان يهمّش المرأة حتى دينياً كما رأينا .

* فقد قال علناً للمرأة الكنعانية الوثنية التى أبدت ثقة مذهلة بحنانه فألزمته بالتراجع عن قراره الأول بحصر عجائبه باليهود دون الوثنيين :

« ما أعظم إيمانك أيتها المرأة ... » (متى ٢٥: ٢٨)[٩]

* كذلك مجّد علناً فعل الأرملة الفقيرة التى ألقت فى صندوق الهيكل عطاءً يسيراً (فلسين) اقتطعته من حاجتها . قال :

« الحقّ أقول لكم : إن هذه الأرملة الفقيرة ألقت أكثر من جميع الذين ألقوا فى الخزانة ، لأنهم كلهم ألقوا من الفاضل عن حاجاتهم ، وأما هى فإنها من حاجتها ألقت كل ما تملك ، كل رزقها . » (مرقس ١٢: ٤٣-٤٤)

ب-٥ يسوع تحدى قسوة مجتمعه حيال المرأة

هذا وقد تحدى يسوع القسوة التى كان يبديها مجتمعه حيال المرأة . هذا ما يظهر جلياً فى حادثة الإمرأة التى أخذت فى زنى (راجع يوحنا ٨:

١-١١) . فقد أتاه بها الكتبة والفريسيون فيما كان يعلّم فى الهيكل والشعب مجتمع حوله . وأقاموها وسط الحلقة وقالوا له :

« يا معلم ، إن هذه المرأة أُخذت فى الزنى المشهود . وقد أوصانا موسى فى الشريعة برجم أمثالها ، فأنت ماذا تقول ؟ » (يوحنا ٨: ٤-٥)

وقد أرادوا من وراء ذلك أن يحرجوه ، فإما يناقض خطّ الرحمة الذى اعتمده خطاً له ، أو يخالف شريعة موسى أمام المتشددين فى تطبيقها من كتبة وفريسيين فيمنحهم بذلك ذريعة ليعتبروه كافراً ومشجعاً للزنى وبالتالى مستحقاً هو نفسه الموت .

والحال أن التحامل على المرأة واعتبارها وحدها أصل الشرور كان بادياً فى هذه الحادثة . فإن شريعة موسى التى يستند إليها هنا الكتبة والفريسيون كانت تنصّ ، فى حال رجل فعل الزنى مع امرأة متزوجة ، أن يُرجَمَ الفاعلان وليس المرأة وحدها (راجع لاويين ٢٠: ١٠ وتثنية ٢٢: ١٢) . والمرأة هذه أخذت فى « الزنى المشهود » كما ورد أعلاه . فأين صاحبها ؟ لقد تخلى هو عنها وتركها تواجه العقاب وحدها ، وكذلك تواطأ معه الرجال الذين قاموا بالمداهمة فتركوه يمضى واحتفظوا بالمرأة وكأن الوزر يقع عليها وحدها . أليست هذه هى العقلية السائدة حتى الآن ؟ ألا يقولون : « فتش عن المرأة ؟ » . ألا يُعتبر زنى الرجل المتزوج ذنباً يمكن التغاضي عنه فى حين أن زنى الزوجة جريمة لا تُغتفر ؟ ألا تلقى المسؤولية كلها أو جلّها على الفتاة وحدها فى حال أنها حملت خارج الزواج أو حتى فى حال تعرضها للإغتصاب ؟ وفى حال إقدام امرأة على الخيانة الزوجية ، هل يسأل أحد عن طبيعة معاملة الزوج لها التى قد تكون دفعتها دفعاً إلى الخيانة ؟

كل ذلك واجهه يسوع عندما رُفعت قضية تلك المرأة إليه من قِبَل القيّمين على الشريعة . رأى هؤلاء يستخدمون الشريعة ليحمّلوا المرأة وحدها وزر الشر الذى يرتكبونه كلهم . فأي منهم لم يزن بالفكر مع امرأة طالما أنهم

لا ينظرون إليها كشخص بالمعنى الكامل من العبارة بل كإلى شيء يُمتلَك ؟ ولكنهم اتخذوا من خطيئة المرأة ذريعة ليتحولوا عن مواجهة خطيئتهم الشخصية ويمنحوا أنفسهم شهادة تبرير يستمدّونها فى تمسكهم بحرف الناموس وحرصهم على تنفيذ أحكامه بحذافيرها بحق من اتخذوها كبشاً للفداء . هذا ما أراد يسوع أن يلفتهم إليه عندما قال لهم :

« من كان منكم بلا خطيئة ، فليتقدم ويرمِها بحجر !» (يوحنا ٨: ٧)
وأكبّ يكتب على الأرض ليدع لهم مجال العودة إلى نفوسهم ومحاسبتها . وكأنه ، كما قيل ، بكتابته على الأرض الطرية ، يدعو إلى الاستعاضة عن شريعة موسى التى كتبت على الحجر (بسبب قساوة القلوب كما يقول أوغسطينوس) بشريعة الرأفة المطبوعة فى لحم القلوب . هكذا انسحب المتهِمون الواحد تلو الآخر بعد أن انكشفت لهم حقيقتهم وتركوا المرأة وحدها فى مواجهة يسوع الذى وقف إلى جانبها فى وجه تسلط الرجال وظلمهم . لقد وقف معها ولو كانت خاطئة ولكنه لم يكن مع خطيئتها لأن الخطيئة هى عدوة لها تؤذى إنسانيتها . من هنا قوله لها الذى تمتزج فيه الرحمة بدعوة إلى الاستقامة والأصالة :

« وأنا لا أحكم عليك . إذهبى ولا تعودى إلى الخطيئة » (يوحنا ٨: ١١)[١٠] .

الخلاصة

هكذا نرى أن يسوع الإنجيل يعيد إلى المرأة كمال كرامتها وملء دورها الإنسانى ويؤكد على الوحدة الكيانية العميقة بينها وبين الرجل رغم كل الفواصل المصطنعة التى أقامها المجتمع جيلاً بعد جيل ليرسّخ سلطوية الرجال ويحكم على النساء بالدونية والإستلاب . بقى أن لا نكتفى بتأكيد مكانة المرأة فى الإنجيل بحيث نستعفى من دورنا فى ترجمة هذه المكانة فى صلب

الحياة اليومية وعلاقاتها وممارساتها (علماً بأن إعلان هذه المكانة كان فى الإنجيل ، كما رأينا ، ممارسة حية قبل أن يكون كلاماً) . وألا نكون قد اتخذنا ، من حيث لا ندرى ، من الإنجيل تبريراً لاستمرار الأوضاع الإجتماعية الجائرة بحقّ المرأة على ما هى ، متعللين بأنه لم يعد للمرأة ما تطالب به طالما أن الإنجيل أوفاها حقها ، ومستخدمين الإنجيل كنوع من المنحدّر نلهى به الناس وأنفسنا ، بصور مثالية نتشدّق بها ، عن الواقع البشع الأليم .

إننا حملة الإنجيل وقد اؤتمننا عليه وإلينا يعود أن يكون حياً فاعلاً فى التاريخ أو حبراً على ورق وكلاماً جميلاً لا طائل له ولا وزن فى سياق الحياة الإجتماعية الراهنة . فلندعه إذاً يغيّرنا فى الصميم ، يحوّل نظرتنا إلى أنفسنا و إلى الجنس الآخر ، ويجعلنا خميرة تجدّد فى المجتمع الذى نحيا فيه .(١١)

ثانياً : إيمانياً هل يتوجب على المرأة الخضوع ؟

« أيتها النساء إخضعن لأزواجكنّ خضوعكنّ للرب لأن الرجل هو رأس المرأة كما أن المسيح رأس الكنيسة التى هى جسده وهو مخلصها . وكما تخضع الكنيسة للمسيح فلتخضع النساء لأزواجهنّ فى كل شىء . » (أفسس ٥: ٢٢-٢٤) .

كيف تتفق هذه الآية مع وجوب تحرير المرأة ومساواتها بالرجل ؟»*

مقدمة : وجها الكلام الإلهى

للكلام الإلهى وجهان : وجه إلهى ووجه حضارىّ . الأنبياء والرسل يتكلمون لغة العصر ، يسكبون الوحى الإلهى فى قالب الصيغ الحضارية التى ينتمون إليها . لذا فإنه لا يسعنا أن نرى فى كلامهم كلاماً إلهياً محضاً مطلقاً ، ولا تعبيراً حضارياً بحتاً ، إنما الإثنين معاً فى تداخل حيّ يحترم الله فيه وضع الإنسان الراهن وينيره من الداخل دون أن يلغيه أو يقفز فوقه .(١٢)

١ – الوجه الحضارىّ فى كلام بولس الرسول

أ – إنه يعكس الرؤية الحضارية اليهودية

من جهة يعكس كلام الرسول بولس المذكور أعلاه رؤية الحضارة اليهودية إلى المرأة كقاصرة تنتقل من وصاية الأب إلى وصاية الزوج . وهى رؤية نابعة من انتقاص للمرأة كان اليهودى يعبّر عنه ، كما أسلفنا ، فى صلاته ،

* بُحث هذا الموضوع فى إجتماع لـ « ندوة الثلاثاء » عُقد فى ١٩٨٩/٧/١١

إذ كان يشكر الله لأنه لم يولد أمياً (أى وثنياً) أو إمرأة (راجع الموضوع السابق) .

ب – إنه يعكس الرؤية الحضارية الأبوية بشكل عام

لابل إنه يعكس الحضارة الأبوية بشكل عام ، وهى حضارة سادت العالم القديم . فاليونانيون مثلاً كانوا يعتقدون أن عقاب الرجال الظالمين والجبناء ، أن يتقمصوا نساء بعد موتهم[١٣] . علماً بأن تلك الحضارة الأبوية وما تحكم به على المرأة من دونية لا تزال سائدة إلى حد كبير فى يومنا هذا ، رغم كل ما يقال عن تحرير المرأة ورغم ما تحقق فعلاً فى هذا المجال من إنجازات .[١٤]

جـ – إنه ردّ فعل على « أنثوية » الحضارة الرومانية

من جهة أخرى يشكّل موقف الرسول هذا ردّ فعل على « أنثوية » الحضارة الرومانية ، وهى حضارة سائدة فى ذلك العهد ، أى على الدور الذى كانت تلعبه المرأة (وهى لم تختره بالطبع بملء إرادتها) فى الخلاعة البالغة التى كانت منتشرة فى تلك الحضارة[١٥] . وكأن الرسول يصّر على إخضاع المرأة ليأمن جانبها .

د – ملاحظة الذهبى الفم لهذا الوجه الحضارى فى كلام الرسول

هذا وإن هذا الوجه الحضارى لكلام الرسول ، الذى أصبح جلياً فى أيامنا بفضل تقدم العلوم الإنسانية ، لم يَخفَ على يوحنا الذهبى الفم الذى لاحظه منذ أواخر القرن الرابع .

* فإنه ، مع قسوته فى الحديث عن المرأة ، يشهد أن بولس كان على شىء من حضارة عصره ، وإن كلامه مرتبط بترتيب حضارىّ .

* وقد ذهب هذا الناسك المتصلّب إلى حدّ القول بأن المرأة – كما عرفها فى أنطاكية وفى القسطنطنية – كثيراً ما تكون سبّاقة للرجل فى تقواها وفى نضالها المسيحى . لذا يمكن بالنضال الإنجيلى ، تجاوز الترتيب الذى يتكلم عنه الرسول ، بحيث تكون المرأة رأساً للرجل إذا كانت الأتقى .[١٦]

٢ – الوجه الإلهى فى كلام الرسول

أما الوجه الإلهى لكلام الرسول فيتجلى ، لا بتجاوز الترتيب الحضارى بشكل سافر ومباشر ، بل بالتغلغل فيه لإعطائه معنى جديداً ، نكهة جديدة ، يحولانه بالفعل عن مفاهيم تسلط الرجل وانتقاص المرأة .

هذا التحوّل الذى أُدخله بولس على الترتيب الحضارى بفعل جدّة الإنجيل التى تمثلها فى أعماقه ، إنما يتجلى فى النماذج التى اتخذها مرجعاً لتحديد موقع الرجل والمرأة أحدهما من الآخر ، وقد تجسدت بعبارة « كما » ، التى ، على صغرها ، قلبت رأساً على عقب مضمون المفاهيم الحضارية التى حافظ عليها بولس فى الظاهر .

أ – رئاسة الرجل تتحول إلى صورة رئاسة المسيح

فالرجل رأس المرأة كما أن المسيح رأس الكنيسة . رئاسته لا تستقيم إذاً إلا إذا أتت على صورة رئاسة المسيح . ولكن ما هى طبيعة رئاسة المسيح ؟ إنها رئاسة الحب :

« أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح الكنيسة » (أفسيس ٥:٢٥)، رئاسة الرأس الذى يحيي الجسد بسهره على حسن سير وظائفه الحيوية جميعها وتكيّفها مع متطلبات المحيط . رئاسة المسيح إنما هى خدمة الحياة فى أعضاء جسده جميعاً :

«لقد أتيت لتكون لهم الحياة ولكى تفيض فيهم.» (يوحنا ١٠: ١٠).
ولأن هذه الرئاسة خدمة ، فليس فيها إستكبار ولا إستعلاء ولا تسلط .
من هنا أنها تجلت بغسل أرجل التلاميذ (وقد كانت هذه مهمة الخادم) :
« ها أنا بينكم كالخادم » (لوقا ٢٢: ٢٧) .

وقد كان هذا الغسل مقدمة وإشارة لما كان يسوع مزمعاً أن يتممه من بذل نفس كامل عن الرعية :

« وأبذل نفسى عن خرافى » (يوحنا ١٠: ١٥) .

ذلك البذل الذى تم على الصليب وقد سبقه غسل الأرجل بفترة قصيرة .

رئاسة الرجل للمرأة ، كما يراها الرسول ، هى إذاً ، كأية رئاسة تستلهم الإنجيل ، خدمة الحياة فى المرؤوس إلى حد بذل الذات الكامل عنه إذا اقتضى الأمر :

« أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح الكنيسة وبذل نفسه لأجلها ... » (أفسس ٥: ٢٥) .

إنها تشكلّ بالتالى إنقلاباً جذرياً فى مفهوم الرئاسة الشائع بين الناس والمسخَر لصالح تسلّط القوى على الضعيف :

« تعلمون أن رؤساء الأمم يسودونها ، وأن أكابرها يتسلطون عليها . فلا يكن هذا فيكم ، بل من أراد أن يكون كبيراً فيكم ، فليكن لكم خادماً . ومن أراد أن يكون الأول فيكم ، فليكن لكم عبداً . هكذا إبن الانسان لم يأت ليُخدَمَ بل ليَخدُم ، ويفدى بنفسه جماعة كثيرة . »
(متى ٢٠: ٢٤ —٢٨)

الكبير والأول ، فى نظر المسيح ، ليس إذاً الذى يستخدم سلطانه ليعظم نفسه ويحقق مآربه ، بل ذاك الذى يفهم ويحيا سلطانه رعاية للحياة وتنمية لها فى الاخرين . ذلك هو « سلطان » المسيح كما أشير إليه فى الإنجيل :

« إني أوليت كل سلطان في السماء والأرض » (متى ٢٨: ١٨) . فكما بيّن المطران جورج خضر ، أن العبارة اليونانية المستعملة في النص الأصلي لهذه الجملة ، وهي عبارة exousia لا تعني حكماً ، بل قوة ، إقتداراً . إنها لا تشير إلى سيطرة على الكون بل إلى اقتدار يطلق الحياة من عقالاتها .[١٧]

ب - خضوع المرأة يتحـــول إلى صورة خضوع الكنيسة

بالمقابل ، فالنساء يُطلب منهن أن يخضعن لأزواجهن كما تخضع الكنيسة للمسيح . إن خضوعاً كهذا ليس فيه أى أثر للعبودية أو الإنتقاص لأنه خضوع طوعيّ يأتي جواباً على الحب الذى أفرغ ذاته حتى الصليب :

« ما من حب أعظم من حب من يبذل نفسه فى سبيل أحبائه (...) لا أدعوكم عبيداً (...) بل أدعوكم أحبائى ... » (يوحنا ١٥: ١٥،١٣)

٣ - كيف نفهم اليوم دعوة الرسول ؟

بعد أن أدركنا التوتر القائم بين جدّة النفحة الإلهية التى تحرك الرسول من جهة ، وعتاقة الأطر الحضارية التى نشأ وعاش فى ظلها من جهة أخرى ، لم يعد بوسعنا أن نتجاهل هذا التوتر ، فنأخذ بحرفية كلام الرسول وكأننا نضع على نفس المستوى الجدّة والعتاقة ، النفحة الإلهية والقوالب الحضارية التى جسّدتها وقيدتها بآن . ولابدّ لنا بالتالى من أن نسعى اليوم إلى ترجمة دعوة الرسول فى الإطار الحضارى الجديد ، الذى برزت فيه - بفعل عوامل تاريخية متعددة ليس أقلها ولاشك فعل الخميرة الإنجيلية فى التاريخ البشري[١٨] - حركة ، لاتزال محدودة فى إنجازاتها ، تطالب بالمساواة بين المرأة والرجل . وهى مساواة نرى فيها نحن المؤمنين ترجمة ، على الأصعدة السياسية والإجتماعية والإقتصادية ، لإعلان الرسول نفسه :

« فليس بعد يهودى ولا يونانى ، ليس عبد ولا حرّ ، ليس ذكر ولا أنثى : لأنكم جميعاً واحد فى المسيح يسوع . » (غلاطية ٣: ٢٨)

فى هذا الإطار الجديد ، الذى ينتفي فيه التوزيع الجامد للأدوار بين الرجل والمرأة ، يُتاح لنا أن نقرأ اليوم فى كلام الرسول بشأن علاقة الزوج بالزوجة ، دعوة إلى قيادة متبادلة وإلى طاعة متبادلة .

أ - دعوة إلى قيادة متبادلة

فالقيادة ، إنجيلياً ، مرتبطة بالمحبة . من توغل فى الحب صار تلقائياً قائداً لأنه يفتح لسواه طريق الحياة :

« وبعد الطعام قال يسوع لسمعان بطرس :« يا سمعان بن يونا ، أتحبنى أكثر مما يحبنى هؤلاء ؟ » فأجابه :« نعم ياربّ ، أنت تعلم إنى أحبك » . فقال له : « إرعَ حِملاني » . » (يوحنا ٢١: ١٥)

لذا فمن الطبيعى أن يتناوب الزوجان على القيادة ، يشغلها كل منهما فى الوقت أو المجال الذى يتقدم فيه بالمحبة على شريكه . وقد علّم الذهبى الفم أن الرجل والمرأة ، فى الزواج المسيحى ، « يعلّمان أحدهما الآخر ويحثّان أحدهما الآخر ... »[١٩] .

ب - دعوة إلى طاعة مشتركة

تقابل هذه القيادة المشتركة طاعة مشتركة قد يكون الرسول عناها عندما أوصى المؤمنين :

« ليخضع بعضكم لبعض بتقوى المسيح » (أفسس ٥: ٢١) ، وهى وصية ترددها الكنيسة فى طقوس أسبوع الآلام إذ تدعونا أن نكون « خاضعين بعضنا لبعض وغاسلين أرجل بعضنا بعضاً » .

والطاعة ، كما يشير أصل الكلمة الفرنسية obéir ، المشتقة من اللاتينية : ob - audire ، أو كما تشير العبارة المرادفة لفعل « أطاع » فى العربية ، وهى « سمع كلامه » (ويقال أيضاً « سمعاً وطاعة ») ، هى أن يواجه المرء الآخر (ob) بغية الاستماع (audire) إلى ما يقوله والإصغاء إليه ،هى أن يتأهب المرء بملء كيانه لتلقي كلام الآخر بحيث يجد هذا الكلام صدى فى القلب (وهو ، بالمعنى العميق ، لبّ الكيان) ، فيصدر عن هذا القلب جواب نابع من الكيان كلّه . لاحبّ حقيقى بين الزوجين دون هذه الطاعة المتبادلة ، التى تعني إستعداداً لدى كل منهما للتجاوب العميق مع الآخر.[٢٠]

يقول الكاهن واللاهوتى الأرثوذكسى الفرنسى المعاصر أندريه بورّلى : « أن يحبّ المرء هو أن يطيع ، أى أن يصغى ، أن يقيم نفسه فى إنصاتٍ للكائن المحبوب . »

هذا الموقف ، كما يبين الكاتب المذكور ، ينبغى أن يُتخذ قاعدة فى مختلف المناسبات التى تعرض فى الحياة الزوجية ، سواء تعلق الأمر بمشروع سفر أو باختيار مهنى أو بشراء سيارة أو ببيع عقار أو باتخاذ موقف تربوى إلخ ... فكلّها فرص ، يقول الكاتب ، لأنسلخ عن قوقعة ذاتى ، وأحسب حساب الآخر ومواقفه وآرائه ومشاعره ، وأقيم وزناً لاختلافه عنى ، وآخذ هذا الإختلاف بعين الإعتبار . فإذا ما اعتمد كل من الزوجين موقف الإصغاء هذا ، نشأ حوار حقيقى (وليس « حوار طرشان ») بينهما ، وانفتح مجال التفاهم عبر الإختلاف وما ينشئه من توتر . عند ذاك يشعر كل من الزوجين أنه تغير بفعل الآخر وأن أية من الإرادتين لا تفرض ذاتها على الأخرى إنما ينشأ من الحوار بينهما واقع جديد يساهم الإثنان معاً فى بروزه إلى حيز الوجود .[٢١]

ثالثاً : هل يترتب على المرأة أن تغطي رأسها في الكنيسة ؟*

مقدمة

العرف التقليدى يقضى بأن تغطى المرأة المسيحية رأسها فى الكنيسة . وهو تقليد قديم نجد له أساساً فى تعليم الرسول بولس نفسه (راجع رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس ١١:٢- ١٦) . إن تقويم هذا العرف يقتضى توضيح الخلفية التى انطلق منها . فإذا ما تم ذلك ، تيسّر لنا الخوض فى طبيعة الموقف الذى يمكن اتخاذه اليوم من هذا العرف إذا ما شئنا التوفيق بين ثوابت الإيمان وظروف العصر . سوف ننطلق من تعليم الرسول بولس المرجعى بهذا الصدد فنتساءل ما الذى دفعه إلى توجيه توصيته إلى النساء بتغطية رؤوسهن فى الإجتماعات الكنسية . ثم نتساءل عن الموقف الذى ينبغى إتخاذه اليوم فى هذا الموضوع مستلهمين التمييز بين الفحوى الإيمانية التى قصدها الرسول والتعابير التاريخية الحضارية التى صيغت من خلالها .

١ – أسباب وصية الرسول

فإذا ما تساءلنا عن الأسباب التى دفعت الرسول بولس إلى توصية المرأة بتغطية رأسها فى الإجتماعات الكنسية ، وجدنا أنها على نوعين : فهى ، من جهة ، تنطلق من مبدأ تبعية المرأة للرجل ؛ ومن جهة أخرى تحرص على تجنّب الغواية .

أ – مبدأ تبعية المرأة للرجل

بذهن الرسول أن المرأة إنما تغطى رأسها تعبيراً عن خضوعها للرجل ؛ أما الرجل فيكشف رأسه علامة على سيادته فى البيت الزوجىّ ، تلك السيادة

* بُحث هذا الموضوع فى إجتماع لـ « ندوة الثلاثاء » عُقد فى ١٩٨٤/١٢/٤

النابعة من كونه يمثل المسيح فيه . هذا ما نستشفه من النص الذى أشرنا إليه أعلاه . وإليكم أهمّ ما ورد فيه :

« ... أريد أن تعلموا أن رأس كل رجل هو المسيح ، وأن رأس المرأة هو الرجل ؛ ورأس المسيح هو الله . فكل رجل يصلى أو يتنبأ ورأسه مغطّى ، يشين رأسه ؛ وكل إمرأة تصلى أو تتنبأ ورأسها مكشوف تشين رأسها (...)

أما الرجل فلا ينبغى له أن يغطى رأسه ، لأنه صورة الله ومجده ، أما المرأة فهى مجد الرجل . لأنه ليس الرجل (أُخِذَ) من المرأة ، بل المرأة من الرجل ؛ وفى الواقع لم يُخلق الرجل لأجل المرأة ، بل المرأة لأجل الرجل . لذلك ينبغى للمرأة أن يكون لها ، على رأسها ، غطاء علامة الخضوع ، من أجل الملائكة ... » (١كو ١١: ٣-٥ ، ٧-١٠)

يُفهم من هذا الكلام ، الذى يلعب على إزدواجية معنى كلمة « رأس » باليونانية (وهى تعنى بآن واحد « الرأس » و« الرئيس ») أن الرجل جُعل ذا سيادة على المرأة وأن المرأة تابعة له ، وأن سيادة الرجل على المرأة صورة لسيادة المسيح على الرجل . وبالتالى فالرجل الذى يغطى رأسه يشين رأسه ورئيسه لأنه يتصرف وكأنه تابع ويسىء بالتالى إلى سيادة المسيح التى يمثلها . وكذلك فإن المرأة التى لا تغطى رأسها تشين رأسها ورئيسها لأنها تتصرف وكأنها رجل فترفض بالتالى رئاسة الرجل عليها .

تغطية المرأة لرأسها هو بالتالى علامة خضوعها للرجل . ولكى نفهم معنى هذه العلامة ، يفيدنا أن نتذكر عبارة الخضوع المألوفة فى الشرق العربى : « على الرأس والعين » . أو ما كان متداولاً فى مجتمعنا من أن المرأة تعتبر زوجها « تاج رأسها » .[٢٢]

ب – الحرص على تجنّب الغواية

من جهة أخرى ، فالمعروف أن البغايا ، فى زمن الرسول بولس ، كن يعرضن شعرهنّ لاجتذاب الزبائن . كذلك كانت منتشرة فى العالم الرومانى الذى عاش فيه ، عبادة الإله ديونيسيوس (الذى سماه الرومان « باخوس ») . وكان أتباع هذا الإله وتابعاته يجتمعون سراً لإقامة شعائر سرية (أى لا يفقه معناها سوى المتمرسين) تشير إلى الولادة الجديدة وإلى القيامة وقد صارت هذه الإجتماعات (التى حرّمتها السلطات الرومانية رسمياً سنة ١٨٦ ق .م . ولكنها استمرت رغم ذلك التحريم) مناسبة للإنصراف إلى الفسق والعربدة والفجور ، إعتقاداً بأن تلك الممارسات هى السبيل للإتحاد بالإله عبر النشوة . وكانت تابعات الإله (وهن كُثُر بين النساء) يرقصن ، على نغم الصنوج ، رقصات ضاجة متهتكة ،وشعرهن مُرخى دون ترتيب على أكتافهن ، فيما كانت رؤوسهن تنتفض بحركات تشنجية من الأمام إلى الوراء . وكانت هذه الرقصات تدوم حتى إنهاك القوى وغياب الوعى .

من هنا أن الشعر النسائى غير المغطّى كان يوحى بمجون البغايا أو بتهتك تابعات ديونيسيوس ، مما يفسر حرص الرسول على أن يستبعد عن الإجتماع الليتورجى المسيحى كل ما من شأنه أن يوحى بتلك الانحرافات، خاصة وأن بعض المهتدين إلى المسيحية فى كورنثوس كانوا سابقاً ، على ما يبدو ، ينتمون إلى الجماعات التى كانت تقيم شعائر ديونيسيوس .[٢٣]

٢ – ما الموقف الذى ينبغى أن نتخذه اليوم من هذا الموضوع ؟

أ – ما قيمة الإعتبار الأول ؟

رأينا أن من دوافع اتخاذ الرسول بولس موقفاً فرض بموجبه تغطية الرأس على النساء ، حرصه على مبدأ تبعية المرأة للرجل . ولكن ما هى ، يا ترى ،

المؤثرات التاريخية والحضارية التى كانت وراء إعتماده لهذا المبدأ ، وما هو مدى تصادمها مع الجدّة الإنجيلية التى نادى بها الرسول نفسه ، وما هو بالتالى موقف الذين يريدون أن يترجموا هذه الجدّة فى عالم اليوم .

أ-١ الإطار الحضارى الذى تأثر به الرسول

لقد تأثر الرسول بولس - وهو يهودىّ - بالتبعية التى كان يتميز بها وضع المرأة كما حددته الأعراف اليهودية (وهو مشابه لوضعها فى العالم القديم برمته) .

* كانت المرأة تعتبر قاصرة طيلة حياتها ، لا تقبل شهادتها أمام المحاكم ولا يمكنها رفع دعوى قضائية . وكانت تخضع قبل الزواج لأبيها وإخوتها الذكور . وبعد الزواج (الذى كان بوسع الوالد أن يقرره عنها دون الأخذ برأيها ، إذا كانت بين الثانية عشرة والثانية عشرة والنصف من العمر) كان عليها أن تخضع لسلطة زوجها المطلقة عليها وأن تعتبره سيدها (« بعل » فى العبرانية كما فى العربية : راجع تكوين ١٨: ١٢ حيث تقول سارة عن زوجها إبراهيم : « ... وسيدى قد شاخ ») . ولم يكن يحق لها أن تتخذ أى قرار بمعزل عنه ، فى حين أنه كان بإمكانه أن يفرض عليها نذوراً قام بها عنها أو أن يلغي تعهدات التزمت هى بها .

* كان الرجل يعتمد على بعض النصوص الكتابية (خروج ٢٠: ١٧ ، تثنية الإشتراع ٥: ٢١) ليعتبر المرأة ملكاً له بمثابة بيته وعبده أو حماره . وكانت هناك نزعة إلى إعتبار المهر الذى يدفعه الزوج لوالد الزوجة ، ثمناً لها يشتريها به منه ، وقد قال أُحد الربّانيين بهذا الصدد أن الزوجة شبيهة بالعبد الوثنى لأنها تشترى مثله .

* ولم يكن يحق للمرأة أن تتمتع لا بثمرة عملها الذى كان يعود للزوج (حتى إذا وجدت شيئاً فهذا الشيء يعود للزوج) ولا حتى بعائدات المهر

الذى يخصصه والدها لها (بدلاً من الإرث المخصص للأولاد الذكور دون سواهم) ، تلك العائدات التى كان يتمتع بها زوجها فى حين أن ملك المهر كان يبقى للزوجة تستعيده فى حال وفاة الزوج أو انفصاله عنها . ولم يكن يحق لها أن ترث زوجها بعد وفاته .

* كان على المرأة أن تتفرغ لأعمال المنزل، وأن لا تخرج منه إلا فى حال الإضطرار*. وإذا خرجت فلم يكن ينبغى لرجل أن يتوجه إليها بالكلام ، حتى ولو كان ذلك لإلقاء التحية عليها ، بل أن يكتفى بإجابتها بشكل مقتضب إذا ما احتاجت إلى توجيه السؤال إليه عن أمر ما . وكانت تعتبر على هامش الحياة الدينية : فلا تطالب بأداء الصلوات فى مواعيدها شأن الرجل لأن ذلك يلهيها عن أعمال المنزل (٢٤) والعناية بالأولاد ، ولا تُحبَّذ دراستها لكتاب الله (فقد كان المثل السائر بهذا الصدد : « من يعلّم ابنته التوراة يعلمها البغاء ») . وكانت تشارك فى الخِدَم الدينية فى المجمع ، إلا أن تواجد عدد غفير من النساء فيه لم يكن يُعتبر مبرراً كافياً لإقامة الخدمة إذا لم يوجد معهن على الأقل عشرة رجال راشدون .

* كان يحق للرجل أن يطلّق إمرأته إذا وجد فيها علة (تثنية ٢٤: ١) ، وكانت مدرسة هِلاّل الربانية تعتبر علة كافية للطلاق أن تكون الزوجة قد أساءت طهى أحد ألوان الطعام أو مجرد كونها لم تعد تعجب الزوج . أما الزوجة فلم يكن لها أن تطلب الطلاق. إلا فى حالات نادرة .

* تبعية المرأة هذه كان يعبّر عنها وضعها غطاء على رأسها منذ أن تصبح إمرأة متزوجة . أما إذا خلعت هذا الغطاء فكان هذا علامة على إنخراطها فى مصف البغايا .(٢٥)

---

* هذا فى المدن . أما فى الريف ، فكانت تعمل فى الحقول وترعى المواشى .

أ-٢ الرسول بين الجديد والعتيق

رسالة الإنجيل حرّرت الرسول من وطأة الأعراف اليهودية . لذا نراه ، على صعيد المبادىء ، يعلن المساواة الأساسية القائمة بين الرجل والمرأة في المسيح ، كما يعلن مساواة الحرّ والعبد ، اليهودى واليونانى ، البربرى* والمتمدن (راجع غلاطية ٣: ٢٨ وكولسى ٣: ١١) . هذا المبدأ نفسه ، يطبقه الرسول على الزواج : فيشير إلى التساوى الكامل بين الزوجين فى الحقوق والواجبات (من حيث العلاقات الجنسية والإمتناع عن الطلاق ومساكنة الزوج المؤمن لغير المؤمن إذا كان هذا الأخير راغباً بذلك : (راجع ١كو ٧: ٣-٥ ، ١٠-١٦) .

ولكن الرسول لم يستطع أن ينسجم كلياً مع المبادىء التى أعلنها . فقد كانت التقاليد التى تربى عليها والتى كانت تسود محيطه ، لا تزال تشده إليها وتقاوم فى نفسه جدّة الإنجيل . فإنه ، حسب قوله ،كان يحمل الكنز فى وعاءٍ خزفىّ (٢ كو ٤: ٧) ، لذا نراه متجاذباً بين الجديد والعتيق . فهو مثلاً يجارى محيطه بتوجيه المرأة نحو الخضوع لزوجها (أفسس ٥: ٢٢ ، كولسى ٣: ١٨) ولكنه يجعل من هذا الخضوع خضوع حب ، على نمط خضوع الكنيسة للمسيح ، لا خضوع عبودية . إنه يثبّت رئاسة الرجل فى بيته ، التى كان ينادى بها المجتمع الأبوى الذى عاش فيه ، ولكنه يدعوه إلى تحويل جذرى لمعنى السيادة بجعلها خدمة محبة على طريقة محبة المسيح للكنيسة (أفسس ٥: ٢٥) . ولكنه ، فى المقطع الذى نحن بصدده ، يبدو وكأنه تراجع إلى مستوى الأفكار والعادات اليهودية ، وغاب عنه أن كل شىء بالمسيح قد صار جديداً كما أعلن هو نفسه (راجع غلاطية ٦: ١٥) ،

* وهى التسمية التى كانت تطلق فى ذلك الحين على كل ما كان خارج الحضارة الهلّينية - الرومانية .

ولكنه يستدرك فى الأسطر اللاحقة ، فيعود إلى مبدأ المساواة بين الجنسين فى الربّ :

« إلا أنه لا تكون المرأة فى الرب بلا الرجل ولا الرجل بلا المرأة ، فإذا كانت المرأة استُلّت من الرجل ، فالرجل تلده المرأة ، وكل شيء يأتى من الله» . (١كو ١١: ١١-١٢).[٢٦]

ناهيك عن أن النساء شغلن مركزاً هاماً فى العمل التبشيرى الذى قام به الرسول بولس . هذا ما يتضح لمن يتصفح كتاب أعمال الرسل ورسائل بولس . فكتاب الأعمال يبرز دور ليديا بائعة الأرجوان فى مدينة فيليبى (أعمال ١٦: ١٤) ودور بريسكيلاّ زوجة أكيلا صانع الخيام (أعمال ١٨: ٢٠ ، راجع ١كو ١٦: ١٩ ، رومة ١٦: ٣-٥ ، ٢ تيموثاوس ٤: ١٩) . أما بولس فإنه ، فى رسائله ، يصف العمل الرسولى الذى كانت تقوم به عدة نساء ، منهنّ فيبي ، شماسة كنيسة كنخرية (رسالة بولس إلى أهل رومة ١٦: ١) ، والتى قد تكون كُلفت بحمل رسالة بولس إلى مسيحيي رومة . ومنهن مريم التى يقول الرسول عنها لهؤلاء أنها « أجهدت نفسها كثيراً » فى سبيلهم (رومة ١٦: ٦) . ويقول الشيء نفسه لاحقاً عن « طروفانيا وطروفوسة » إذ يذكر أنهما « أجهدتا نفسيهما فى الرب» (رومة ١٦: ١٢) . والفعل هذا يشير هنا ، فى لغة بولس ، إلى النشاط الرسولى . وفى رسالته إلى مسيحيي فيليبى ، يشهد لأفودية وسُنتيخة قائلا : « أنهما جاهدتا معى فى سبيل البشارة » (فيلبى ٤: ٢،٣) .[٢٧]

أ-٣ موقفنا اليوم

لقد تسنى لنا اليوم أن ندرك بجلاء الخلفية الحضارية الكامنة وراء إصرار الرسول على أن تغطى المرأة رأسها تعبيراً عن خضوعها للرجل . فقد بيّنت الباحثة الاجتماعية جرمان تيلّيون كيف أن عدداً من الكنائس تجاوب مع

هذه التوصية لأنه كان ينتمى إلى بيئة حضارية شبيهة بتلك التى انطلق منها بولس ، فى حين أن كنائس أخرى ، لا تقلّ عن الأولى إجلالاً للرسول ، لم تتقيد بتوصيته هذه لأنها وُجدت فى مناخ حَضارىّ مختلف .

تقول الباحثة المذكورة :

« منذ زمن قليل – وبالضبط قبل النمو السياحىّ الحديث الذى شهدته فترة العشر سنين الأخيرة (كُتب ذلك سنة ١٩٦٦ : ك .ب .) ، كانت المرأة ، فى أسبانيا ، والبرتغال ، وجنوب فرنسا ، وكورسيكا ، وإيطاليا الجنوبية ، واليونان ، ولبنان ، إذا دخلت كنيسة وهى غير مغطاة الشعر ، ولو بمجرد منديل ، تثير فضيحة . صحيح أن رسالة الرسول بولس توصى بذلك ، ولكن الرسول بولس يأمر أيضاً العبيد بأن يخضعوا لسيدهم « كما للمسيح » ، ولم يمنع ذلك العبيد المسيحيين من التخلى عن العبودية ... »

إنطلاقاً من هنا ، تبرز الكاتبة الطابع الحضارى لهذه الممارسة ، وهو مرتبط بمجتمعات البحر الأبيض المتوسط ، وبما تفرضه تقليدياً من قهر على النساء . وتشير إلى أنه ، فى نفس الحقبة الزمنية ، وفى مجتمعات أيضاً مسيحية ، إنما شمالية – مطبوعة إذاً بـ « القانون الجرماني الذى اعتبر المرأة ، منذ أقدم العصور ، شخصاً على الصعيد الحقوقي » – لم يكن يُعتدّ بنص الرسول بولس ليُفرض على المرأة حمل غطاء للرأس فى الكنائس :

« فى ذلك الزمن لم تكن النساء الخالية رؤوسهن من خِمار تَصْدُمَنّ أحداً فى كنائس باريس وشامبانيا ، التى لم يكن الرسول بولس يحظى فيها بإجلال أُقل مما فى كنائس باستيا وتارنت ... إذ عند التقاطه الكلام نفسه كان « الغربال الذهنى » لمسيحيي شمال نهر اللوار لا يحتفظ بنفس العبارات التى يحتفظ بها الغربال المتوسّطىّ . »(٢٨)

اليوم تسعى المرأة ، بعد عصور من وصاية الرجل عليها ، إلى نيل الإعتراف بها شخصاً إنسانياً كاملاً ، حراً ومسؤولاً ، يتساوى مع الرجل بالحقوق

والواجبات . إننا نرى في تلك الحركة ثمرة – ولو متأخرة – للخميرة الإنجيلية التى استطاعت أخيراً ، بفعل ظروف حضارية مؤاتية ساهمت هي في إيجادها ، أن تخترق الهيكليات العتيقة الموروثة من العالمين اليهودى والوثنى .(٢٩)

لذا يترتب على الكنيسة اليوم أن تعيد النظر ، فى ضوء « علامة الزمن » هذه ، بمواقفها الراهنة من المرأة ، وأن تصحّح ما قد تأثر من هذه المواقف بقراءة للوحى الإلهى توافقت مع هيكليات المجتمع الأبوى وذهنيته فطمست بذلك حدة الإنجيل وجدّته . هذا ما دعا إليه نصّ وُزع على الكنائس الأعضاء فى مجلس الكنائس العالمى لتدرسه تمهيداً لمشاركتها فى الجمعية العمومية التى انعقدت للمجلس فى فنكوفر سنة ١٩٨٣ . وقد ورد فى هذا النص :

« إن وعى النساء ومشاركتهن فى كل مكان من العالم يشكلان تنبيهاً قوياً للكنائس المسيحية – وبنوع خاص للاهوت المسيحى – ودعوة للعودة إلى شهادة الكتاب المقدس ولإعادة اكتشاف ما ورد فيه عن الجماعة الجديدة للنساء والرجال التى هى هبة الله فى المسيح .

إنطلاقاً من أن النساء كنّ أولى الشاهدات للقيامة ، ومن أن الروح انسكب عليهن كما على الرجال ، واعترافاً بالزخم الذى أمدّت به النساء حياة الكنيسة ،يدرك المسيحيون اليوم أنه من الظلم أن تُعطى للكتاب المقدس ، كما حصل طيلة أجيال ، تأويلات تحصر النساء فى دور التابعات ، فى الكنيسة وفى المجتمع . إن التقاليد والشرائع الإجتماعية ، وحتى تعليم الكنائس ،التى تلزم النساء بالخضوع للرجال وبإطاعتهم فى الأسرة والكنيسة والمجتمع ، إنما هى فى تناقض سافر مع الإنجيل .

لذا فعلى الكنائس أن تتساءل بجدية عن صحة شهادتها . فإذا ما اكتفت بتكرار النموذج الأبوى التقليدى فى حياتها وتعليمها ، فإنها لن تشهد بأمانة للحياة الجديدة فى المسيح ، ولا للطاقات الجديدة التى أطلقتها قيامة المسيح

من أجل خلق إنسانية جديدة . ولكنها ، على العكس ، تمتثل لنماذج العالم وقيمه وهيكلياته . »(٣٠)

هذا وإن مجلس الكنائس العالمى المذكور (الذى يضم الكنائس البروتستانتية والأنكليكانية والأرثوذكسية الخلقيدونية والأرثوذكسية الشرقية ، وتساهم فى أعماله الكنيسة الكاثوليكية بشكل متزايد دون أن تكون عضوة فيه) ، هذا المجلس لا يزال منذ تأسيسه سنة ١٩٤٨ متقدماً جداً على الكنائس من حيث عمله لإحقاق حقوق المرأة . وقد قرر أن تكون ٤٠٪ من المقاعد فى مجالسه ولجانه المركزية وجمعياته العمومية إلخ ... محفوظة حكماً للنساء ، مما يضطر الكنائس الأعضاء فيه إلى مراعاة نسبة الـ ٤٠٪ هذه لدى إختيار مندوبيها إليه ، وهذا ما لا يتفق مع استمرار تجاهل هذه الكنائس لأعضائها الإناث .(٣١)

وقد لاحظ هذا المجلس مؤخراً بأن المرأة لاتزال تتعرض للتجاهل وحتى للإهانة وبأنه غالباً ما يحجب عنها ، فى كل البلدان عملياً ،حقها فى المساواة ، وأن فترة العشر سنوات (١٩٧٥-١٩٨٥) التى كرستها الأمم المتحدة للمرأة لم تعط النتائج المرجوة ، وأن النساء ، من جهة أخرى ، ما زلن يشغلن دوراً تابعاً فى كل الكنائس تقريباً . لذا قرر المجلس - بعد نقاش كثيف- أن يُطلق عقداً (فترة عشر سنوات) مسكونياً بعنوان « تضامن الكنائس مع النساء » يمتد من ١٩٨٨ إلى ١٩٩٨ .(٣٢)

أما من حيث موقف الكنيسة الأرثوذكسية من الموضوع ،فإن لقاء إستشارياً بالغ الأهمية عُقد فى جزيرة رودس بين ٣٠ تشرين الأول (و٧ تشرين الثانى) ١٩٨٨ ضم لاهوتيين من مختلف الكنائس الأرثوذكسية ومنهم عدد من النساء . وقد صدر فى نهاية اللقاء بيان فيه اعتراف صريح بإجحاف الجماعات المسيحية (بما فيها ، ضمناً ، الكنائس الأرثوذكسية التاريخية) بحق المرأة ، ودعوة إلى إعادة النظر فى هذه المواقف المنحرفة التى هى بعيدة عن روح الكنيسة ونابعة من خطيئة البشر . ومما ورد فى البيان :

« عبر القرون شجعت الكنيسة (...) المرأة المسيحية على أن تمارس إلى جانب الرجل ووفقاً لطبيعتها الخاصة ، ميولها ودعواتها الشخصية عبر مروحة واسعة من الخِدَم المرتبطة بالميادين الليتورجيّ والرعائي والتعليمى والتبشيرى والإجتماعى (...)

إنما ، ومع الإقرار بهذه الوقائع ، التى تشهد لاهتمام الكنيسة بشأن المساواة بالقيمة بين الرجال والنساء ، ينبغى لنا الإعتراف بصدق وتواضع بأنه ، من جراء الضعف والخطيئة الإنسانيين ، لم تتوصل الجماعات المسيحية دائماً وفى كل مكان إلى التغلب الكامل على بعض المفاهيم أو الممارسات وعلى التحكم بتطورات تاريخية وشروط إجتماعية كانت توازى عملياً ممارسة التمييز بحق النساء . هكذا قادت الخطيئة البشرية إلى أعمال لا تعكس فى حال من الأحوال الطبيعة الحقيقية لكنيسة المسيح .

لذا يتوجب علينا أن نحافظ بصلابة على ملء الحقيقة ، رافعين إلى الله صلوات ملحّة ومتواصلة لكى يساعدنا فى «تمييز الأرواح» (١ يو ٤: ١) وتأويل المعنى الحقيقى لـ « علامات الأزمنة » (متى ١٦: ٣) . بهذا الشرط فقط سوف تتمكن الكنيسة (...) من إعلان ملكوت الله فى كل زمن وفى كل مكان .

يترتب على الكنيسة أن تعيد ، عند الاقتضاء ، تفحص المعطيات القائمة ، والمفاهيم والأعمال التى قد لا تتفق مع مبادئها اللاهوتية والكنسية الثابتة ، والتى قد تكون تسربت من الخارج وتخلّلت فى الممارسة وسمحت بأن تؤوَّل على أنها مبّخسة بحق النساء . »[٣٣]

ومن المواضيع التى أشار البيان إلى ضرورة تسويتها : تفسير النصوص عن « خضوع » المرأة عند بولس الرسول ، واستمرار فكرة « نجاسة جسدية لدى النساء » وهى موروثة عن اليهودية ، لا بل عن أوائل الحضارة البشرية .[٣٤]

خلاصة القول أنه ، فى ضوء ما تقدم ، يمكننا التأكيد بشأن الموضوع الذى نحن بصدده : لا يمكن بحال من الأحوال الدفاع اليوم عن تغطية المرأة لرأسها فى الكنيسة كعلامة لخضوعها للرجل .

ب - ما قيمة الإعتبار الثانى ؟

أما الإعتبار الثانى ، وهو الخوف من الغواية ،فإن معالجته أدقّ على ما أعتقد .

ب-١ مدلول الشَعر المكشوف قد تغيّر

فمن جهة لم يعد للشَعر المكشوف مدلول البغاء أو معنى التهتك الديونيسى كما كان له فى عهد الرسول . لابل إننا اليوم ، وبفعل عودة إلى روح الإنجيل ، لم نعد نعتبر أن جمال المرأة (بما فيه جمال شعرها) هو بحد ذاته مدعاة للخطيئة ، وأصبحنا ندرك أن المواقف المتطرفة فى تشددها ، التى كثيراً ما سادت فى العصور المسيحية السالفة ، إنما كانت ردّ فعل تشنجى على الانحلال الخلقى الذى صادفته المسيحية عند نشأتها ،علماً بأن ردّ الفعل هذا بقى إلى حد بعيد فى نفس خط إنتقاص المرأة الذى قام فى الأساس لمناهضته إذ لم يزل ينظر إليها من منظار الشهوة مع الفرق بأنه استبدل إستعمال المرأة بالحذر منها وتحييدها .

ب-٢ ولكن النزعة إلى تشييء المرأة متفشية اليوم

ولكننا اليوم مواجَهون بعودة عارمة ، تدعمها الأزياء ووسائل الإعلام على اختلافها - هذه وتلك مسخَّرة لمصالح القيمين على المجتمع الإستهلاكى المتهافتين على الأرباح - عودة إلى تشييء المرأة بتحويلها إلى مجرد جسد يُشتهى ، وذلك بغية استثمار الشهوة التى يثيرها هذا الجسد المجرد من

عمقه الإنسانى ، من أجل الترويج للسوق الاستهلاكية. إن هذا التيار يضرب عرض الحائط بمكاسب عشرين قرناً من التراث المسيحى الذى استطاع ، رغم التشنجات والشوائب التى اعترته ، أن يؤكد على كون المرأة شخصاً إنسانياً مهماً بحد ذاته لا مجرد أداة لمتعة الرجل .إن الوثنية الجديدة المتفشية فى عالم اليوم تحاصر المؤمنين أنفسهم وقد تتسرب إلى أذهانهم ومواقفهم . لذا فقد تمتد هذه الذهنية حتى إلى الإجتماعات الليتورجية ، فيكون همّ النساء أو بعضهن كشف الرؤوس بغية عرض شعورهن لغرض الغواية (علماً بأن « شعراً جميلاً وغزيراً لدى إمرأة يوحى دائماً بالشبق » على حد رأى الطبيب النفسى الأميركى ليديرير)[٣٥] ، وقد يكون همّ الرجال أو بعضهم أن يأتوا إلى الكنيسة للإنسياق وراء هذه الغواية . هذا ما من شأنه أن يفسد الإجتماع الليتورجي بتحويله عن غايته العبادية والإنحراف به عن المشاركة الأخوية المفترض أن تسود فيه بين أبناء عائلة الله الواحدة إلى علاقة إستغلال متبادل بين غرور النساء وشهوة الرجال .

ب-٣ من هنا وجوب السهر

بناء على ما تقدم ، ينبغى أن يعى المؤمنون والمؤمنات هذا الخطر ، فتحرص النساء ، إذا كشفن رؤوسهن ،على اعتماد البساطة والحشمة فى تسريحاتهن، ويسهر الرجال ، من جهتهم ، على ضبط أنظارهم والحفاظ على نقاوتها ،مما يفترض فى العمق إعادة النظر فى مجمل رؤيتهم للمرأة ، والتمرس على التعاطى معها على أنها ذات وشريكة لا مجرد موضوع للشهوة ومصدر للغواية . هذا هو ثمن حرية أبناء الله ، ثمن الانتقال من عهد الشريعة إلى عهد النعمة : أن يصبح الإنسان « ناموساً لنفسه » ، رقيباً على ذاته ، متمماً روح الشريعة ولو لم يتقيد بحرفها . وروح الشريعة هنا هو أن الحجاب الذى يغطى الشعر إنما غايته – التى تحافظ على أهميتها البالغة مهما تبدلت

الممارسة – هى توفير الإحترام لشخص المرأة والحؤول دون تحويلها إلى مجرد موضوع شبقيّ، وبالتالى إفساح المجال أمام لقاء أصيل بينها وبين الرجل .[٣٦]

حواشى الفصل الثانى

١ – ايما غريّب خورى : المرأة بين حواء ومريم، مقال مذكور، ص ١٩٨ التشديد مني .

راجع أيضاً: القس فهيم عزيز: نظرة العهد الجديد إلى المرأة، مقال مذكور، ص٧٣.

٢ – غريغوار حداد: المرأة وتحريرها فى نظر المسيح والجماعة المسيحية الأولى، ص ١٨، فى : غريغوار حداد وجيروم شاهين: المسيحية والمرأة، ص ٥–٤٨، منشورات مجلة «آفاق، بيروت .

٣ – غريغوار حداد: المرجع المذكور، ص ١٣.

٤ – المرجع نفسه، ص ١٠. راجع أيضاً :

François VARONE: Ce Dieu censé aimer la souffrance, Cerf, Paris, 1984, pp. 76-77.

٥ – المرجع نفسه، ص ١٢.

٦ – فريدا حداد: شموسية النساء فى تراث الكنيسة الشرقية، ص ٨، مجلس كنائس الشرق الأوسط، برنامج المرأة، بيروت ، ١٩٨٣.

٧ – يقول كيرلس الاسكندري، المتوفى عام ٤٤٤م ، وهو بطريرك للإسكندريه وأحد معلمى الكنيسة الكبار، معلقاً على حديث يسوع مع السامرية:

«... يا ليت حديث الرب مع السامرية يصبح نموذجاً للمعلمين فى الكنيسة فلا يرفض أى منهم خدمة النساء...» (كيرلس الاسكندرى: مجلد واحد: ٢٨٧).

مذكور فى: د. جورج حبيب بيباوي : تطور النظرة إلى التطهيرات الجسدية فى الطقوس والقوانين الكنسية ، ص ١٦٠، فى: المرأة فى اللاهوت الكنسى، ص ٩٥ - ١٧٤، برنامج المرأة، مجلس كنائس الشرق الأوسط، بيروت ، ط١، تشرين الثانى ١٩٨٠.

٨ - وكأنها، كما تلاحظ اللاهوتية الفرنسية فرانس كيريه، بإزالتها العطر الذى كلفها كثيراً، فوراً بعد سكبه، تعبّر عما تشعر به من أن قدمى السيد أغلى من أن يلامسها عطر مهما غلا ثمنه.

Cf France QUÉRÉ: Les Femmes de l'Evangile, Seuil, Paris, 1982, p. 95.

٩ - عن يسوع والكنعانية ، راجع تحليلاً رائعاً فى:

France QUÉRÉ: op. cit., pp. 63 - 72.

١٠ - راجع بصدد هذه الحادثة:

Françoise DOLTO et Gérard SEVERIN: Une femme adultére, in l'Evangile au risque de la psychanalyse, tome 2, pp. 77-101, Ed. Jean-Pierre Delarge, Paris.

- France QUÉRÉ: La Femme adultére, in Les Femmes de l'Evangile, op. cit., pp. 18-27 .

١١ - علاوة على المراجع المذكورة فى الحواشى السابقة، تستند هذه الدراسة إلى المرجع الآتى :

Xavier LÉON-DUFOUR: Dictionnaire du Nouveau Testament (1975), 2e-éd. revue (1978), Introduction, pp. 50, 62 et 86, article "Femme", p. 254, "Livre de V ie", Seuil, Paris, 1982 .

١٢ - راجع: المطران جورج خضر: رؤياى فى المرأة، ص ٢١-٢٣، فى: المرأة فى اللاهوت الكنسى، مرجع مذكور، ص ٢١-٢٦.

١٣- Cf A. M. GÉRARD: L'Ère de la femme, cette inconnue, Ed. Guy de Monceau, Paris, 1964, p. 203.

١٤ – راجع:كوستي بندلي: تعليم الفتاه وآفاق المرأة، منشورات النور، بيروت، ١٩٨٥، ص ٥٩–٨٠

١٥ – راجع: المطران جورج خضر: المرجع السابق.

١٦ – راجع: المطران جورج خضر: المرجع نفسه.

١٧– Cf Métropolite Georges Khodre: Pouvoir et Autorité. Une vision chrétienne de l'Etat, de l'Eglise et de la Famille, p. 17, "S. O. P.", No. 115, fév. 1987,pp. 15-20 .

١٨ – يقول اللاهوتى والمفكر الأرثوذكسى الفرنسى أوليفيه كليمان:

«اليوم، وفى نهاية حقبة طويلة من النظام الأبوى،تسعى المرأة إلى تأكيد ذاتها كشخص إنسانى كامل، كذات حرّة ومسؤولة. إنها الخميرة الإنجيلية تفعل ، بعد أن تحررت أخيراً من الهيكليات الوثنية العتيقة.»

Olivier CLÉMENT: Questions sur l'Homme, Stock, Paris, 1976, pp. 114-115 .

١٩ – Cf Métropolite Georges KHODRE: art. cit., p. 20 .

٢٠ – Cf Etienne CHARPENTIER: Pour lire l'Ancien Testament, Cerf, Paris, 1983, p. 100.

٢١ – Cf André BORRÉLLY: Qui est prés de moi est prés du feu, Desclée de Brouwer, Paris, 1979, pp. 200-201.

راجع أيضاً بصدد مجمل موضوع الرئاسة والطاعة فى العلاقة الزوجية:

كوستي بندلي: صورة المسيح فى الزواج والأسرة، «الإنجيل على دروب العصر»، ٦، منشورات النور، بيروت، ١٩٨٣، ص ٤٩ – ٦١.

٢٢ – هذا الاعتقاد يعبّر عنه، بشكل فظّ، ذلك الحوار بين الكاتب ميخائيل مسعود وأحد حفظة التقليد الشعبى اللبنانى:

«... زرت شيخاً (...) وسألته رأيه في المرأة (...) قلت:«والمرأة بالنسبة إلى الرجل؟...». قال: «المرأة إجر الزلمي (أي: رِجل الرجل:ك.ب.)، والزلمي تاج راسها!».

ميخائيل مسعود: أمثال وحكايات ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٠، ص ٢٣١-٢٣٢.

٢٣ - Cf Edouard COTHENET: Saint Paul en son temps, ''Cahiers Evangile'', 59e année, nouvelle série, no. 20, nov. 1978, Cerf, Paris, pp. 59 et 62.

لا بل يبدو أن خوف الرسول مما قد يحدثه كشف شعر النساء من غواية يتعدى نطاق المؤمنين المتواجدين في الإجتماع الكنسي إلى ... الملائكة أنفسهم، مما يفسر العبارة التالية في نصه، التي تبدو لنا غامضة: «... ينبغي للمرأة أن يكون لها، على رأسها، غطاء (...) من أجل الملائكة». فإذا أخذنا بملاحظة أبداها اللاهوتي الأرثوذكسي أوليفيه كليمان في أحد مقالاته، رأينا في هذه العبارة تلميحاً إلى أسطورة نقلها سفر التكوين مفادها أن ملائكة عشقوا نساء بشريات واتحدوا بهن جنسياً فنتج عن ذلك التزاوج مسوخ هم «الجبابرة» (راجع تكوين ٦:١-٤). وكأن بولس يعني أن الملائكة، وهم ينظرون من فوق، يرون من النساء المتواجدات في الكنيسة، شعورهن، وهو منظر من شأنه أن يغويهم وأن يدفعهم إلى تكرار المعصية التي أشار إلى روايتها سفر التكوين.

Cf Olivier CLÉMENT: Faut-il avoir peur du voile ?, p. 21, (d'aprés l'hebdomadaire "France Catholique", du 24 nov. 1989), ''S.O.P.'', no. 143, déc. 1989, pp. 21-24.

علماً أن الآباء، بدءاً من القرن الرابع، أوّلوا عامة ما ورد في النص المذكور من سفر التكوين، على أن تزاوج «أبناء الله» مع «بنات الناس» يشير إلى تزاوج رجال سلالة شيث مع بنات سلالة قايين.

Cf La Sainte Bible, traduite en français sous la direction de l'Ecole Bibliqua de Jerusalem, t.I, pp. 14-15, note à Genèse 6, 1, Le Club Français du Livre, Paris, 1964.

٢٤ – ونلاحظ بالمقابل موقف يسوع، المخالف تماماً لهذا العرف، عندما رفض أن يستجيب لرغبة مرتا التى كانت منهمكة بالخدمة المنزلية وطلبت منه أن يحوّل أختها مريم عن الاستماع إلى كلامه لتنضمّ إليها وتعينها فى أعمالها (راجع لوقا ١٠: ٣٨–٤٢). يقول أوليفيه كليمان معلقاً على هذه الحادثة:

«يسوع يبرر مريم، المنصرفة إلى التأمل، أمام مرتا، المنهمكة بالعمل، إذ يرفض بأن يحصر المرأة ضمن حدود دورها المنزلي ويتقبلها بين تلاميذه.»

Olivier CLÉMENT: Petite introduction à la connaissance du christianisme, p. 141, in Mohamed TALBI et Olivier CLÉMENT :Un respect tétu, Ed. Nouvelle Cité, Paris, 1989.

٢٥ – عن وضع المرأة هذا فى العالم اليهودى فى القرن الأول للميلاد، راجع:

* Christiane SAULNIER et Bernard ROLLAND: La Palestine au temps de Jésus, ''Cahiers Evangile'', no. 27, février 1799, pp. 44-45 et 47-48.

Xavier LÉON-DUFOUR: Dictionnaire du Nouveau Testament (1975), Introduction, pp. 50, 53, 61-62, 2e ed. revue, ''Livre de Vie'' Seuil, Paris, 1982.

أما بشأن غطاء الرأس، فيجدر الذكر بأن اعتماده كعلامة حشمة للمرأة تجاوز العالم اليهودى القديم.

* يقول أوليفيه كليمان :

«إن المجتمعات الأوروبية، وخاصة الريفية منها، مارسته لحقبة طويلة. وفي فرنسا قبل الحرب العالمية الأولى، كانت إمرأة ما، إذا تنزهت مكشوفة الرأس، تعتبر «ذات سيرة عاطلة». »

Olivier CLÉMENT: Faut-il avoir peur du voile?, art. cit., p. 23.

* وتشير الباحثة الإجتماعية جيرمان تلّيون أنه، فى جزيرة كورسيكا، حوالى العام ١٧٦٦

«كان يحال (...) بين فتاة ما وبين الزواج إذا ما أقبل أحد على كشف شعرها علناً. إذ بعد أن تكون هذه الإهانة قد لحقت بها لم يكن بوسع أحد أن يقدم دون عار على الزواج منها ما عدا صاحب الإعتداء. إلا أنه كان هناك احتمال كبير بأن يُغتال هذا قبل الزواج على يد العائلة التى كان مفروضاً أن يصاهرها...»

Germaine TILLION: Le Harem et les Cousins (1966), Coll. ''Points'', Seuil, Paris, 1982, p. 202.

٢٦ - راجع:

- Edouard COTHENET: Saint Paul en son temps, op. cit., pp. 61-62.

كوستي بندلي: صورة المسيح فى الزواج والأسرة، مرجع مذكور، ص ٥٤-٥٨.

٢٧ - Cf Edouard COTHENET: op. cit., p. 29.

٢٨ - Cf Germine TILLION : Le Harem et les cousins, op. cit., pp. 163- 164.

٢٩ - Cf Olivier CLÉMENT: Questions sur l'Homme, op. cit., pp. 114-115.

٣٠ - Cité in: C.Œ.E. Nouvel élan pour les Eglises (dossier), p. 38, "L'Actualité Religieuse dans le Monde", Paris, no. 3, 15 juillet 1983, pp. 31-38.

٣١ - Cf nadeleime BAROT: Le Conseil Œcuménique des Eglises et les femmes (interview). Propos recueillis par Claudette Marquet, p. 27, dossier "Depuis quarante ans, qu'est-ce qui fait courir le Conseil Œcuménique?", pp. 26-27, "L'Actualité Reigieux dans le Monde", Paris, no. 58, juillet-aout 1988, pp. 23-33.

٣٢ - Cf Supplément C.Œ.E., Depuis quarante ans, qu'est-ce qui fait courir le Conseil Œcumémique?, 25, A.R.M., Paris, no. 58, juillet-aout 1988, pp. 23-30.

٣٣ - "La Place de la femme dans l'Eglise Orthodoxe et la question de l'ordination des femmes". Conclusions du Congrés théologique interorthodoxe (Rhodes, 30 octobre-7 novembre 1988), paragraphes 23 à 26, in "Contacts", Paris, 41e année, no. 146, 2e trim. 1989, pp. 94-108 (le texte que nous citons figure aux pages 102 et 103 de cette revue).

٣٤ - Cf Elisabeth BEHR-SIGEL: La Consultation interorthodoxe de Rhodes (30 Octobre 7 - novembre 1988). Présentation et essai d'évaluation, pp. 88-89, in "Contacts", op. cit., pp. 81-93.

٣٥ - Dr Wolfgang LEDERER: La peur des Femmes (the fear of women, New york, 1968), traduit de l'américain par Monique MANIN (1970), "Bibliothéque Scientifique", Payot, Paris, 1980, p. 113.

الفصل الثالث

المرأة كصانعة لذاتها وخميرة للمجتمع

- دور المرأة المسيحية فى المجتمع
- المرأة المسيحية والمجتمع الإستهلاكى
- كيف يمكن للمرأة الحركيّة أن تكون خميرة المجتمع ؟
- كيف يمكن للمرأة أن تتحرر من التبعية ؟

أولاً : دور المرأة المسيحية فى المجتمع

« ما هو دور المرأة المسيحية فى المجتمع من خلال الكنيسة ؟ »*

١ - توضيح معنى العبارات

لابدّ ، بادىء ذى بدء ، من إيضاح معنى العبارات الواردة فى نصّ السؤال :

أ - دور المرأة المسيحية

المقصود دورها الفريد ، الذى يختص بها كإمرأة ، ويتميز عن الدور الذى يُلقى على عاتق الإنسان المسيحى بوجه عام

ب - دورها من خلال الكنيسة

أفهم : من خلال إشتراكها فى حياة الجماعة الكنسية ، أى من خلال إنتمائها ، بالعمودية وسر الشكر والصلاة وتأمل كلمة الله وحياة الشركة ،إلى تلك الجماعة الحية التى هى « جسد المسيح » ، أى إمتداد حضوره عبر التاريخ ومحور ورشة عمله الخلاصّي المستمرّ بين الناس .

جـ - دورها فى المجتمع

أى فى الجماعة البشرية التى جُعلت الكنيسة فيها خميرة تحرّر وتجدد ، من أجل أن تتحول تلك الجماعة شيئاً فشيئاً وتنجو من عتاقتها وتنفض عنها عبودية الفساد والموت ، وترسم فيها ، بفعل قوة قيامة المسيح ، سمات

* بحث هذا الموضوع فى إجتماع لـ « ندوة الثلاثاء » عُقد فى ١٩٨٣/٦/٧

ملكوت الله ، من قداسة وعدل وحرية ومحبة ومشاركة وفرح ، فتطبع تلك السمات الأفراد ، والعلاقات التى يقيمونها فيما بينهم على كل الأصعدة ، والمؤسسات التى يعيشون فى ظلها ، والحضارة التى يبنونها .

فى معالجتنا للموضوع ، سوف نوضح أولاً تلك الفرادة التى تتسم بها المرأة والتى تضفي على دورها فى المجتمع طابعاً مميزاً ، ثم نبين وجوه دورها الإجتماعى هذا ، وننتهى بذكر بعض الشروط التى تسمح للمرأة بالنجاح فى هذا الدور .

٢ - فرادة المرأة

لقد كُتب الكثير عن وجوه التمايز بين الرجل والمرأة ، تلك الوجوه التى تتشابك فى تحديد أسبابها العوامل البيولوجية والعوامل الحضارية والتربوية . ولسوف نتوقف فيما يلى عند أحد هذه الوجوه لما يتخذه من أهمية بالغة فى نظرنا .

فإذا كان الرجل موهوباً بنوع خاص **للتعامل مع الأشياء** التى يتألف منها العالم المادى والإجتماعى (من مواد طبيعية وآلات ونظم وقوانين ورموز إجتماعية وعقائد ونظريات وأفكار ...) فيتعاطى معها ويتصارع وإياها ويتحكم بها بعقله وإرادته ، ويعمل على تطويرها ويسخرها لخدمة أغراضه ، فالمرأة موهوبة بصفة خاصة **للتعامل مع الأشخاص** والتواصل معهم وتقبّلهم وتفهمهم ورعايتهم ، وهي ميزة لها جذورها فى تكوينها البيولوجى نفسه ، ذلك التكوين الذى يعد المرأة للأمومة ، أى لحضانة الحياة ورعايتها .

وقد بيّن العالم النفسى والفيلسوف الهولندى بويتنديجك ،فى كتاب شهير له صدر سنة ١٩٥١ ، بعنوان « المرأة » ، أن « إهتمامات الرجل كثيراً ما تسودها قيم العمل والميل إلى الفعالية ؛ أما إهتمامات المرأة فإنها

تتجه أكثر نحو ميدان العلاقات بين الأشخاص وعالم « الهمّ » (أى همّ الآخر والإهتمام به والقلق عليه : ك .ب .) »[1]

إن الأخصائى النفسى بيار داكو يصف هذا الاختلاف عبر مَثَل معبر ، فيقول :

« فى حين أن الرجل يتوتر فى وقفته إذا ما وجد أمام عَلَم ، دون أن يرى حامله ، فإن المرأة ، لو وُجدت فى الموقف نفسه ، تتطلع إلى الكائن البشرىّ وتهمل الرمز المجرّد للعلم . »[2]

هذه الخاصة النسائية تتجلى منذ الطفولة ، ويبدو أنها تنبع لا من تأثير المجتمع والتربية وحسب ، بل من ميزات مسجلة فى التكوين العضوى نفسه .

أ – من هنا ما لاحظته اختبارات حديثة من أن الطفل الذكر يتمتع بإدراك بصرى أفضل للمدى المحيط ، بينما الطفلة الأنثى تتمتع بأهلية أكثر لإكتساب اللغة – التى هى أداة تواصل – وقراءة الإنفعالات على الوجوه .[3] وما لاحظه الباحث رونالد كاغان من أن الطفلة الأنثى تتوقف عن الرضاعة حين يدخل شخص إلى الحجرة ، بعكس الطفل الذكر الذى لا يبدو أنه يهتم بذلك .[4]

ب – من هنا أيضاً الإختلافات التى لوحظت بين أطفال الجنسين فى ألعابهم :

* فقد كتبت أدا ابراهام :

« إن العلاقة بالغير تهمّ البنات أكثر مما تهمّ الصبيان : فهنّ فى ألعابهن يفضلن الدمى ولعبة العلاقات الإجتماعية ، بينما يميل الصبية نحو الألعاب التى تتناول الأشياء دون أن يكون لها موضوع إنسانى . »[5]

– وكتبت المحللة النفسية هيلين دوتش : « إن أولى علامات الاختلاف بين الجنسين تبدو بوضوح فى ألعاب الأطفال . فنشاط الذكر الصغير يتجه نحو الخارج . فالتوق إلى التقدم إلى الأمام ، وإضافة عناصر خارجية إلى الأشياء التى يبنيها ، والإقدام أحياناً على هدم ما انتهى لبرهة من صنعه ،كل ذلك يختص بالصبى . أما الإمرأة الصغيرة فإنها ، إذا بنت بيتاً ، فإنما يكون هذا دوماً بقصد وضع شىء ما فيه ، وهى تغلق أبوابه وتحافظ بعناية على ما شيّدته . إن ألعابها تقوم على بناء عش وترتيب الأشياء والسهر على ترتيبها . »[٦]

٣ – وجوه دور المرأة المسيحية فى المجتمع

إن المرأة المسيحية مدعوة ، إنطلاقاً من هويتها الروحية كمسيحية ومن خصائصها الإنسانية ككائن بشرى بكل ما فى الكلمة من معنى ، لدور هام تقوم به فى المجتمع ،دور لا يقل أهمية عن دور الرجل إنما يتلوّن بما لدى المرأة من فرادة تبيّنا بعض معالمها فى ما سبق .

هذا الدور إنما تلعبه المرأة المسيحية ضمن حدود الجماعة الكنسية ، التى تشكل الوجه الإجتماعى ، المؤسسى ، للكنيسة ، من جهة ، ولكنه يتعدى هذا النطاق ليشمل المجتمع الإنسانى الواسع الذى أقيمت الجماعة الكنسية فى وسطه علامة وخميرة .

أ – دور المرأة المسيحية فى الجماعة الكنسية

المرأة لعبت تاريخياً دوراً هاماً فى الجماعة المسيحية ، وإن كان هذا الدور قد تعرّض للحدّ والإنتقاص بسبب ما رأيناه من تسرّب هيكليات الإستئثار والإستعلاء الذكوريين ، وما يرافقها من ذهنيات ،إلى داخل المؤسسة الكنسية بحيث خضعت الممارسات والمواقف الراهنة ضمن هذه المؤسسة لما

هو أصلاً غريب عن روحها وجوهرها من تمييز مجحف بحق المرأة . أما اليوم فهناك إعادة نظر شاملة بهذه المواقف وتطلّع متزايد إلى إنصاف المرأة وإعطائها الدور الذى يتناسب مع طاقاتها الفعلية وكرامتها . وباعتقادى الشخصي أن ليس فى التراث الإيمانىّ ما يحدّ مسبقاً من دور المرأة ومن المسؤوليات التى قد تُدعى إليها ضمن الجماعة الكنسية ، بل إن كل الإحتمالات يمكن أن تكون موضوع بحث مفتوح فى خطّ أمانة خلاّقة للتراث . إنما يبقى أن ما رأيناه من فرادة لدى المرأة يفتح لها ، على سبيل التخصيص لا الحصر ، مجالات من شأنها أن تقدم فيها مساهمة مميزة فى حياة المؤسسة الكنسية وبنيانها ونموّها .

أ-١ الرسالة الإجتماعية والتربوية

إن ما رأيناه لدى المرأة من إستعداد لتفهم الاشخاص وتقبّلهم ورعايتهم ، يؤهلها بشكل خاص لممارسة مهمة التربية ومهمة الرعاية الإجتماعية ضمن المؤسسة الكنسية . وقد تتكرس بعض النساء لتلك الممارستين فى نطاق إحياء مرتبة الشماسات فى الكنيسة . علماً بأن الكنيسة الأرثوذكسية تشهد اليوم مطالبة متصاعدة بإحياء هذه الرتبة فيها .(٧)

أ-٢ دور المرأة المسيحية كأمّ

كما وأن الصفة النسائية التى نحن بصددها تؤهل المرأة للقيام بعمل بالغ الأهمية ضمن المؤسسة الكنسية ، ألا وهو دورها كأمّ فى ترسيخ أسس التربية الدينية . إن علاقة الطفل بأمه أساسية من حيث اكتشاف المرء لله واتصاله به ، هذا ما تؤكده شهادة العديد من الأدباء (راجع مثلاً ماكتبه بهذا الصدد شاتوبريان وأناتول فرانس وبيار لوتي وجوليان غرين) الذين أبرزوا أثر أمهاتهم البالغ فى إيقاظ الشعور الدينى لديهم عندما كانوا أطفالاً . وقد أوضح أخصائيون

نفسيون مثل كارل شتيرن ومارلين لابست أن حنان الأم يشيع لدى الطفل ثقة عميقة وأساسية بالحياة تكون بمثابة التربة النفسية التى تنبت فيها وتتجذر الثقة بالله ، مما يجعل من الام ، على حد تعبير كارل شتيرن ، « الوسيطة الطبيعية للإيمان »(٨)

ب – دور المرأة المسيحية فى المجتمع بشكل عام

إنما شهادة المرأة المسيحية تتعدى نطاق المؤسسة الكنسية لتطل على المجتمع بوجهه العام ناقلة إليه ومحاولة أن تترجم فى علاقاته وهيكلياته إنجيل المحبة والحرية والتجدد ، مسخرة فى تأدية هذه الشهادة الخصائص النسائية الفريدة التى أتينا على ذكرها . ومن وجوه شهادتها هذه نذكر نضالها من أجل تحرير النساء من رواسب التبعية وكفاحها من أجل تقدم المجتمع وإصلاحه .

ب-١ النضال من أجل تحرير النساء من رواسب التبعية

باعتقادى أنه ينتظر من المرأة المسيحية أن تلعب دوراً ريادياً فى النضال من أجل تحرير النساء من رواسب التبعية الطويلة المستحكمة التى أخضعهنّ لها مجتمع ساده الرجال حتى الآن وسخّروا كل شىء فيه من أجل مصلحة جنسهم وتفوقه ، معتبرين النساء مجرد أدوات لقضاء حاجاتهم (أياً كان تكريمهم لهذه الأدوات) ، معاملين إياهن كقاصرات وفارضين عليهنّ وصايتهم ليخضعوهن لأغراضهن .

فالمرأة اليوم تناضل من أجل تأكيد ذاتها كشخص إنسانى بكل ما للكلمة من معنى ، كذات حرة ومسؤولة ، لها حق التصرف بنفسها وفق خياراتها وقناعاتها ، وحقّ مشاركة الرجل فى كافة المهمات الإنسانية على قدم المساواة . عبر هذا النضال والثمار التى حققها إلى الآن ، يتجلى أخيراً وبقوة ، كما يوضح أوليفيه كليمان ، فعل الخميرة الإنجيلية فى التاريخ ، إذ تغلب هذه

الخميرة ، بعد طول إنتظار ، على مخلفات الذهنية القديمة ، وتتحرر من الهيكليات الوثنية التى تحكمت حتى فترة قريبة بالعلاقة بين الجنسين .[٩]

فإذا كانت حركة تحرر المرأة مرتبطة ، فى جذورها ، برسالة الإنجيل المحررة ، يكون من الطبيعى أن تكونَ المرأة المسيحية فى طليعة النضال من أجل هذا التحرر ، شهادة للإنجيل وإحقاقاً لكرامتها كإبنة لله مخلوقة على صورته . فإنها تتساوى مع الرجل لأنها وإياه خُلقا على نفس الصورة الإلهية ، ولأنها وإياه معدة لنفس القيامة ولنفس المصير الأبدى : هذا ما علمه الآباء بصراحة ، رغم ما بدر عنهم أحياناً من تحامل على المرأة ناتج من الأوضاع الحضارية التى عاشوا فى كنفها ومن المشاكل النفسية الخاصة التى عانوا منها .[١٠]

هذا النضال ، عليها أن تخوضه بنوع خاص ، من أجلها ومن أجل جميع النسوة أخواتها ، فى مجتمعنا العربى الذى لا تزال المرأة فيه إلى حد بعيد مسحوقة ، مكبلة الطاقات ، محبوساً عليها (ولو كانت قضبان السجن ذهبية أحياناً) ضمن وظيفتها البيولوجية كأنثى ، مسخرة لأغراض الرجل ، محرومة من المناخ الذى يسمح لها بتحقيق كامل إنسانيتها ، مما ينعكس سلبياً على الرجل نفسه فيحرمه من الشريكة الكاملة التى يحتاج إليها وينتعش بها ، وعلى المجتمع ككلّ فيعيق نموة بعزل العنصر النسائى بمعظمه عن سياق هذا النمو ، وعلى الناشئة التى يحكم عليها بأن تتعقد بتأثير الجو العائلى غير السليم الذى تترعرع فيه والناتج عما تعانى منه الزوجات والأمهات من غبن وحرمان . على المرأة المسيحية ، فى مجتمعنا العربى ، أن تناضل عن كرامتها وكرامة أخواتها النساء جميعهن (التى ترتبط بها ، فى آخر المطاف ، كرامة الرجل نفسه ، لأن الرجل لا يحقق تمام إنسانيته إلا إذا عامل المرأة فعلاً على قدم المساواة) ، وأن تكشف ، عبر هذا النضال ،

وجه المسيح المحرّر ، وقوة قيامته التى تفخر وتزيل عتاقة التسلط والإستعباد وما ورائهما من أنانية وإستئثار .

إنما ينبغى لها أيضاً أن تسهر على حفظ هذا النضال من الانحرافات التى قد تشوبه ، كأن يتحول ، كما فى بعض تيارات الحركة النسائية المعاصرة أو فى ممارسات العديد فى نساء اليوم ، إلى تقليد أعمى للرجل تفقد فيه المرأة أفضل ما فى أنوثتها من فرادة ، أو إلى إستعلاء على الرجل ومحاولة استبدال تسلطه بتسلط عكسيّ (علماً بأن هذا الخيار الأخير مارسته العديد من النساء منذ أقدم العصور ، دون أن يعلنن عنه جهاراً ، فكان سلاحاً لذن به للذود عن كيانهن فى وجه تسلط الرجال) . إن تفوق الرجل فى المجتمع الراهن يغري المرأة بأن تقلّده فى كل شيء علّها تنجو من إنتقاصها وتنتقل من مصفّ المستضعَفين إلى رتبة المستقووين ، فتستميت فى مجاراة الرجل فى ذكورة له تطرفت وانحرفت لأنها تنكرت لما كان ينبغى أن يوازنها من طاقات « أنثوية » قائمة فيه فى الأصل ولكنه أمعن فى تجاهلها وكبتها . فإذا بها تتعبد مثله للفعالية والإنتاج والمال والنجاح الخارجيّ والظهور والصراع وقسوة القلب وجفاف المشاعر * فى حين أنه كان يُنتظر منها أن توقظ بأنوثتها ما لدى الرجل من أنوثة مكبوتة فتقوده إلى مزيد من الإهتمام بالمشاعر والبيت والحب والتسامح والتعاطف والرأفة والتفهم والصبر والتأنى واليد الممدودة والصمت وما شابه ذلك من قيم . هكذا فإنها ، بدلاً من أن تساهم فى إنقاذ الرجل والحضارة التى بناها من شياطين ذكورة ، جمحت وتمادت فانقلبت على نفسها واتخذت وجهاً مبتوراً ومدمراً ، إذا بها ترتضى بأن تنحر أنوثتها وإنسانيتها بآن ، بغية انتزاع اعتراف الرجل بها .[11] من هنا دعوة المفكّر لويس افلي للمرأة بأن لا تنقاد إلى تمثل صورة نمطية ، جاهزة ، للرجل ، بل تنقل إليه بالأحرى ما لديها من تحسس للحياة واحترام

---

* لابد من الإشارة ، بهذا الصدد إلى ظاهرة تعاظم انخراط النساء فى القوى المسلحة ، مما يؤدى ، كما لوحظ بحق ، لا إلى تلطيف الجهاز العسكرى وأنسنته ، بل إلى عسكرة النساء .

للأشخاص وحب للسلام [١٢] . ينبغى أن لا يغيب عن بالها أن ما يساعد الإنسان – ذكراً كان أو أنثى – على تحقيق إنسانيته ، إنما هو قيام علاقة بين الرجل والمرأة تقترن فيها المساواة بالتمايز والتكامل والمشاركة وفقاً للنموذج الكتابى الذى يرسمه سفر التكوين فى فصليه الأولين .

ب-٢ النضال من أجل تقدم المجتمع وإصلاحه

ثم إنه ينبغى للمرأة المسيحية أن تسخّر خصائصها الأنثوية الفريدة فى خدمة تقدم المجتمع وإصلاحه وفقاً لمقاصد الله ، متعاونة فى هذا المضمار مع كل الذين واللواتى يناضلون ، على إختلاف انتماءاتهم ، من أجل قيام مجتمع تتحقق فيه إنسانية كل إنسان وكرامته . وباعتقادى أن من الوجوه المميزة لنضال المرأة فى هذا المضمار ، نضالها من أجل الحفاظ على أصالة العلاقة الإنسانية ومكافحتها ضد كل ما يسحق الحياة .

* الحفاظ على أصالة العلاقة الإنسانية

فالمرأة موهوبة بنوع خاص ، كما بيّنا ، للعلاقة الإنسانية . لذا يترتب عليها أن تناضل من أجل إحياء تلك العلاقة وإنقاذها من كل العوامل التى من شأنها أن تطمسها أو تغيبّها أو تزيّفها . من هنا مظهران لهذا النضال فى مجتمعنا المعاصر ، أتوقف عندهما ، وهما : مقاومة طغيان الأشياء والسلع ومقاومة إفراغ الجنس من مضمونه الوجدانى .

مقاومة طغيان الأشياء والسِلَع

إن الحفاظ على أصالة العلاقة الإنسانية يحتّم مقاومة تسلّط هاجس الأشياء والسلع والمقتنيات ، الذى يشيعه مجتمع المال والإستهلاك على حساب اللقاء والمشاركة بين البشر (حتى ضمن الأسرة نفسها التى يُفرض فيها أن

تكون بؤرة هذه المشاركة وحماها) .[١٣] مما يفترض أولاً أن لا تنجرف المرأة وراء مغريات مجتمع الإستهلاك حباً بالظهور ، فتصبح ركيزة من ركائزه كما هي الحال للأسف في المجتمعات المتخلفة حسبما بيّن الدكتور مصطفى حجازى .[١٤] وبما أن حب الظهور هذا يشتد فيها على قدر شعورها بهزالة كيانها ، نتيجة لما تعانى منه من إنتقاص فى الحرية والكرامة ، لذا وجب مكافحة جذور حبّ الظهور هذا عبر نضال المرأة ، الذى أشرنا إليه آنفاً ، من أجل إعتبارها كائنا إنسانيا بكل ما للكلمة من معنى .

مقاومة إفراغ الجنس من مضمونه الوجداني

وفى الخط نفسه تأتى الشهادة التى ينبغى للمرأة المسيحية أن تؤديها فى وجه الموجة المعاصرة التى تنزع إلى إعتبار الجنس مصدر إثارة ومتعة ليس إلا ، وإلى فكّه عن كل إرتباط وجدانى والمتاجرة به كسلعة تُباع في سوق الشهوة الغريزية البحتة (بشكل أفلام ومجلات وصور خلاعية مثلاً) ويستغلها الإعلان التجارى إلى أقصى حدّ للترويج لسلع أخرى . أن هذه الموجة لا تسىء إلى « الأخلاق » وحسب ، إنما تسىء أولاً وأساساً إلى الجنس نفسه . لأنها تبتره وتقزّمه وتمسخه وتحكم عليه بالسطحية والتفاهة ، إذ تحرمه من البعد العلائقىّ الذى يعطيه عمقه ومعناه . فالمرأة ، التى هى بطبيعتها ، كما رأينا ، متحسسة للعلاقة الإنسانية وأهميتها ، والتى لهذا السبب تعطي للعاطفة ، فى علاقتها بالجنس الآخر ، أهمية أساسية ، حتى أنها لا ترتاح كلياً إلى الممارسة الجنسية إذا لم تقترن بها العاطفة وتغلّفها[١٥] ، هذه المرأة – خاصة إذا كان إيمانها المسيحى قد كشف لها المحبة كألِف الوجود وياؤه – لابدّ وأن تتصدى للهوس الجنسي المعاصر ، لا بالتنكر للجنس – فمن أفضال الحضارة المعاصرة وإيجابياتها أنها أعادت إليه إعتباره وأبرزت دوره المهم فى توازن الإنسان وانشراحه وحيويته – بلْ برفضها التحوّل إلى جسد مُشيىء (أى أن تُحصر فى ميزاتها الجنسية وتعتبر مجرد موضوع إثارة ومصدر متعة) وتأكيدها على أهمية ربط الممارسة الجنسية

بالعلاقة الوجدانية الحميمة التى تبتذل بدونها تلك الممارسة وتفقد أصالتها وغناها .[١٦]

والجدير بالذكر ،بهذا الصدد ، أن مجتمعنا العربى يقف من المرأة موقفاً متناقضاً ، مثيراً للتأزم النفسى ، إذ أنه ، من جهة ، يقمع بقسوة النزعة الجنسية لديها إلى حد حرمانها من الإختلاط فى سن الشباب ، بالجنس الآخر ، أو تضييق حريتها ، فى هذا المجال ، إلى أبعد حد ؛ ومن جهة ثانية ، فإنه ، بتحديده الزواج غاية وحيدة لحياتها ومبرراً دون سواه لوجودها ، وبتكبيله بالتالى كل إنطلاقة لها فى المجالات الإنسانية الأخرى (من ثقافية واجتماعية وغيرها) ، يركّز إهتمامها على جسدها وعلى كافة وسائل إبراز هذا الجسد وتزيينه بغية الترويج لها فى سوق الزواج ، فيلتقى فى هذا الخط- ولو لم يقصد - مع وسائل الإعلام التى تعتمد كافة ألوان الإثارة الجنسية من أجل أغراض تجارية والتى تحاصر المرأة فى كل لحظة لتدعوها إلى الفتنة والسحر والإغراء عن طريق مختلف الأزياء وأدوات التجميل التى تروج لها .[١٧]

من هنا أن المرأة المسيحية يترتب عليها ، فى مجتمعنا ، أن ترفض هذا المزيج الغريب من قمع الجنس وتضخيمه بآن ، الذى يهدف فى آخر المطاف إلى جعل المرأة ، لا شريكة حياة للرجل بل أداة لإشباعه الجنسى (مما يسيىء إلى المرأة والرجل معاً إذ يحول دون قيام علاقة متكاملة وحميمة هى شرط نجاح الزواج وسعادته) . هذا الرفض لا يكون بالدعوة إلى الإستهتار الجنسى والإباحية (اللذين يتنكران لتحسّس المرأة المرهف لأهمية العلاقة الوجدانية بين الجنسين) ، بل بالنضال من أجل تربية متوازنة تسمح للبنت بنمو منسجم لسائر أبعاد شخصيتها من جنسية وعاطفية وعقلية واجتماعية وروحية ، ومن أجل إختلاط سليم بين الجنسين يسمح بتهذيب النزعة الجنسية وأنسنتها

إذ يتيح لها فرصة الإندماج فى علاقات إنسانية حقيقية ، ويمهد لزيجات ناجحة لأنها مبنية على تناغم عميق يشمل كافة أصعدة الشخصية .

* مكافحة كل ما يسحق الحياة

من جهة أخرى ، فإن المرأة ، كما رأينا ، موهوبة لاحتضان الحياة ورعايتها ، لذا فمن الطبيعى أن تتجند فى سبيل مكافحة كل ما يسحق الحياة الإنسانية ويحكم عليها بالبؤس والتخلف فلا بد لها ، والحالة هذه ، أن تنخرط فى معركة الإنماء (وقد تفعل ذلك باختيارها مهنة المدرّسة أو المرشدة الإجتماعية أو الطبيبة ...) ، وأن تخوض ، عبر العمل النقابى والسياسى ، النضال ضد كل أشكال القمع والظلم والإستغلال فى المجتمع ، وأن تجتهد لكى تجعل من أسرتها بؤرة حرية وانشراح وانتعاش تنشر فى محيطها ذلك المناخ عينه الذى يخيّم عليها . وفى عالم مريض بالعنف الذى ينفجر حروباً خارجية وأهلية ، ويتسجل فى البنى الجائرة ، أياً كان النظام الذى تنتمى إليه ، سحقاً للإنسان ودوساً لكرامته وتعطيلاً لطاقاته ، والذى يترجم فى ممارسة وحشية للتعذيب ، مذلة لمرتكبيها وضحاياها بآن ، لا تزال منتشرة فى العديد من البلدان وفى ظل أنظمة متباينة (راجع تقارير « منظمة العفو الدولية » بهذا الشأن) ... ، فى وجه كل ذلك لابد للمرأة ، كى تكون منسجمة مع نفسها ومع دعوتها كحاضنة وحامية للحياة ، أن تجاهد من أجل إزالة العنف من البنى والممارسات وفى سبيل إحلال أنماط من النضال اللاعنفى (المتعاظم فى عالم اليوم والذى مارسه أو لايزال رواد عظام على شاكلة غاندى ومارتن لوثر كينغ وقيصر شافيز وأوسكار روميرو وهيلدر كامارا وأدولفوبيريز اسكويفل) فى مواجهة الظلم ، بدل العنف الذى – وإن كان شراً لابد منه فى بعض الأحوال – إلا أنه بطبيعته يضيف آلاماً على الآلام ودماراً

على الدمار ويغذى الأحقاد ويعمّق الهوة بين الناس ، والذى حتى إذا انطلق فى سبيل غاية شريفة ، إنما هو مهدد أبداً بالإنحراف عن قصده لأنه غير متجانس مع طبيعة هذا القصد .[١٨]

يقول الكاتب الألمانى الكبير المعاصر ، غونتر غراسّ ،فى إحدى رواياته « سمكة التِرس » (١٩٧٧) ، إن التاريخ البشرى بدا حتى الآن وكأنه تعبير عن قدر محتوم يفرض على الإنسان أن لا يخرج من حرب إلا ليستعد لأخرى ، وأن تلك الدوامة لن تُحطّم إلا إذا دخلت التاريخ تلك اللواتى أبْقين قسراً على هامشه حتى ذلك الحين ، أى النساء اللواتى انحصر دورهن إلى الآن ، بصفتهن أمهات ، فى تقديم الوقود البشرى لتلك النزاعات وتعويض ما استهلك من تلك المادة البشرية . يتساءَل الكاتب لماذا سكتت ملايين الأمهات والأخوات والبنات عن حروب الرجال ، تلك الحروب التى لم تحمل إليهن سوى الألم . ثم يلاحظ أن النساء فى عصرنا يطالبن بالتحرر وينظّمن أنفسهن لهذا الغرض وقد بدأن يحرزن نجاحات جزئية فى هذا الميدان .ولكنه يتساءل هل يا ترى سوف تؤدى مساواة المرأة للرجل بالحقوق إلى تقويض المعايير الذكورية التى قادت التاريخ حتى الآن أم أن النساء ، إذا ما شاركن فى الإمساك بمقاليد السياسه ، سيعمدن إلى مجاراة الرجال فى معاييرهم فيدعمن ويضاعفن شهوة الحكم الذكورية وما تؤول إليه من نزاعات مسلحة .[١٩]

بهذا المعنى أيضاً كتب بيار داكو :

« ...الحروب تتوقف على الأرجح لو كان زمام العالم فى أيدى نساء هنّ نساء بالمعنى الكامل من الكلمة .إذ كيف لهن أن يفنين الحياة طالما أنهنّ يصنعنها ؟ »[٢٠]

والحق أن النساء أخذن يدركن دورهنّ ومسوؤليتهنّ الفريدين فى هذا المضمار. فعن نساء الولايات المتحدة تقول إحدى الباحثات أنهن :

« على الصعيد السياسى (...) أخذن يعين أن بوسعهن أن يمثلن قوة سياسية مستقلة وأنهن يواجهن المشاكل (...) من زاوية تختلف عن زاوية الرجال ، إذ ليس لديهن وسواس النفوذ والرجولة الذى يفسر برأى البعض (...) إلى حدّ ما ، السياسة الخارجية العدوانية . »(٢١)

وتضيف هذه الكاتبة :

« إن طموح حركة تحرير النساء (فى الولايات المتحدة) لا يقتصر على مشاركة الرجال فى المراكز القيادية ، وعلى النضال على الصعيد الفردى . فالهدف ، كما شرحته غلوريا ستاينم فى الإجتماع الأول الذى عقدته اللجنة السياسية للنساء ، « هو أنسنة المجتمع بإدخال قيم الثقافة النسائية إليه ... إننا نتوجه إلى كل النساء اللواتى تعبنَ من ذلك الإعتقاد الصوفىّ لدى الرجال بأن العنف هو الحل الذى لابدّ منه أو المقبول للصراعات ». ليس من شكّ فى أن الفكرة التى تقول بأن النساء ، إذا ما وصلن إلى الحكم ، سوف يمارسن سياسة أكثر إنسانية من سياسة الرجال ، إنما هى فكرة قابلة للنقاش (...) ولكن استقصاء حديثاً أجرته مؤسسة هاريس يدعم هذه الفرضية : فقد بدأت النساء يشكّلن قوة سياسية مستقلة ، وأن أصواتهن الانتخابية تتجه خلافاً لأصوات الرجال . إنهن معارضات أكثر من الرجال لحرب فيتنام ويقترعن بنسبة أقل لصالح مرشحين مثل جورج والاس (وهو مرشح عنصرى : ك .ب .) ... »(٢٢)

وفى فرنسا ، نرى دانيال له بريكير ، وهى مناضلة نسائية تكافح منذ بداية الثمانينات من أجل السلام ، تؤسس حركة « مقاومة النساء الدولية للحرب » ، التى تهدف أساساً إلى إطلاق تربية من أجل السلام تبدأ منذ مطلع العمر (٢٣) . وتشرح لنا هذه المناضلة السبب الذى من أجله التزمت العديد من المنظمات النسائية النضال من أجل السلام . تقول :

« لأن المرأة تعطى الحياة ، فهى تعرف لحمياً ما الذى تعنيه هذه العبارة » .(٢٤)

٤ - شروط نجاح المرأة المسيحية فى دورها الإجتماعى

هذا ومن أجل نجاح المرأة فى ذلك الدور الاجتماعى المتعدد الجوانب الذى هى مدعوّة إلى ممارسته ، إن فى المؤسسة الكنسية أم خارجها ، ينبغى لها أن تواجه هذه المهامّ بثقة نابعة من وعيها للخصائص الفريدة التى وضعها الله فيها ، ثقة يذكيها يقينها بأنها، من منظار الإنجيل ، «عاملة مع الله» (اكو ٣: ٩) على قدم المساواة مع الرجل .

كما أنه ينبغى لها أيضاً أن تضيف إلى صفاتها الأنثوية المميزة ، بعض الخصال المصنفة بين سمات « الرجولة » ولكنها بالحقيقة ليست وقفاً على الرجال ، إنما تحتاج إليها المرأة أيضاً لاكتمال إنسانيتها كما يحتاج الرجل إلى بعض الصفات المعتبرة « أنثوية » (كالتفهم والتقبل والرعاية) كى تكتمل بها إنسانيته . من هنا إن عليها أن تقرن الرقة بالصلابة ، والرفق بالتصميم ، والتفهم بروح المجابهة ، والصبر بروح المبادرة ، والتقبل بالقدرة على القيادة ، والحدس بالتحليل المنطقى ، والإلهام بالتخطيط . هذا الإكتساب ممكن من وجهة نظر نفسية ، لأن علم النفس الحديث ، مثلاً فى مذهب يونغ ، يعلمنا أن فى كل رجل صفات أنثوية كامنة ينبغى له أن يوقظها فيغتنى بها ، كما أن فى كل امرأة صفات رجولية كامنة ينبغى أن يكون لها نفس المصير .(٢٥) أما إذا نظرنا إلى الأمور من وجهة نظر روحية ، فالإكتساب الذى نحن بصدده ممكن أيضاً لأن صورة الله مغروسة فى الرجل وفى المرأة على حد سواء ، تدفع كلاً منهما باستمرار إلى تجاوز حدوده وحدود جنسه وإلى إكتمال إنسانيته . ففى الله تجتمع « الأبوة »و« الأمومة » ، الإندفاع الخلاّق من جهة ،الذى يُعتبر « ذكورياً » ، والرعاية والحنان من جهة أخرى ،

وهما اللتان يعتبرهما بوتنديجك مميزتين للموقف « الأنثوى » . وعلى هذا المثال ينبغى لكل من الرجل والمرأة أن يحقق كمال إنسانيته .[26] إنما يتمّ هذا الإكتمال عبر مراس وجهاد وفى سعى دائب إلى القداسة ، تلك التى تقول عنها اللاهوتية الأرثوذكسية المعاصرة إليزابيت بهر - سيفل ، معلقة على تعليم القديس باسيليوس الكبير بهذا الصدد ، إنها « تتجاوز الجنس دون أن تتنكر له »[27] .

ثانياً : المرأة المسيحية والمجتمع الإستهلاكى

« ما هو دور المرأة المسيحية فى المجتمع الإستهلاكى ؟ »*

قبل أن نتطرق إلى الدور الذى نعتقد أن المرأة المسيحية مدعوة إلى تأديته فى المجتمع الإستهلاكى ، لابد أن نعرض أولاً دور المرأة الراهن فى هذا المجتمع .

١ – ما هو دور المرأة الراهن فى المجتمع الإستهلاكىّ ؟(٢٨)

إذا تطلعنا إلى دور المرأة الراهن فى المجتمع الإستهلاكىّ ، وجدنا أنه ذو شقين . فهى من جهة موضوع إستهلاك ومروّجة له . وهى من جهة أخرى مقبلة عليه وواجهة له .

أ – المرأة كموضوع إستهلاك ومروّج له

أ–١ إنها موضوع إستهلاك

فالمرأة تُحوَّل ، فى المجتمع الإستهلاكى ، إلى جسد مُشيَّىء ، إلى موضوع جنسى معروض للإستهلاك فى سوق الشهوة ، وذلك عبر القصص والصور والأفلام الخلاعية . فى هذا الإنتاج الخلاعىّ ، الكثير الرواج فى عالم اليوم ، لا يُقام أى وزن لنفسية المرأة ، لشخصيتها ، إنما تحوّل إلى مجرد أداة لمتعة جنسية خالية من كل بعد وجدانىّ ، علائقيّ . هذا الإستهتار بذاتية المرأة ، بكيانها الشخصى يبلغ ذروته ويفصح بآن عن طبيعته الحقيقية المدمّرة ، فى بعض الحالات القصوى حيث تُنتَج أفلام خلاعية ، تشرف عليها المافيا ،

---

* بُحث هذا الموضوع فى إجتماع عُقد لـ « ندوة الثلاثاء » فى ١٩٨٥/٣/١٩ .

وتباع بأغلى الأثمان فى الولايات المتحدة وغيرها ، يُقال أن « البطلة » تعذّب فيها فعلاً ، وأحياناً حتى الموت ، من أجل إشباع النزعات الجنسية السادية المنحرفة عند المتفرجين . هذا ما يُعرف بأفلام snuff (وهى عبارة تعنى « القتل » باللغة الأمريكية العامية) .[٢٩]

أ-٢ إنها مروّجة للاستهلاك

وكما تُستعمل المرأة كموضوع للإستهلاك الجنسىّ عبر الخيال والنظر ، كذلك تستعملها وسائل الإعلان التجارى كأداة ترويج للسلَع التى ينتجها المجتمع الإستهلاكىّ ويعمل على تسويقها وفقاً لتقنيات محكمة . المرأة ، في هذه الحال ، مجرد رمز جنسىّ ، لا يقام أى وزن لذاتيتها إنما تستعمل كمجرد عنصر للإثارة عند عرض صنف من السجاير أو المشروبات أو السيارات أو ما شابه ذلك ، بحيث تقترن الإثارة باسم الصنف المعروض ، بموجب أوالية الانتكاس الشرطيّ rélfexe conditionné ، مما يحدو بالمشاهد إلى إقتناء السلعة المعروضة بسبب إقترانها بما إنتابه من إثارة . وهذا ما يحطّ من كرامته وكرامة المرأة بآن ، كون هذه حُوّلت إلى مجرد أداة للإثارة ، أما هو فتحوّل إلى آلة تسيّرها عوامل شبه ميكانيكية . هنا أذكر على سبيل المثل ، دعاية لصنف من البيرة ، تبدو فيها إمرأة شبه عارية الصدر تسحب من صدرها فتاحة القنينة ، بينما يظهر رجال تتركز أبصارهم أولاً على صدر المرأة ثم تنتقل إلى زجاجة البيرة التى تختلط لفترة صورتها بصورة الصدر . وكأن الدعاية قد تعمدت أن توحّد بين المرأة والبيرة ، جاعلة من هذه وتلك موضوعين للإستهلاك على حدّ سواء .

ب - المرأة كمقبلة على الإستهلاك وواجهة له

من جهة أخرى ، فالمرأة تساهم بشكل فعّال فى دفع عجلة الإستهلاك ، وذلك بإقبالها الشديد عليه ، خاصة فى البلاد المتخلفة ، فتصبح من جراء ذلك واجهة دعائية له تحفز سواها إلى الإنخراط فى سياقه .

ب-١ الدعوة الإستهلاكية تستهدف المرأة بنوع خاص ...

فمن جهة نرى الدعوة الإستهلاكية تستهدف المرأة بنوع خاص وتبرع فى استمالتها بالضرب على أوتار حساسة لديها . فكثير من سلع الإستهلاك المعروضة إنما هى مخصصة للمرأة . منها ما هو مفيد جداً لابل ضرورى لها ، كالأدوات المنزلية (من كنّاسات وغسّالات وغيرها) التى تخفف عن المرأة كثيراً من أتعاب العمل المنزلى ورتابته وتساعدها على التوفيق بين هذا العمل الداخلى وبين عملها خارج المنزل . ولكن كثيراً منها وسائل للترف (كالعطور الفاخرة مثلاً) تدفع الأساليب الدعائية المرأة دفعاً إلى اقتنائها بتصويرها إياها على أنها وسائل للإثارة الجنسية لا تقاوَم : تذكروا ، على سبيل المثل ، تلك الدعاية التى تظهر إمرأة تسحر الرجال وتفقدهم رشدهم بشذا عطرها- العطر كذا . مما يفترض هنا أيضاً تحويل المرأة إلى مجرد رمز جنسىّ ، مهم لا بحدّ ذاته وبما يحققه انطلاقاً من هذه الذات من علاقات وإنجازات ، بل من حيث ما يثيره من شهوة لدى الرجال . وهو انتقاص للمرأة باعتبارها « الجنس الثانى » - حسب عبارة سيمون دى بوفوار - أى الموجود أصلاً من أجل « الجنس الأول » ، جنس الرجال ، وبالإضافة إلى أغراضه . كذلك تؤخذ المرأة بوسائل الدعاية التى تعرض عليها ألبسة وأزياء تعريّ جسدها ، وترغّبها بها من حيث أنها وسائل للإثارة لا تقاوم . وتبرع الدعاية أحياناً إذ تصوّر هذه الأزياء على أنها تليق بـ « المرأة المتحررة » ، فتضرب بذلك على وتر الحرية الحساس لدى المرأة ، مخفية أن ما تدعو إليه من « حرية » فى الظاهر إنما هو بالحقيقة إستلاب لأنه يحددّ أهمية المرأة وقيمتها إنطلاقاً من شهوة الرجل وبالإضافة إليها .

ب-٢ وتتخذ من إقبالها على الإستهلاك واجهة دعائية

هذا وبتجاوبها الكبير مع الدعوة الإستهلاكية تحقق المرأة ما أريد لها من أن تكون « عارضة للوجاهة » . لقد بيّن الأخصائى النفسى اللبنانى ،

الدكتور مصطفى حجازى ، أن المجتمع المتخلف – ومنه مجتمعنا – مجتمع مقهور ، مغلوب على أمره ، تستغله القوى الخارجية ، من دول وشركات متعددة الجنسيات ، مسخّرة فى سبيل ذلك المتنفذين فيه ، فتستعمل هؤلاء فى سبيل أغراضها لقاء ما تمنحهم إياه من مكاسب . هؤلاء بدورهم يستغلون من هو أضعف منهم وهكذا دواليك من أعلى الهرم إلى أسفله . وبسبب ذلك الإستغلال المتعاقب الحلقات يعانى الإنسان فى ذلك المجتمع من الذل والمهانة والدونية وإنتقاص الكرامة الإنسانية ، فيحاول أن يعوّض عن هذا الشعور الممضّ بمحاكاة الأجنبى ، لا من حيث القدرة الفعلية وما تقتضيه من مجهود طويل ونضال ومشقة وإبداع وإنتاج ، بل من حيث مجاراة أسلوبه الظاهرى فى العيش . وكأنه بالمظاهر الخارجية يستطيع أن « يستر » هزالته الفعلية . (لعل هذا من أسباب أهمية فكرة « السترة » فى مجتمعنا : « ساترها الله» ، « إنسان مستور » ... وكأن الإنسان منا يختبىء وراء المظاهر خشية أن يفتضح أمره ، أن ينكشف فراغه الكيانى) . هكذا ، يقول كاتبنا ، يسود المجتمع المتخلف زيف معيشي دعاه علماء الإجتماع « أثر الإستعراض » effet de démonstration (هذا ما قد تعبّر عنه العبارة الشائعة :« الإنسان مخبأ بثيابه ») . فالفئة المحظية تحاول أن تحاكي الأجنبى الذى يتحكم بها ويتعاون معها بآن ، فتبدد الثروة القومية فى تكديس سلع الوجاهة من سيارات فخمة ورياش وألبسة فاخرة ، وتحاول الفئات الأخرى ، من جهتها ، أن تحاكي الفئة المحظية ، تشجعها على ذلك الدعاية التجارية التى تغريها بتقليد وجاهة الأجنبى أو ذوى الحظوة والنفوذ . هكذا يستّر كل إنسان على نقصه وعجزه بتهافته وراء المظاهر يبهر بها سواه . وتُستخدم المرأة وسيلة لهذا الإستعراض ، فتتحول إلى « عارضة للوجاهة » (كما يقال « عارضة أزياء ») يفاخر بها الرجل سواه بما يحمّلها إياه من ألبسة فاخرة وحليّ ثمينة ووسائل تجميل متفننة .(٣٠)

والمرأة ، للأسف ، تستجيب لهذا الدور فى كثير من الأحيان ، تحملها إلى ذلك دوافع نابعة من وضعها الخاص . ذلك أنها الكائن الأكثر استضعافا فى مجتمع مستضعف كله . تحمل وزر ذلك المجتمع لأن الرجل فيه يحاول أن يعوّض عن كرامته السليبة بتحكمه بالمرأة وتسلطه عليها . من هنا إنها تصبح أحوج منه إلى التستر وراء مظاهر الوجاهة تلفت بها النظر فتتوهم أنها استعادت بذلك قيمتها المفقودة . هكذا تندفع وراء الإستهلاك تعبّ منه بنهم المصدوم عاطفياً الذى ينكص ، بفعل هذه الصدمة ، إلى المرحلة « الفمية » ، وهى المرحلة الأولى من مراحل النمو الإنفعالى ، فيحاول ملء فراغه النفسى بتهافته على الطعام .[٣١] كما أنها تجعل من إقبالها على الإستهلاك وسيلة لممارسة نوع من الإبتزاز العاطفى على زوجها ، تنعته بالبخل وتجافيه إذا لم يلبِّ مطالبها فتتيح هكذا لنفسها فرصة التسلط عليه بدورها ولو فى واحد من الميادين .

٢ – ما موقف المرأة المسيحية حيال مجتمع الإستهلاك ؟

حيال هذا الوضع الذى تُستلب فيه المرأة بحجة تقديم الخدمات لها وإعلاء شأنها ، تسخّر فيه لأغراض الربح على حساب إنسانيتها الأصيلة ، ما هو يا ترى الدور الذى ينتظر من المرأة المسيحية تأديته ؟ للإجابة عن هذا السؤال لابدّ من إيضاح منطلقات هذا الدور قبل التطرق إلى تعابيره .

أ– منطلقات هذا الدور

منطلقات هذا الدور تتلخص فى أن تعى المرأة أولاً ، فى ضوء الإيمان ، كرامتها وشروط تحقيق هذه الكرامة ؛ ثم أن تعى أن انخراطها فى المجتمع الاستهلاكى يتنكر ، رغم المظاهر ،لتلك الكرامة .

أ-١ أن تعى كرامتها فى ضوء الإيمان

يترتب على المرأة المسيحية أن تدرك حقّ الإدراك ، لا بالذهن فقط بل بمجمل الكيان :

أ - أنها كائن مُقام على صورة الله ، كالرجل تماماً ، ومدعوّ إلى مشاركة حياة الله منذ الآن ، وأنها بالتالى قد منُحت كرامة فائقة ، وأنها غاية بحد ذاتها - لأنها محبوبة من الله ومدعوة إلى علاقة فريدة معه - ولا يجوز بالتالى أن تتخذ أداة أو وسيلة لأى مطمع أو غرض أو شهوة ، ولا يجوز بحال من الأحوال أن تُفرَغ من قيمتها الإنسانية لتحوّل إلى شيء يمتلك أو يستمتع به .

ب - أنها كالرجل إبنة لله ، وبالتالى حرة مثله فى هذا الكون الذى إن هو إلا بيت أبيها ،وأن المسيح قد رسّخ هذه الحرية وأطلقها من عقالاتها بموته وقيامته ، وأن كل محاولة لإستعباد المرأة ، مهما اتخذت لها من ذرائع ، موجهة فى آخر المطاف ضد الله نفسه الذى شاء لها هذه الحرية ودفع دم إبنه الوحيد ثمناً لها :

* «قد اشتريتم وأدّي الثمن، فلا تصيروا عبيد الناس» (١كو ٧: ٢٣)

* «إن المسيح قد حرّرنا لنكون أحراراً . فاثبتوا إذاً ولا تعودوا إلى نير العبودية .» (غلاطية ٥: ١)

ج - إن شخصها الفريد وحريتها لن يتحققا إلا إذا قبلت أن تتخطى كل تقوقع على ذاتها ونزواتها ، فلا تبقى أسيرة شهوة الطمع أو التملك أو الغرور بل تتجاوز ذاتها إلى الآخرين تتقبلهم وتعطيهم ، فتتحقق فيها من جراء ذلك ، كما فى الرجل ، صورة الإله الثالوثى الذى هو بطبيعته حب ومشاركة ، وتجد ذاتها الحقيقية عبر نفس التجاوز الذى يجد به الرجل ذاته الأصيلة .

أ-٢ أن تدرك أن المجتمع الإستهلاكى يتنكر لهذه الكرامة

إنما على المرأة المسيحية أن تدرك ، بالمقابل ، أن مجتمع الإستهلاك يناقض بتوجهاته هذه السمات التى تتحقق بها إنسانية المرأة كما تصورها كلمة الله . ذلك لأنه :

أ - يحوّلها من **شخص** على صورة الله إلى **سلعة** فى سوق الشهوة (إن تم ذلك عبر الصورة الثابتة أو المتحركة أو عبر المشاهدة المباشرة كما فى حفلات التعرية) وإلى أداة للترويج لمختلف السلع (من سجائر وكحول وملابس وعطور وسيارات وقطع غيار وأجهزة تلفزيونية وشقق سكنية وغير ذلك) ، وإلى « عارضة وجاهة » يستعملها الرجل لإشباع غروره والتستير عن نقصه . مجمل الكلام أنه يحوّلها من غاية إلى وسيلة ومن ذات إلى شىء .

ب - يسلب حريتها إذ يحوّلها عن تحقيق إنسانيتها بتسخيره إياها جسداً ونفساً فى سبيل أغراضه ، التى تتلخص بكسب المال وما يمنحه هذا المال من سلطة ونفوذ . والأدهى من ذلك أنه ، فى حين يسلبها حريتها ، يوهمها أنه يعمل على تحريرها . لقد طرد يسوع الباعة من الهيكل ، ونحن نعلم أن هيكل الله الجديد هو المسيح الحاضر فى كل إنسان ، فى كل رجل وفى كل امرأة ، وأن كل اعتداء على هياكل الله الحية هو اعتداء على الله يرتدّ على مرتكبه ليؤذيه إيذاءً فادحاً لأنه يفصله عن نبع الحياة :

« أما تعلمون أنكم هيكل الله ، وأن روح الله حالّ فيكم ؟ من هَدَم هيكل الله هدمه الله ، لأن هيكل الله مقدّس ، وهذا الهيكل هو أنتم. » (١كو ٣: ١٦-١٧) .

ج - يحوّلها عن المشاركة وما تمنحه من غنى إنسانى وفرح واكتمال بتغذيته فيها شهوات الغرور والظهور والتملك والغواية من أجل تحقيق مآربه ، مستفيداً فى سبيل ذلك مما تعانى منه من شعور بالنقص بسبب إستضعاف المجتمع الرجالى لها .

ب- تعايير هذا الدور

من هنا أنه ينبغي للمرأة أن تتجند لمقاومة مغريات مجتمع الإستهلاك المسلطة عليها - كما على الرجل ، إنما عليها بنوع أخص لأن مجتمع الإستهلاك إنما هو أيضاً كسواه مجتمع يسوده الرجال - وأن تتصدى له ببراعة وإحكام ؛ وأن تتخذ منه موقفاً حراً ونقدياً جديراً بحرية أبناء الله ، فتأخذ منه ما هو مفيد لتحقيق إنسانيتها المخلوقة على صورة الله وترفض منه ما يعيق هذه الإنسانية ويقزّمها . هذا يقتضى أن ترفض تشييء مجتمع الإستهلاك لها ، وأن تسعى إلى تأكيد قيمتها خلافاً لمقاييسه ، وأخيراً أن تسعى إلى إطلاق موقف مضاد فى المجتمع ألا وهو موقف المشاركة .

ب-١ أن ترفض تشييء مجتمع الإستهلاك لها

مجتمع الإستهلاك يحاول ، كما رأينا ، أن يختزل المرأة فى جسدها ليحوّل هذا الجسد إلى **سلعة** تباع وتشترى وإلى **طُعم** يروِّج به لباقى السلع ويوضع على مستواها . المرأة المسيحية لابد وأن ترفض هذا التشييء الذى يعطل كرامتها كشخص إنسانى مقام على صورة الله . إنها ترفض أن تُحصر فى جسدها لأن ذلك لا يلغى شخصها فحسب بل يسيىء إلى الجسد نفسه الذى لا يمكن إعتباره شيئاً من الأشياء لأنه متجلى الحضور الإنسانى فى العالم . « الجسد » فى الكتاب المقدس ، إنما هو الإنسان كله ، الشخص الإنسانى كله ، من حيث هو بعلاقة مع الآخرين : « الجسد ، يقول لاهوتى برازيلى معاصر ، هو الإنسان من حيث قدرته على التواصل مع الآخرين ».[٣٢] من هنا إن المرأة ينبغى لها أن تقبل من مجتمع الإستهلاك كل ما يساعد « الجسد » بمفهومه الكتابى على تحقيق دور التواصل هذا الذى هو دوره الإنسانى الأصيل ، فتقبل مثلاً بالأدوات المنزلية التى تحررها من روتين العمل البيتى لتوسع مجال علاقاتها الإنسانية فى البيت وخارجه . تقبل كذلك بقسط معقول من أدوات التجميل وبما هو محتشم وجميل بآن من الأزياء

الحديثة لأن كليهما يزيدها ثقة بنفسها ونجاحاً فى علاقاتها الإنسانية ، الحميمة منها وغيرها . إنما عليها أن ترفض كل ما يجعل من البدن غاية بحد ذاته ويعزله عن بعده الوجدانى الذى لا علاقة بدونه ولا تواصل بل تشييء للجسد ومسخه وتحجيمه وهدر كرامته . ينبغى لها أن ترفض الإباحية التى ينادي بها المجتمع الإستهلاكى كما والتزمت الذى قد ينادى به كبديل لهذا المجتمع . لأن كليهما ، بتركيزه المفرط ، إيجابياً كان أو سلبياً ، على الناحية الجنسية فى المرأة ، يختزل المرأة فى جسدها ، يحصرها فى بدنها ، ولو اختلف القصد ، إذ أن الإباحية ترمي إلى المتاجرة بهذا البدن فى حين أن التزمت يتهافت على قمعه . فكلاهما يلتقيان فى إحتقار واحد للجسد ، سواءً اعتُبر هذا مصدراً للغواية أو فخاً حقيراً ،نابع من عزله عن مسار الشخصية الإنسانية ككل متكامل .

هذا وينبغى للمرأة المسيحية لا أن ترفض تشييء مجتمع الاستهلاك للجسد النسائى وتعلن عن هذا الرفض وحسب ، بل أن تشهد بسلوكها ، الخالى من الإباحية والتزمت بآن ، عن مفهوم آخر للجسد يعيد إليه اعتباره ودوره فى التواصل الإنسانى ، ويساعد الرجال بالتالى على تبديل نظرتهم إلى جسد المرأة بحيث تتنقى هذه النظرة وتتأنسن .

ب-٢ أن تسعى إلى تأكيد قيمتها عن غير طريق الاستهلاك

من جهة أخرى ، فإن المرأة المسيحية مدعوة إلى تحقيق حريتها وكرامتها كابنة لله ومساوية للرجل حسب مقاصد الله . إنما ينبغى لها أن تدرك بحكمة أبناء الله ، أن انقيادها لمغريات مجتمع الإستهلاك هو أبعد ما يكون عن أن يحقق لها ما تبغيه من حرية وكرامة ، لأنه يسخرها بالفعل لأغراض هذا المجتمع الذى لا يهمه سوى الكسب وهو لا يتورع فى سبيله ، كما رأينا ، عن اعتماد وسائل تحقّر المرأة وتدوس كرامتها . هكذا فالإنقياد إلى مجتمع الإستهلاك هو ، بالنسبة للمرأة ، إنتقال من عبودية إلى عبودية أخرى لا

تلغى الأولى إنما جلّ ما تفعله أنها تسترها بستر برّاق مزيف يحول دون مواجهة المرأة الفعلية لما تعانيه من وضع منتقص ودون إقدامها على الجهاد من أجل التحرر الحقيقى من هذا الوضع بدل التلهى عنه بالمظاهر والقشور التى لا تتعدى إشباع الغرور . المرأة المسيحية هى تلك المرأة اليقظة – أو هكذا يُفرض أن تكون – التى تدرك المعاناة القائمة وراء افتتانها بمغريات مجتمع الإستهلاك فتتصدى مع سواها لهذه المعاناة بعمل واعٍ ونضال شجاع لتعيد إلى كل إمرأة حريتها واعتبارها . كما أنها تدرك أيضاً أن الرجل لا يتسلط عليها إلا بمقدار ما يعانى هو من ذل وانتقاص لإنسانيته ، فتلتزم النضال معه وإلى جانبه لتساهم فى تحريره من البنى الإجتماعية والنفسية التى تقهره وتفسده .

ب–٣ أن تسعى إلى إطلاق موقف المشاركة في المجتمع

أخيراً فإن المرأة المسيحية هى التى تعود إلى أصالتها ، فتكتشف أن المرأة ، حسب مقاصد الله ، كائن وجد بنوع خاص للحب والمشاركة ، وذلك من حيث أن تكوينه الجسدى نفسه يعدّه لاحتضان الحياة ورعايتها .

المجتمع الإستهلاكى يدير الظهر لقيم المشاركة هذه ، التى بدونها لا تتحقق إنسانية الإنسان ، ويستبدلها بالتنافس الأنانى الشرس على التملك والتنعم والظهور والنفوذ والتسلط . ولذا فهو يفرز العزلة والسأم والظلم والحقد والعنف ، وكلها من أشكال الموت . المرأة المسيحية مدعوة لا أن تندمج فى هذا المجتمع على علاّته وتشاكله وتخدم أغراضه ، بل أن تستخدم من أجل تحريره وخلاصه تلك الموهبة التى تلقتها من الله ، أى إستعدادها الخاص للحب والمشاركة ، ذلك الإستعداد المسجل فى تكوينها والذى يحفزه ويغذيه الإيمان .

ينبغى لها بالتالى أن تسعى إلى خلق مناخ جديد يساعد على تعديل المناخ الإجتماعى السائد وتلطيفه وتحويله شيئاً فشيئاً نحو ما يخدم أغراض الحياة

ومقاصد الله ، مطلق الحياة وراعيها .هذا ما ينبغي أن يبدأ من الأسرة نفسها حيث يمكن للمرأة المسيحية أن تلعب دوراً كبيراً في إشاعة جو من المشاركة الحميمة يكون على نقيض أجواء مجتمع الإستهلاك وينفض عن الأسرة رواسبه ويحوّلها إلى بؤرة تغيير لهذا المجتمع . فمثلاً ، عوض أن تدفع المرأة زوجها إلى مزيد من الإستهلاك ، وأن تندفع هى نفسها فى سياق التحصيل من أجل تأمين هذا المزيد ، بحيث يحول إرهاقها وإرهاق زوجها وما يحملانه من هم تسديد الأقساط ، دون تفرّغهما أحدهما للآخر وتفرغ كليهما لأولادهما وللحياة العائلية ، بدل ذلك كله الذى يؤذى الأسرة ويؤذى عبرها المجتمع بأسره الذى تعتبر الأسرة خُليّة له ، ينبغى للمرأة المسيحية الواعية أن تكون المذكرة أبداً بأولوية تلك الحياة العائلية وأولوية العلاقات الحميمة بين أفراد الأسرة على سائر إعتبارات الرفاهية ومستوى المعيشة والوجاهة والظهور ، كالمفاخرة مثلاً بأزيائها وأثاث بيتها . وعوض أن تنقاد إلى إستهلاك محموم لصور التلفزيون والفيديو التى كثيراً ما تستأثر بالحياة العائلية إلى حد تحويل الإجتماعات العائلية إلى تواجد عزلات متراكمة ، يُطلب منها بنوع خاص أن تسهر على سلامة العلاقات وحيويتها ضمن الأسرة .

الخاتمة

هكذا فإن المرأة ، التى هى بصورة أخص ضحية لمجتمع الإستهلاك ، مدعوة ، بإيمانها الواعى ، أن تنطلق من هذه المعاناة متخذة منها حافزاً لها للعمل على تحرير ذاتها وتحرير الرجل على حد سواء وعلى تطوير المجتمع بحيث يغدو أكثر إنسانية .

ثالثاً : كيف يمكن للمرأة الحركية أن تكون خميرة المجتمع؟*

لابدَّ للمرأة الحركية ، إذا ما شاءت أن تكون خميرة فى المجتمع ، أن تكوّن نفسها أولاً كخميرة . والخميرة هى من العجين وفيه ولكنها قادرة على تحويله بفضل ما تحمله فى ذاتها من طاقة التخمير . كذلك فالمرأة الحركية هى من المجتمع وفيه ، إنما ينبغى لها ، لكى تصبح فاعلة فى تغييره ، أن تعي أولاً أصالتها المسيحية والإنسانية وأن تسعى إلى تحقيقها فعلاً . فإذا ما تم ذلك – وهو بالحقيقة صيرورة مستمره لا أمراً يصبح ناجزاً فى وقت من الأوقات – تصبح هذه المرأة تلقائياً ،عبر حضورها ومواقفها وأعمالها ، خميرة تجدد فى المحيط الذى تتواجد فيه .

١ – أن تكتشف أصالتها وتسعى إلى تحقيقها

قلنا بأن المقتضى أولاً من المرأة الحركية ، حتى تصبح خميرة فى محيطها الإجتماعى ، أن تكتشف أصالتها المسيحية والإنسانية وتسعى إلى تحقيقها بالفعل . مما يقودنا إلى توضيح هذين الوجهين للأصالة :

أ– أصالتها المسيحية

ولنبدأ بالأصالة المسييحة . فالمرأة « الحركية » ليست سوى مسيحية وعت هويتها بكل أبعادها ومتطلباتها واستلهمت من هذه الهوية مواقفها

* بحث هذا الموضوع فى إجتماع لـ « ندوة الثلاثاء » عُقد فى ١٩٨٥/٢/١٩

ملاحظة : السؤال يتناول المرأة « الحركية » لأنه إنما طُرح فى أوساط « حركة الشبيبة الأرثوذكسية » ، وهى حركة نهضوية انطلقت سنة ١٩٤٢ بغية السعى إلى تجديد الكنيسة الأرثوذكسية الأنطاكية عبر العودة إلى أصالة تراثها . ولكن السؤال برأيى ينطبق على كل امرأة انتسبت إلى تيار نهضوى فعلاً ضمن أية جماعة كنسية أو دينية أو حتى ضمن أية فئة إجتماعية أو سياسية . وبالتالى فإن ما سوف يُقال هنا قد يُستلهم لمواقع أخرى مع مراعاة الفوارق والخصوصيات .

وتصرفاتها . مما يعني تجاوز الدين التقليدى بما فيه من عبارات مجترّة وشعائر أُفرغت من معناها العميق وروحها وسلوكٍ مفروضٍ يقتصر على التقيد بما هو متعارف عليه من تمييز بين « الحلال » و« الحرام » ، وتخطى كل ما يفرزه هذا الدين التقليدى من جمود وملل وقرف وتمرّد خفيّ إلى اكتشاف شخصى لله عبر معاشرة يسوع المسيح واختباره حياً ومحيياً ، مما يعطى الوجود كله طعماً وغاية ومعنى ويلهم العقل والقلب والخيال ويوقظ فى الكيان طاقات غير متوقعة .

إن الضغوطات التى يمارسها المجتمع وتربيته على المرأة قد تحكم عليها بأن تكون مقلّدة فى الدين كما فى سواه من المجالات ، وبأن تتأرجح فيه ، بالتالى ، بين الإمتثال والتمرد . المرأة الحركية عليها أن تكتشف بالمسيح ملء قامتها وأن تعرف أنها ، فى عائلة المسيح ، راشدة لا قاصرة ، مدعوة كالرجل تماماً إلى حرية أبناء الله :

« ... ليس ذكر وأنثى ... » (غلاطية ٣: ٢٨)

وإلى علاقة محبة وأُلفة مع الله لا إلى إنقياد عبودىّ للنواميس والشعائر :

« لا أدعوكم عبيداً (...) بل أدعوكم أحبائى ... » (يوحنا ١٥: ١٥)

هذا ما يلقى ضوءاً ، على ما أعتقد ، على علاقة الفتاة الحركية بالدين ،كما تلاحَظ فى الفرق الحركية ، وعلى ما يكتنف هذه العلاقة من تعثر وصعوبات تكشف بأن العديد من الفتيات الحركيات لا يزلن متورطات بقيود التدين التقليدى ولم يُتح لهن بعد اكتشاف ذلك الإيمان الحىّ الذى يخاطب الحياة فى العمق فتنطلق به من عقالاتها ، وتضع فى خدمته بالمقابل ما لديها من طاقات ، وتتفجّر به فرحاً والتزاماً والهاماً وإبداعاً :

« أما أنا فقد جئت لتحيا الخراف ، وتفيض فيها الحياة . »

(يوحنا ١٠:١٠)

ب - أصالتها الإنسانية

أما الأصالة الإنسانية التي ينبغي للمرأة الحركية أن تعيها أيضاً في ذاتها ، فهي لا تنفصل عن الأصالة المسيحية . فبالمسيح ، الإله - الإنسان ، اكتشفنا أن الله وحده إنسانيّ حقاً (فالإنسان الراهن مهدد بالنزوع إلى اللاإنسانية) وأن الإنسان الإنسان هو الإنسان « المتأله » أي المتقبل في ذاته حياة الله التي بها وحدها تنجو إنسانيته من الإنحراف وتحقق ملء قامتها وكامل معناها . فالمسيح إنما أتى ليعيدنا إلى حقيقتنا الإنسانية العميقة ، إلى أصالتنا التي تحجبها الخطيئة ، فردية كانت هذه (تتجلى بالإنقياد إلى المخاوف والأهواء) أو اجتماعية (تتجلى بكل أشكال التسلط والإستلاب والإستغلال والإستعباد المسجلة في الهيكليات والعلاقات التي تسود المجتمعات البشرية وتفسدها) . إن اكتشاف المرأة الحركية لأصالتها المسيحية واكتشافها لأصالتها الإنسانية يسيران معاً إذاً ويتساندان .

على الصعيد الإنساني ، ينبغي للمرأة الحركية أن تعي ، على ضوء إيمانها وخبرتها الإنسانية معاً ، أمرين متكاملين :

* أولاً : إنها إنسان بكل ما في الكلمة من معنى ، أي أنها غير محصورة في وظائفها البيولوجية كأنثى ومنجبة ، بل إنها مدعوة إلى تحقيق كامل إنسانيتها في هذه الوظائف وفي ما عداها من الأدوار والمهمات ، أي أنها ليست مجرد جسد يتناسل وينجب بل إنها عقل وقلب وإرادة ورغبة وطموح ، مدعوة إلى المشاركة الكاملة في المشروع الإنساني ، مشروع بناء المجتمع والحضارة وتطويرهما بلا إنقطاع ، ومدعوة ، عبر ذلك كله ، إلى المساهمة في الورشة التي أطلقها المسيح في التاريخ ، ورشة تجديد الأرض وإرساء معالم ملكوت الله فيها إلى أن يكمله الله في نهاية الأزمنة .

* ثانياً : إنها كامرأة تمثل نمطاً متمايزاً وفريداً من الإنسانية ، لا من حيث الأدوار الجامدة التى فرضها الرجل عليها وحاول أن يأسرها ضمن حدودها (كدور التبعية والخضوع والهامشية الإجتماعية) ليحقق من جراء ذلك مآربه فى الإستئثار والتسلط ، إنما من حيث الأسلوب الأنثوى الفريد فى التعامل ، الذى هو أقل عدوانية من أسلوب الرجل وأكثر تفهماً وتعاطفاً والذى هو أكثر إهتماماً بالأشخاص منه بالأفكار والأشياء وأكثر حرصاً على إحتضان الحياة وصيانتها ورعايتها منه على تأكيد الذات فردياً وجماعياً والإمتداد فى الكون وتحويله ، وأقرب إلى إدراك الظواهر من الداخل بالحدس والتعاطف والتماهى منه إلى تحليلها بالعقل المجرد ، وأقرب إلى التأمل والحياة الداخلية (« وكانت أمه – مريم – تحفظ كل شيء فى قلبها » : لوقا ٢: ٥١) منه إلى الإنجازات الخارجية . إن هذا الأسلوب الأنثوى – الذى لابد وأن يتخذ أشكالاً وتعابير مختلفة بإختلاف الأشخاص والحضارات – عنصر لابد من حضوره بكثافة فى المشروع الإنسانى كى يتسنى لهذا المشروع أن يتوازن ويكتمل .

٢ – بالعودة إلى هذه الأصالة تصبح خميرة فى المجتمع

فإذا ما عادت المرأة الحركية إلى أصالتها المسيحية والإنسانية ، استطاعت أن تكون خميرة فى المجتمع ، إذ يمكنها حينذاك أن تساهم فى إرساء علاقات إنسانية جديدة فى مختلف مجالات الحياة .

أ– فهى ترسى علاقات جديدة بين الرجال والنساء

يمكن للمرأة الحركية المتجددة أن تدعو – بكلامها وسلوكها – إلى إقامة علاقة بالرجال تتحاشى المرأة فيها بآن معاً :

أ – التبعية والإنقياد والدونية

ب – الموقف السلبى الرافض للرجال والحاقد عليهم

ج – التقليد الأعمى لكل ما يفعلون (وهو تبعية معكوسة)

د – الهروب من تبعية إلى تبعية أخرى : مثلاً أن تهرب من القيود التي يفرضها عليها تزمت الرجال إلى الإباحية التى يفرضها عليها رجال آخرون يريدونها سلعة فى سوق الشهوة . علماً بأن كلاً من الفئتين تخاف الأنوثة ضمناً فتعالج الأولى خوفها بالتضييق على المرأة وتكبيلها بأغلال التقاليد (ولكنها ، بالمقابل ، تحرص على « هيبتها » و« حرمتها ») ، أما الثانية فأبرع فى معالجة الخوف وأدهى لأنها تحاول القضاء على ما تتوجسه فى المرأة من خطر بتقزيمها وتشييئها وتحويلها إلى دمية فاخرة .

ب – وهي تبني علاقات جديدة ضمن الأسرة

كذلك يمكنها – بكلامها وقدوتها – أن تدعو إلى إقامة علاقة جديدة ضمن الأسرة ، إن بين الزوجة والزوج أو بين الأم والأولاد :

ب-١ فى العلاقة بين الزوجين

ففي العلاقة الزوجية ، لا تكون المرأة مجرد « خادمة بدون أجرة » أو أداة يستخدمها الرجل ليحقق رغبته فى التناسل والإنجاب ، بل تكون شريكة للرجل بكل ما فى الكلمة من معنى . والشركة هذه لا تقوم إلا بين كائنين متساويين يتعاطفان ويتداخلان على كل الأصعدة من عاطفي وجسدي وفكري وروحي ، ويتعاونان فى كل شىء ، بما فيه فى الأعمال المنزلية التى لا يجوز إلقاء تبعتها على الزوجة وحدها إذا ما أحبت هذه أن تعمل فى الخارج أو إذا اضطرتها الظروف المادية إلى ذلك ، بحيث تتحمل فى هذه الحال عبء يوم عمل مزدوج يرهق جسدها وأعصابها .[٣٣] هذا النوع من العلاقة حري وحده بأن يحقق كرامة المرأة وسعادتها ، كما أنه وبالمقابل ،

قادر وحده على أسعاد الرجل وتحقيق ملء إنسانيته عبر تواصله مع ندّ له يختلف عنه ويتجاوب معه بآن .

ب-٢ في علاقة الأم بالأولاد

من جهة أخرى ، فإن المرأة المتحررة ، التى أتيح لها أن تحقق إنسانيتها فى علاقة سليمة بزوجها وبالمجتمع ، لاتجد حاجة لديها إلى اعتبار أولادها رمزاً حياً وتجسيداً لعبوديتها ودونيتها ، وبالتالى إلى الإنتقام منهم بشكل خفيّ أو سافر . كما أنها لا تحتاج إلى التعويض عن حرمانها الإجتماعى وإحباطها الزوجى عبر علاقة بالأولاد تتسم إما بممارسة تسلط ساحق عليهم ، وإما بتكبيلهم بحب آسر خانق .(٣٤) إن ما هى حاصلة عليه من حرية وانشراح يمكنّها من ممارسة أمومة صافية ومحيية ، تحضن الأولاد ولا تقيدهم ، تسعدهم ولا تؤذيهم . المرأة المتحررة - التى ينبغى للمرأة الحركية أن تكون من روادها - قادرة وحدها أن تحب أولادها لا من أجل ذاتها بل من أجل أنفسهم وأن تطلقهم أحراراً فى رحاب الحياة .

جـ - وهى تبشر بعلاقات سليمة بين مختلف الفئات الإجتماعية

أخيراً فإن المرأة الحركية ، إذا عادت إلى أصالتها ، يمكنها - بدل ان تنقاد إلى عصبيات الرجال وتشنجاتهم وأحقادهم كما هى الحال عندما لا تفكر « من رأسها » ولا تتخذ مواقف نابعة من قناعاتها الذاتية ، إنما تكتفى بأن تلبس ما يفصله لها مجتمع يسوده الرجال لابل تضخمه بإنفعالات أججّها فيها استبعادها عن التفكير المسؤول - قلت إنه يمكن لتلك المرأة المتجددة أن تساهم ، بكلامها ومثالها ، فى إقامة علاقات من نوع جديد بين مختلف الفئات الإجتماعية ، علاقات ما أحوجنا إليها فى بلد يعانى أشد المعاناة*

* كُتب ذلك سنة ١٩٨٥

خطراً ودموية وتدميراً من جراء العصبيات الفئوية المنغلقة المتشنجة وتناحر الطوائف وتسابقها على الهيمنة والتسلط وتهافتها العدوانى على تأكيد الذات .
إن المرأة المتحررة يمكنها أن تستمد من أسلوبها الأنثوى الفريد ما يساعدها على إشاعة مناخ مختلف بالكلية وعلى إحلال :

- إحترام الحياة واحتضانها ورعايتها بدل الإنسياق إلى نزوات العنف والقتل والتدمير .
- التفاهم والتعاطف مع الآخر بدل الرفض المسعور لاختلافه والسعى المتشنج إلى تأكيد الذات على حسابه .
- تجاوز الصراع الأيديولوجى إلى إكتشاف الآخر كإنسان بغض النظر عن إنتماءاته الإجتماعية ومعتقداته وإلى تفهم إنسانيته من الداخل بما فيها من تطلعات ومعاناة وآلام وآمال .

فيا أيتها الأخت الحركية ، أين أنت من هذه الرؤيا ؟ وأين نحن من مساعدتك على تحقيق الدور الذى يدعوك إليه الرب وينتظره الناس منك إشراقة نور ونسمة خلاص ؟

رابعاً : كيف يمكن للمرأة أن تتحرر من التبعية ؟

« كيف يمكن للمرأة أن تتحرر من التبعية و (أن تتوصل إلى) عدم معاملتها كقاصرة ؟ »*

تحرر المرأة من التبعية مرتبط بعدة شروط . فهو يفترض أولاً أن لا تستجيب للصورة المسبقة التي يرسمها عنها المجتمع والتي تحجب رؤية إمكانياتها الحقيقية . كما يفترض أن ترفض كل تعويض رخيص يلهيها عن المواجهة الجدية لما تعاني منه من إستلاب . أخيراً فإن هذا الرفض ينبغي له أن يقترن بجهاد فعلي تخوضه المرأة في سبيل إعتراف المجتمع بكامل إنسانيتها . هذا ما سوف نفصله في ما يلي :

١- أن لا تستجيب للصورة المسبقة التي يرسمها عنها المجتمع

إن أول الشروط وأساسها هو أن لا تستجيب المرأة للصورة التبخيسية التي يرسمها عنها مسبقاً مجتمع يسوده الرجال منذ حوالى ستة آلاف سنة ، والتي تكبل المرأة بأكثر فاعلية من القيود الخارجية المفروضة عليها . ذلك لأنها قيد داخلي يحول دون رؤية المرأة لحقيقة إمكانياتها ويغريها بالرضوخ لدونية تتوهم أنها قدرها المحتوم . من هنا أنه لا بدّ لنا أولاً من كشف مضامين هذه الصورة على أن نفضح بعد ذلك زيفها .

أ – مضامين هذه الصورة

فإذا ما تأملنا في مضامين هذه الصورة التي يلقنها المجتمع للمرأة منذ نعومة أظفارها عن طريق التربية البيتية ، رأينا أنها تتألف من سمات تدّعي تحديد « طبيعة » المرأة ، نذكر في ما يلي بعضها :

---

* بُحث هذا الموضوع في إجتماع لـ « ندوة الثلاثاء » عُقد في ١٩٨٥/٤/٥ .

أ – أن المرأة « ضعيفة » (« الجنس الضعيف » ، كما يقال) . (فى حين أن الخبرة تثبت أن المرأة أكثر إحتمالاً من الرجل للشدائد)* .

ب – إنها إنفعالية « بطبيعتها » . (وكأن الرجل عقلانى ، فى حين أن تاريخه – ذلك الذى قال عنه شكسبير أنه أشبه ما يكون بـ « قصة كتبها معتوه ، مليئة بالضجيج والغضب » – حافل بالمظالم والتقاتل والدمار نتيجة لانفعالات الأهواء ، وفى حين أن وضع عالم اليوم ، بما اتسم به لفترة طويلة من سباق محموم وانتحاري على التسلح ، وبما لا يزال يتسم به من تدمير للبيئة ومن نهب للعالم الثالث وتجويعه لا يوحى بالعقلانية مطلقاً !) .

ج – أن شؤون الفكر ليست ميدانها .

د – أن لا رأى لها يُعتد به فى الأمور الهامة ، خاصة إذا كانت تتناول المجتمع وسياسته .

هـ – إنها « بنصف عقل » وتتصرف بشكل غير مسؤول .

و – إنها « بطبيعتها » ثرثارة تكثر الكلام بدون فائدة ولا تؤتَمن على سرّ .

ز – إنها أصل الشرور : « فتش عن المرأة » ، كما يقولون إذا ما شاؤوا أن يعللوا جريمة أو مصيبة (وكأن الرجل ، المفترضة به العقلانية ، غير مسؤول عن الانسياق وراء أهوائه ، بل إن المسؤولية كلها أو جلّها تقع على المرأة التى كانت موضوع هذه الأهواء).

---

* فى فترة إعداد هذا الكتاب ، أواخر ١٩٩٠ ، كان يراودنا هذا النقيض الصارخ لأسطورة ضعف المرأة ، الذى تجلى فى مأثرة هزت الرأى العام إلى حد أنها إستأثرت بالعناوين الكبرى فى الصحف الباريسية . وهى مأثرة الفرنسية فلورانس أرتو التى شاركت فى سباق بحرى عبر المحيط وبقيت لوحدها على متن مركبها طيلة ١٤ يوماً وتعطل جهازها اللاسكى وعانت من نزيف وغيبوبة وعالجت نفسها بنفسها ووصلت إلى الفوادلوب متقدمة بكثير على المتافس الذى تلاها .

ح – إنها « بطبيعتها » تابعة ، غير مؤهلة للقيادة ، سواء فى البيت أو خارجه ،وأنه ينبغى للرجل أن يبسط عليها سلطة قاسية لئلا تتمادى فى نزواتها المؤذية .

ط – إنه « من الطبيعى » أن تتركز معظم إهتماماتها على الزينة والتبرج والأزياء .

إلى ما هنالك من صفات مماثلة .

وكنموذج عن هذه الصورة نورد بعض مضامين التراث الشعبى اللبنانى بهذا الصدد .

من الأمثال السائدَة التى اهتم سلام الراسي بجمعها والمعبّرة عن المواقف الشعبية التقليدية وما تتضمنه من إنتقاص للمرأة واحتقار لها ، نذكر في ما يلي هذه « الدوَر » التى تنعكس فيها بعض الأحكام عن « طبيعة » المرأة ، المذكورة أعلاه :

- « المرا كلّ ما بهدلتها حبتك وكل ما دللتها سبّتك » (مما يفترض فى المرأة نزعة ماسوشيّة متأصلة : ك .ب .)
- « المرا متل السجادة ما بتنضف إلا بالخبيط . »
- « البيت اللّى ربّو مرا كلمادا لوَرَا » .
- « ما بيسمع للمرا إلا كل خ ... »
- « المرا إسمها حرمه لأن الله حرمها من العقل »
- « المرا مثل المعزايه إن تركتها على هواها أكلت الأخضر واليابس » .[٣٥]

وفى كتاب آخر يقول نفس الكاتب :

« آخر مثل سمعته ، فى هذا الموضوع ، أورده قائله ، فى إحدى المناسبات ، بكل عفوية ، كأنه إحدى الآيات ، قال :

« الفلاّح ، إن مات إبنو ، بارَت أرضو . وإن ماتت بنتو ، انستر عرضو ! »(٣٦)

وفى قصة الكاتب اللبنانى الراحل يوسف عواد ، وهى بعنوان « توها » (وهى كلمة تُطلق على البنت على سبيل السخرية) يورد المؤلف حديثا جرى بين سليمان درّه ، وهو مفتش فى الشرطة فى المنتصف الأول فى هذا القرن و « قبضاى » قديم ، مع زميل له ، يعبّر فيه الأول عن قلقه من أن تضع زوجته ، التى أوشكت على الولادة ، بنتاً ، فيقول له الزميل ، وهو معتز بصبيانه الثلاثة :

« ... أتعرف ماذا يقول المثل ؟ المثل قال ، لا أنا ولا أنت : لعن الله البنت ! البنت مصيبة فى بيت أهلها ، ومصيبة عند زوجها ، ومصيبة إذا تزوجت ، ومصيبتان إذا لم تتزوج ! »(٣٧)

قد تصدمنا اليوم فظاظة هذه الأحكام . إنما يجدر بنا أن نتساءل مخلصين إذا كنا قد تخطيناها فعلاً أو أنها لا تزال مختبئة فى دواخلنا وراء طلاء خداع من « الحداثة » ، تتحكم بمشاعرنا ودوافعنا ومواقعنا وإن كانت مستبعدة عن أفكارنا الواعية وتعابيرنا الكلامية .

ب – زيف هذه الصورة

هذه الصورة التبخيسية ، ينبغى للمرأة ، إذا شاءت أن تتحرر ، أن تقف منها – رغم ترسيخ التربية لها فى ذهنها ورغم ترددها فى أقوال الناس وممارساتهم – موقفاً نقدياً ، بحيث تعى أن هذه السمات المنسوبة إلى « طبيعة » المرأة ، إنما هى ، من جهة ، من باب انتقاص المتسلطين المعروف لمن يسودون عليهم ، وأنها ، حتى إذا ما تحققت على أرض الواقع ، لا تأتى نتيجة لـ « طبيعة » المرأة بل حصيلة للدور الإجتماعى المفروض عليها .

ب-١ إنها من باب انتقاص المتسلطين لمن يسودون عليهم

فالصورة هذه هي من باب المزاعم التي يختلقها أبداً المتسلطون ليبرروا تسلطهم على الفئات التي يستغلونها سواء كانت هذه طبقات محرومة أو شعوباً مستعمرة أو نساء أو أحداثاً . ويذكر الفيلسوف والمحلل النفسي إريك فروم إنه ، منذ قرن ، في جنوب الولايات المتحدة ، كان ينظر إلى النساء والزنوج نظرة متشابهة ، بحيث كانت تشبّه هذه الفئة وتلك بالأولاد ، ويُعتبر أفراد هذه وتلك انفعاليين وساذجين وغير واقعيين وغير جديرين بالثقة من حيث قدرتهم على تحمل المسؤوليات .(٣٨)

ولكن أدهى ما في الأمر أن الفئة المستضعَفة تتبنى فى كثير من الأحوال ، فى غالبيتها ، نظرة المتسلطين إليها ، فتبخّس ذاتها كما يبخّسونها ، مما يسمح لهم بترسيخ تسلطهم وتخليده ، وكأنهم اتخذوا من معنويات الذين يسودونهم حلفاء لهم وشركاء . فمثلاً يروّج المستعمِرون للفكرة القائلة بأن الشعب الذي يستعمرونه غير جدير بأن يحكم نفسه . فيتبنى المستعمَرون هذه النظرة إليهم ويرتضون القصور صورة لهم ويتصرفون بموجبه ، مما يخلّد حكم المستعمِر لهم . هذا أيضاً ما نراه فى مواقف العديد من النساء : فإنهن يفضلن مثلاً أن يرأسهن رجل لا امرأة فى عملهن لأنهن يَتبنّين نظرة الرجال إليهن بأنهنّ غير أهل للقيادة .

لقد أجرت الباحثة النفسية الإجتماعية آن - ماري روشبلاف - سبنلي دراسة ميدانية عن صورة الذكورة والأنوثة الشائعة فى المجتمع الغربى . استندت في دراستها هذه إلى عينتين من طلاب الجامعات فى ألمانيا وفرنسا . ففوجئت بأن الصورة التى استخلصتها ، رغم كونها صادرة عن نساء ورجال على حد سواء ،كانت ترفع قيمة الرجل فى حين أنها كانت تبخّس المرأة : فقد نسبت للمرأة ثمانية عيوب وخصلتين حميدتين ، فى حين أنها نسبت

للرجل أحد عشرة خصلة حميدة وعيباً واحداً . وعندما دقّقت الباحثة فى الأمر بانكبابها على دراسة أجوبة النساء على حدة وكذلك أجوبة الرجال ، وجدت أن النساء يقسين بالحكم على أنفسهن أكثر مما يقسو عليهن الرجال أنفسهم ، بشأن تحديد العيوب . هكذا تبين أنه ، رغم تطور المجتمع الغربى ، فالمرأة لا تزال فيه تنظر إلى نفسها بموجب نظرة الرجل إليها ، وإنها لا تنتظر من نفسها ما تنتظره من الرجل .(٣٩)

وهذا الموقف عينه تثبته دراسة ميدانية أجريت سنة ١٩٥٤ فى إحدى الجامعات الأمريكية . فقد طُرح على طلابها السؤال التالى : لو أنك تعرف إنك لن تنجب سوى ولد واحد ، فهل تفضل أن يكون صبياً أو بنتاً ؟ فأجاب ٩١٪ من الرجال أنهم يفضلون صبياً ، ولكن ٦٦٪ من النساء أعطين الجواب نفسه .(٤٠)

نفس الموقف تؤكده تجربة أجراها الباحث غولدبرغ سنة ١٩٦٨(٤١) . وهى مذكورة فى كتاب الأخصائى النفسى المصرى الدكتور عبدالستار إبراهيم : الإنسان وعلم النفس . يقول هذا الكاتب :

« المرأة تنظر إلى نفسها على أنها أقل ذكاء من الرجل ، ربما كتحقيق للتوقعات الإجتماعية التى تراها كذلك . ففى إحدى التجارب سأل أحد الباحثين مجموعة من الطالبات الجامعيات بأن يبدين رأيهن فى عدد من المقالات من حيث المحتوى والأسلوب والقيمة العلمية ، وقد راعى أن يكتب أسماء مستعارة من الذكور على أنهم كتبوا تلك المقالات . وطلب من مجموعة أخرى متكافئة من الطلاب أن يقيّموا نفس هذه المقالات ولكن بعد وضع أسماء مستعارة من الكتاب النساء . بعبارة أخرى فإن المقالات التى عُرضت للتقييم فى المجموعتين كانت واحدة إلا أن الإختلاف كان فى جنس الكاتب . وقد بينت النتائج أن الطالبات أعطين تقييمات إيجابية للمقالات المكتوبة من الذكور أكثر من المقالات المكتوبة من النساء . بعبارة أخرى ، فإن

المرأة قد تعلمت أن ترى الشيء الذى تفعله إمرأة مثلها أقل أهمية مما يفعله الرجل محققة بذلك التوقعات الإجتماعية السائدة عنها بأنها أقل أهمية وشأناً من الرجل ».[٤٢]

ب-٢ إنها حصيلة الدور الإجتماعي المفروض على المرأة

هذا ولا يتغير شيء من جوهر ما سبق وقلناه إذا كانت تلك السمات التبخيسية تتحقق للأسف ، فى كثير من الأحوال ، أو يتحقق بعضها ،فى واقع المرأة ، مما يتخذه أنصار انتقاصها حجة لتبرير ذلك الإنتقاص . ذلك لأن ما يعتبرونه سبباً لتبخيسهم للنساء إنما هو بالحقيقة نتيجة لهذا التبخيس . فالسمات التى أتينا على ذكرها ، فى حال تحققها فى وجود المرأة الفعلى ، إنما تأتى ، إلى حد بعيد ،حصيلة للتبعية والهامشية اللتين تعانى المرأة منهما فى مجتمع لا يتيح لها فرصة تحقيق ملء طاقاتها الإنسانية . إنها وليدة وضع المرأة المجحف ولكنها ليست من « طبيعتها » بشيء . نكرر أنها نتائج إذلال المرأة ولكنها ليست سبباً لهذا الإذلال أو مدعاة لتبريره .

معروف اليوم أن السمات المعتبرة ذكورية أو أنثوية ليست وليدة التكوين البيولوجى بقدر ما هى وليدة تحديد المجتمع للدور الذى يتوقعه من كل الجنسين . وبما أن المجتمع يتحكم به الرجال فى كل الأحوال تقريباً فقد نسبوا لأنفسهم فيه أدوار الإقتدار والحكم واعتبروا بالتالى أن القدرة والقيادة والذكاء إنما هى سمات ذكورية ، فى حين أنهم اعتبروا الدونية والخضوع سمات أنثوية . ويتبنى المحيط العائلى هذه المقاييس فيربي أطفال الجنسين بموجبها بحيث يتمرس الطفل الذكر منذ نعومة أظفاره على السلوك وفق الدور المرسوم له وكذلك الطفلة الأنثى . هكذا يحققان بفعل التربية وتأثيرها ما توقعه المجتمع من سمات لكل منهما بحيث تصبح هذه السمات فى كل منهما جزءاً لا يتجزأ من كيانه وكأنها وليدة « طبيعته » نفسها مما يرسّخ الإعتقاد

بأن ما هو بالأصل توزيع إجتماعي للأدوار إنما هو نابع من « الطبيعة » نفسها ، ويمنح المجتمع بالتالي مبرر الإستمرار في ذلك التوزيع المجحف .(٤٣)

وإن لخير دليل على أن هذه السمات « الذكورية » و« الأنثوية » هي ، بشكل أساسيّ ، وليدة التوقعات الإجتماعية ، ما نلاحظه من تطور صورة الذكورة والأنوثة في المجتمع الواحد عبر الزمن ، واختلافها من مجتمع إلى آخر في الحقبة الزمنية نفسها . هذا ما بيّنته بشكل دامغ الباحثة الإجتماعية الكبيرة الأميركية مرجريت ميد في دراستها المقارنة الشهيرة لثلاثة مجتمعات « بدائية » متجاورة في غينيا الجديدة ، حيث أبرزت أن المفاهيم المرسومة عن الذكورة والأنوثة تختلف بالكلية من عشيرة أرابيش إلى عشيرة موندوغدمور إلى عشيرة تشامبولي . ومن الأمثلة التي قدمتها هذه الباحثة ، في المقدمة التي كتبتها لهذه الدراسة ، عن نسبية السمات الجنسية واختلافها مع طبيعة المجتمعات ، ما يلي :

« في إحدى قبائل الفيليبين ، من المتفق عليه أن ليس من رجل قادر على الإحتفاظ بسر . وعند المانوس ، يُفترض أن الرجال وحدهم يحبون أن يلاعبوا الأطفال . أما التودا فيعتبرون أن الأعمال المنزلية هي من القدسية بحيث لا يجوز إسنادها إلى النساء . في حين أن الآرابيش مقتنعون بأن رأس النساء (أي عقلهنّ : ك .ب .) أقوى من رأس الرجال . »(٤٤)

من هذا المنطلق ، صار بإمكاننا ، إذا ما عدنا إلى السمات التبخيسية الملصقة بالمرأة والتي أوردنا قائمة منها أعلاه ، أن ندرك كيف إنها ، إلى حد بعيد ، وليدة الدور الاجتماعي المفروض على المرأة وليست قدراً مسجلاً في طبيعتها . واليكم بعض الأمثلة :

أ - إن ما يقال عن « انفعالية » المرأة عائد إلى حد بعيد إلى العجز الذي يحكم به عليها المجتمع . فمن لا حول له ولا طول لا يجد لنفسه مخرجاً من الأزمات سوى الإنفعال .

ب – كذلك ما يقال عن تصرفها غير المسؤول عائد ، إذا ما صحّ ، إلى كونها لم تدرّب ، بفعلِ ما حُكم عليها به من تبعية ، على الإضطلاع بالمسؤولية بل اعتادت أن تُستبَعد عن مواقع المواجهة المسؤولة وأن يتخذ سواها عنها القرار .

وأقدم على ذلك المثل التالي : كثير من الفتيات ، في مجتمعاتنا الشرقية ، يمنعن من كل اختلاط بالجنس الآخر بحجة حمايتهن من الفساد . لابل إنه لا يُسمح لهن بالإطلاع على كل ما يمتّ إلى الجنس بصلة ولو كان مرجعاً رصيناً وشريفاً هو أبعد ما يكون عن الإثارة الرخيصة . والأدهى من ذلك أنه لا يجاز لهن بالخوض فى أى موضوع على جانب من الأهمية وإبداء الرأى فيه ، لأن الأهل يعتقدون ، كما ذكرت إحدى الفتيات ، « أن البنت الرصينة يجب أن تكتفى بالسكوت والإستماع فقط لتنال إحترام الناس » .(٤٥) فإذا ما سنح لإحدى هؤلاء الفتيات أن تغافل الرقابة المتزمتة هذه ، المسلطة عليها ، وأقبلت على علاقة عاطفية وتصرفت فيها بنزق وتهور ، فهل يجوز أن يقال ، والحالة هذه ، بأنها ، بهذا التصرف ، برهنت عن غياب لحسّ المسؤولية ملازم لطبيعتها كإمرأة ، وبأنها قدمت بالتالى التبرير لما كان يمارس عليها من رقابة بالغة التشدد ؟ أم أن التفسير الأقرب إلى الحقيقة والمنطق هو أن تلك التربية المتزمتة الخانقة التى كانت أسيرة لها هى التى حالت بالواقع دون تنمية مداركها وشخصيتها وروح المبادرة فيها ، وهى التى عطلت نشوء القدرة لديها على إتخاذ الموقف الواعى المسؤول ؟(٤٦)

ج – أما القول بضعف قدرتها العقلية ، فهو لا يصحّ إلا على قدر ما تُحجب عن المرأة فرص تنمية مداركها . والحال أن الموقع الذى يُحدّد للمرأة فى المجتمع – دون أن يكون لها رأى بذلك – كثيراً ما يعطّل عليها هذه الفرصة . ومن عوامل هذا التعطيل حرمان المرأة من الإندماج الحقيقى فى

الحياة الإجتماعية وإبقائها على هامشها ، من جهة ، وتقليل فرص التعليم أمامها إذا ما قيست بالفرص المتاحة للذكر ، من جهة أخرى .

● فعن تهميش المرأة وما يحدثه من تضييق لآفاقها العقلية والروحية ، كتب سلامة موسى سنة ١٩٤٧ ، واصفاً الوضع الذى كان سائداً فى مصر فى ذلك الحين ومقارناً إياه بالوضع فى اوروبا :

« ... تنشأ الفتاة وهى محجمة متراجعة تلتزم الصمت والسكون والإستحياء والتراجع كأنما هذه خطة حياتها أو هى الإعتذار عن حياتها . فلا تحيا الحياة المليئة ولا تزدان برشاقة الإيماءة ولباقة الكلمة ولا تستطلع ولا تدرس ولا تخطىء ولا تجرؤ ، ولذلك تخسر كثيراً من جمالها الروحى ،هذا الجمال الذى لا يعوض عنه جمال الجسم الذى يبدو عندئذ راكداً جامداً (...)

نساء أوربا يعملن وينتجن ويختلطن . وهن بهذا السلوك يتكملن وينضجن . فالمرأة تبدو هناك وهى فى الثلاثين إنساناً قد جرّب وعرف ، وأخطأ وأصاب واستطلع ودرس . فى حين أن المرأة عندنا تكون فى هذه السن قد التزمت البيت وارتضت حدوده وجدرانه فحددت بذلك أمداء عقلها ونشاط روحها وسجنت مواهبها وعطلت ضميرها » .[٤٧]

● أما من حيث فرص التعليم [٤٨] ، فالأمية ، المنتشرة فى العالم الثالث كوجه من وجوه البؤس الذى يفرضه عليه ظلم النظام الإقتصادى العالمى ، تشمل النساء بشكل خاص ، وهن اللواتى يحملن ، فى البلاد المتخلفة ،عبئاً مزدوجاً ،عبء التخلف من جهة وعبء التمييز المجحف بينهن وبين الرجال من جهة ثانية .وقد ذكر الدكتور شكرى نجار بهذا الصدد :

« وفى الجانب الثقافى (...) ظهر أن المرأة أكثر تخلفاً من الرجل من حيث التعليم . ففى أفريقيا نجد أن حوالى ٩٠٪ من النساء أميّات لا

يعرفن القراءة ولا الكتابة. ثم تنخفض هذه النسبة بحيث تصل إلى ٦٠٪ فى آسيا . ثم الى ٣٢٪ فى أميركا اللاتينية . »(٤٩)

وهذا ما ينطبق أيضاً على العالم العربى . فقد ورد فى مقال كُتب سنة ١٩٨٠ :

« إن نسبة الأمية فى الوطن العربى تبلغ ٦٧٪ بالنسبة إلى الذكور و٩٥٪ بالنسبة إلى الإناث ... »(٥٠)

وفى لبنان نفسه ، الأكثر تقدماً من سواه من البلاد العربية فى هذه الناحية ، نجد مع ذلك حسبما ورد فى الدليل الإحصائى السنوى للأونيسكو لعام ١٩٨١ ، أن نسبة الأمية بين الإناث (٣٢٪) تبلغ ضعفى نسبتها عند الذكور (١٥٪)(٥١)

ولكن التمييز بين الجنسين يلاحق المرأة حتى إذا ما نجت من الأمية . وقد سبق لى أن كتبت بهذا الصدد فى كتابى « تعليم الفتاة وآفاق المرأة »:

« .. قد ترسل البنت إلى المدرسة وتتجاوز الأمية ، ولكن الأسرة والمجتمع يُشعرانها بأن هاجس التعليم ثانوى فى حياتها لأنها معدّة أصلاً ، وقبل كل شيء آخر ، للزواج والأمومة ، فلا يلقى تحصيلها المدرسى من محيطها نفس الإهتمام والتشجيع اللذين يلقاهما تحصيل الذكر . وهذا ما ينعكس على طموحها فى هذا المضمار ، لذا فكثيراً ما تقبل بالإنقطاع عن الدراسة (هذا إن لم تُرغم عليه) بعد بلوغها مستوى محدود فى التحصيل ، ونادراً ما تجد فى نفسها الحافز الضرورى لمتابعة دراسات عليا .

وقد عبّرت فتاة مصرية عن هذا الوضع بقولها :

« أهلى يجعلوني أفكّر فى غير الدراسة لرغبتهم الشديدة فى تزويجى »(٥٢)

والأدهى مما سبق ذكره هو إن هذا التدنّي فى طموحات البنت الدراسية ، الذى يعكس نظرة المجتمع إليها وما ينتظره منها ، يؤثر حتى على مستوى

ذكائها الذى قد يتقهقر بسبب فقدان الحافز إلى تغذيته وتوفر الفرص لاستخدامه ، كما أثبتت بعض الدراسات ، فيكون تأخر العديد من النساء فى هذا المضمار ، لا سبباً يبرّر عدم مساواتهن بالرجل فى التعليم – كما يدّعي الكثيرون – بل نتيجة لعدم المساواة هذه ».(٥٣)

إن هذه الإعاقة التى يلحقها المجتمع بتحصيل المرأة الدراسى ، وبالتالى ينمو ذكائها ، ظاهرة إن فى المجتمع العربى أو حتى فى المجتمع الغربى .

ففى المجتمع العربى ، بينت دراسة للدكتور عزت حجازى أن المرأة ، منذ طفولتها ، تفهم ، من تحديد الأسرة لمعنى الذكورة والأنوثة ، أنها إنما خُلقت لدورين محددين هما الزوجية والأمومة .

« ومن ثم فإن نسبة من يلتحقن من الإناث بالمدارس ومعاهد التعليم العالى أقلّ بكثير من نظيرتها عند الذكور ، ونسبة التسرّب من التعليم – أى التوقف عن استكماله – أعلى عند الإناث منها عند الذكور ، وهى ترتفع كلما تقدمن فى مستوى التعليم . »(٥٤)

ولنأخذ تونس مثلاً على ذلك . ففى هذا البلد

« صحيح أن نسبة إقبال الإناث على التعليم قد نمت كثيراً ، إلا أن عدد الصبيان يبلغ ضعفى عدد البنات فى المدارس ، ويبلغ أربعة أضعاف عددهن فى الجامعات . »(٥٥)

أما بشأن لبنان ، فإن الدكتور جليل شكور يذكر ما ورد فى بحث جان – بيار فالين عن المجتمع اللبنانى ، وهو بحث صدر سنة ١٩٦٩ . فقد كتب هذا الباحث(٥٦) .

« إن الأهل فى المناطق اللبنانية المتخلفة يدفعون بناتهم للتعلّم والحصول على الشهادة الإبتدائية فقط لتعزيز فرص الزواج » .(٥٧) كما أن د . شكور يذكر ما يشير إليه بحث آخر أكثر حداثة (صدر سنة ١٩٨٤) ، أجراه

الدكتور جوزيف أنطون على المجتمع اللبناني وفيه يشير [٥٨] « إلى أن وجود الإناث فى المدرسة هو أقل من وجود الذكور وبالأخص فى المراحل المتوسطة والثانوية والجامعية كما أن نسبة ترك الدراسة هى أكثر عند الإناث منها عند الذكور وفى خلال كل مراحل التعليم . »[٥٩]

ويلاحظ د . عزت حجازى أنه ، نتيجة لهذا الإنتقاص من فرص التعليم المتوفرة للفتاة فى العالم العربى ،

« تضيع على الفتاة فرص تنمية قدراتها الحقيقية وتفجير إمكانياتها ، بل إن ذكاء بعض الإناث يتوقف عن النمو فى سن مبكرة ، بالنظر إلى فقر تجاربهن وضعف حماسهن واعتقادهن بأن الأنثى تعيش بجسدها . وأن المهم أن تعرف كيف تستعمله للإثارة ... »[٦٠]

أما فى العالم الغربى ، فالشقّ يضيق نسبياً بين فرص تعليم الذكور وفرص تعليم الإناث ، ولكنه لا يزال قائماً لصالح الذكور .

يقول أحد الباحثين الفرنسيين بهذا الصدد أن المجتمع يولي اليوم أهمية أكبر بكثير مما قبل ٥٠ عاماً ، لتعليم الفتاة ، ولكن الأُسَر لا تزال ، بوجه عام ، تقلق لفشل الصبى فى المدرسة أكثر مما يقلقها فشل البنت . ذلك لأن الأهل يرون أن الموقع الإجتماعى المستقبلى للصبى رهن بوضعه المهنى ومرتبط بالتالى إلى حد بعيد بنجاحه المدرسى ، فى حين أن البنت ، ولو لم تتعلم شيئاً ، فبوسعها أن تضمن بالزواج مستقبلها .[٦١]

وفى الولايات المتحدة ، أثبتت دراسات ميدانية ضخامة نسبة الفتيات الموهوبات اللواتى ينقطعن عن الدراسة . ففى مجموعة تابعها الأخصائى النفسى الأمريكى الشهير ترمان Terman ما بين ١٩٢١ – ١٩٢٢ و ١٩٥٩ ، وقد شملت ٧٠٠ إمرأة موهوبة ، وجد هذا الباحث أن قليلات جداً منهن تجاوزن نهاية المرحلة الثانوية ، أما الباقيات فقد استأثر بهن الزواج والحياة الإجتماعية . وقد لاحظ ترمان ظاهرة ، لابد من ربطها بالظاهرة السابقة ،

وهى أنه بينما يحتفظ الموهوبون الذكور بقدراتهم فى فترتى المراهقة والرشد ، فإن النساء يخسرنها إلى حد بعيد وتظهر الروائز فى هذه الحال أنهن تقهقرن إلى درجة متوسطة من الذكاء .(٦٢)

هكذا تحجم العديد من الفتيات فى الغرب عن متابعة دراستهن وصولاً إلى أعلى المستويات ، لابل تعانين من إنخفاض فى قدراتهن العقلية . والظاهرتان ، اللتان ولابدّ تترابطان فيما بينهما وتغذي إحداهما الأخرى ، لا يمكن فكّهما على الأرجح عن إحساس هؤلاء الفتيات بأن المجتمع لا يرغب فى مواهبهن العقلية لأنه رسم لهن طريقاً لا تحتاج كثيراً برأيه إلى هذه المواهب . هذا ما يضعف لديهن الحافز إلى إستخدامها ، وإلى شحذها بالدراسة وسائر ميادين الخبرة والإستطلاع . وقد وجد الأخصائى النفسى فيرنون Vernon (١٩٦٩) ما يشبه الظاهرة التى نحن بصددها . عندما قام بدراسة ميدانية عن هنود أميركا الشمالية . فقد وجد أن « الذين يدرسون من هؤلاء ، وهم قلة نادرة ،يبدون قدرات عقلية طبيعية تماماً حتى المراهقة حيث يحدث لديهم نكوص مفاجىء مرده أن الشباب يتحققون فى ذلك الحين أن لا مكان لهم فى المجتمع الأميركى . »(٦٣)(٦٤)

ومما يجعل المرء أشد أسفاً لما يتسبب به تثبيط المجتمع لطموح النساء العقلى وتحويلهن عن تحقيق هذا الطموح عبر متابعة الدراسة ، هو ما لدينا من دراسات تثبت أن الفتيات ، فى عدة بلدان متقدمة ، يتفوقن على الفتيان فى مراحل التعليم الإبتدائى والمتوسط والثانوى .

ففى دراسة ميدانية أجرتها الأخصائية النفسية الفرنسية بيانكا زازّو على تلامذة الصف الأخير من المرحلة الإبتدائية والصف الأول من المرحلة المتوسطة ، المتراوحة أعمارهم ين ١٠ و ١٣ سنة ، وجدت أن معدل نجاح الفتيات فى الدروس يفوق معدل نجاح الفتيان الذين يعادلوهن من حيث مستوى الذكاء ومن حيث مستوى البيئة الإجتماعي والثقافى .(٦٥) وقد وجدت هذه الباحثة أن سبب تفوق البنات الدراسىّ هذا يعود إلى كونهن يمتلكن

قسطاً أكبر مما يمتلكه الجنس الآخر من الصفات الضرورية لرفع مستوى المردود الدراسيّ ، من استقرار وتركيز وضبط للنفس وما شابه ذلك .[٦٦]

هذا وقد لوحظ « أن الفتيات الفرنسيات يحصلن فى الامتحانات على نتائج أفضل من نتائج الفتيان »[٦٧] وأن نسبة نجاح البنات الفرنسيات فى البكالوريا أكبر من نسبة نجاح الصبيان .[٦٨]

وفى مقال لها نُشر سنة ١٩٨٨ فى مجلة « العلم والحياة » الفرنسية ، تعود بيانكا زازّو إلى هذا الموضوع لتؤكد بأنه

« فى كل مستويات التعليم (المدرسى) ، وفى حال تعادل البيئة الإجتماعية ، فإن البنات يتفوقن فى الدراسة على الصبيان . إن نسبة أقلّ منهنّ تعيد الصفوف فى المدرسة الابتدائية . من هنا بلوغهن الصف الأول المتوسط فى سن أبكر ، وإتجاههن بنسبة أكبر إلى المرحلة الأطول من التعليم الثانوى وحصولهن على البكالوريا فى سن أبكر . إن تفوقهن ملاحظ اليوم ليس فى فرنسا وحسب ،إنما فى بلدان أخرى تقدم نفس إمكانيات التعليم لأولاد الجنسين (مثلاً : الولايات المتحدة والسويد) . »

وتعود هذه الباحثة فتكرر أن سبب هذا التفوق إنما هو عائد لما تتميز به الفتيات من قدرة أكبر على ضبط النفس وعلى التركيز ، تلك التى تبيّنها الروائز ويشير إليها المدرسون ، الذين يصفون البنات بأنهن أكثر انتباهاً واستقراراً أثناء الأعمال المدرسية ، وهى صفات تسمح للفتيات بتوظيف أفضل لمواهبهن العقلية ، بحيث يحتاج الصبى لينال نفس النتيجة التى تنالها البنت فى التحصيل الدراسىّ ، إلى أن يكون سابقاً لها بمعدل سنة من حيث الذكاء .[٦٩]

المرأة لا تخلو إذاً لا من طاقات عقلية ولا من قدرة متميزة على توظيف هذه الطاقات فى التحصيل العلمىّ . المهم أن يفتح لها المجتمع أبواب هذا التحصيل على مصراعيها وأن يشجعها فعلاً على الإنخراط فيه ، متخطية

سور التوقعات التقليدية التى تأسرها فى دور محدود مرسوم لها مسبقاً .وإن لنا ، فى ما حصل فى بلد من العالم الثالث كالجزائر ، مثل على ما يمكن أن يحدثه فتح باب التعليم واسعاً أمام النساء من أثر إيجابيّ فى تحررهنّ من القيود التى تكبّل عقولهن وشخصياتهن . فقد حقق إنتشار التعليم فى هذا البلد بين النساء منذ منتصف السبعينات قفزات كمية ملحوظة . ففى التعليم الإبتدائى ، إزدادت نسبة البنات من ٢٨,١٪ سنة ١٩٧٥ إلى ٣٤,٨٪ سنة ١٩٧٩ وإلى ٤١,٤٪ سنة ١٩٨٤ . أما فى التعليم العالى ، فقد قفزت هذه النسبة من ٢٣٪ سنة ١٩٧٥ إلى ٣٤٪ سنة ١٩٨٤ . وقد أحدث هذا الإقبال النسائي المتزايد على التعليم تحولاً بنيوياً فى العلاقة بين الجنسين . وانطلقت النساء بأعداد متزايدة إلى ميدان العمل وتبوأن مراكز المسؤولية والقيادة . وقد أصبح بينهن عدد غفير من المدرّسات ولم تعد النساء القضاة والمحاميات والطبيبات قلة نادرة .(٧٠)

د – وإذا ما قيل أن المرأة مأخوذة بالزينة والتبرج ، فإن ذلك يعود إلى حد بعيد إلى كون المجتمع يوهمها بأن قيمتها تنحصر فى جسدها . لذا فهى تتهالك على إبراز هذا الجسد معتقدة أنه قيمتها الوحيدة ، لأن هذا ما قد صُوّر لها ولُقّنته منذ مطلع حياتها . لذا نرى النساء الغربيات أقل اهتماماً ، على وجه العموم ، بالزينة والتبرج ، من نساء بلادنا ، لأنهن وجدن مجالاً لتأكيد قيمتهن فى ميادين أخرى فتحت لهن .

٢ – أن ترفض كل تعويض رخيص يلهيها عن المواجهة

فإذا ما وعت المرأة زيف الصورة المجحفة المرسومة مسبقاً عنها ، وأدركت أنها نتيجة موقع الدونية المفروض عليها فى المجتمع وسبب لتخليد هذا الموقع بآن ، يترتب عليها أن ترفض التعويضات الرخيصة التى من شأنها أن تلهيها عن الإستلاب الذى تعاني منه ، وأن تغريها بالتأقلم معه ، وأن تحوّلها من مهمة مواجهته بجذرية وإقدام .

هذا يعنى :

أ – أن لا تؤخذ بالإعجاب بجسدها

لأنها إذا ما اكتفت بالإعجاب الذى يثيره مظهرها الجسدي ، غاب عنها ما يخفيه هذا الإعجاب فى كثير من الأحوال من إستهتار بفكرها ورأيها ، وفق المثل الفرنسى القائل Sois belle et tais-toi(كونى جميلة وأسكتى) ، وتتلهى عن تنمية شخصيتها وكيانها ، وتستجيب هكذا لما ينتظره الرجل منها بأن تكون ، فى الأساس ، موجودة لأجله ، لأجل راحته ورفاهيته (ما يعبّر عنه الوصف الشهير للمرأة على أنها « راحة المحارب ») ، أى أن تكون ، فى لغة سيمون دي بوفوار ،« الجنس الثانى » ، ذاك الذي لا يُنظر إليه إلا بالإضافة إلى « الجنس الأول » ، والذى لا مبرر لوجوده سوى إشباع حاجات هذا الجنس المحورى وأغراضه .

ب – أن لا تنخدع بحرية زائفة

من جهة أخرى يترتب على المرأة أن لا تنخدع بما يزينه لها مجتمع الإستهلاك من « حرية » زائفة هى بالحقيقة إنتقال من عبودية إلى عبودية أدهى ، كون هذه الأخيرة تتلبس زوراً مظاهر الانعتاق فى حين أنها بالحقيقة ، تمعن فى تشييء المرأة وتسخيرها لإثارة شهوة الرجال .

جـ – أن لا تنقاد إلى مظاهر الترف

مطلوب منها أيضاً أن لاتنقاد إلى ما يغريها به مجتمع الاستهلاك من مظاهر الترف والوجاهة التى تلهيها عن إثراء شخصيتها وتنمية قيمتها الإنسانية ، وتجعل منها « عارضة وجاهة » حسب تعبير الدكتور مصطفى حجازى[٧١] ،

يستخدمها الرجل (وقد يكون أباها أو أخاها أو زوجها) لتثبيت مركزه الإجتماعى كما يفعل عندما يعرض سيارته الفاخرة أو أثاث بيته النفيس .

د – أن لا تؤخذ بمفهوم سطحى لـ « الأنوثة »

ثم إن المرأة الواعية هى تلك التى لا تستجيب لما يحاولون إيهامها به ، من أنها ، إذا ما اهتمت بتنمية شخصيتها (بالثقافة ، بالالتزام الإجتماعى ، إلخ ...) ، فإنها بذلك « تفقد أنوثتها » ، وكأن الأنوثة كامنة فى المظاهر الجسدية ليس إلا ، فى حين أن جاذبية المرأة تزداد ولا شك إذا ما أضافت إلى الإعتناء المعقول بجسدها وهندامها ، غنى العقل وجمال النفس وتوثّب الفكر وقوة الشخصية . فى مقال نُشر فى مجلة « العلم والحياة » الفرنسية ، بعنوان « النساء فى العلم » ، يستعرض الكاتب أعمال العديد من النساء الفرنسيات المجليات فى سائر فروع علوم الطبيعة . ويتوقف عند باحثة شابة بدت له فى مختبرها ، بشعرها المجعّد وثوبها المُزهِر ونبرتها الضاحكة ، فيما كانت تقدم له أعمالها التجريبية عن بعض أنواع الحيوانات البحرية كالسرطان ، وهى أعمال كانت تُعد من خلالها أطروحة تعدّ من أهم الأبحاث التى قامت حول إفرازات الغدد الصماء عند فصيلة القشريات . مما يحدو بكاتب المقال إلى التأكيد بأن

« العلم لا يجفف نضارة النساء . بل إنما النساء يضفين صبغة إنسانية على المختبر الذى يعملن فيه . »(٧٢)

هـ – أن تصون نفسها من العلاقة الآسرة بأولادها

أخيراً ينبغى للمرأة أن تعى مخاطر التعويض عما يصيبها من إحباط ، عن طريق ممارسة التسلط على أولادها أو تقييدهم بحبّ آسر خانق وحماية مفرطة ، مدركة أن هذا السلوك أو ذاك إنما هو مجرد تنفيس لا يحلّ مشكلة المرأة ولكنه ، بالمقابل ، يعود على أولادها بالأذى الفادح ويعطل

نموّهم وقد يوقظ فى نفوسهم نقمة ونفوراً من شأنهما أن يسمّما حياتهم وحياة والدتهم على حد سواء .

٣- أن تجاهد فى سبيل اعتراف المجتمع بكامل إنسانيتها

فإذا ما انتصرت المرأة على تجربة التعويض الرخيص عن تبخيسها ونجت من الدخول فى لعبة المجتمع الإستهلاكى الذى يبرع فى إضفاء مظهر برّاق على هذا الإنتقاص ، استطاعت أن تنطلق فى جهاد من أجل إحقاق كرامتها والحصول على اعتراف المجتمع بكامل إنسانيتها . وهذا يعنى :

أ - أن تعتمد على مبادرتها

أى أن لا تنتظر أن يمنحها المجتمع حقوقها الإنسانية من تلقاء ذاته ، و« على طبق من فضة » كما يقال . فالتاريخ يثبت أن الحقوق تنتزع إنتزاعاً ، وأن ما من فئة محرومة تحررت بدون نضال .

ب - أن لا تناضل وحدها

بل تندرج فى كفاح جماعيّ تخوضه مع بنات جنسها كتفاً إلى كتف ، كفاح ينقذها من عزلتها ويسمح لها بالتآزر والتعاضد وتبادل الخبرات والتشجيع ، مع سواها ممن يخضن النضال عينه ، ويسمح لجهادها بأن يكون أشدّ وقعاً وأكثر فعالية فى المجتمع .

جـ - أن تستفيد من خبرة سواها

أى من خبرات النضال النسائى فى العالم ، وهى اليوم كثيرة .[٧٣] إنما مع الحرص على مراعاة فرادة أوضاع البلد الذى تعيش فيه ، بكافة ظروفه الإجتماعية والتاريخية والحضارية .

د – أن لا تتلهى بمعارك هامشية

مطلوب أيضاً أن لا تترك المجال لإلهائها عن نضالها فى سبيل تحقيق كرامتها ، بمعارك هامشية كتلك التى توحيها العصبيات الطائفية مثلاً .ذلك أن كل مجتمع ظالم يبرع فى تحويل نقمة المغبونين فيه عن هدفها الحقيقى بحيث يُضرب المحرومون بعضهم ببعض ، كما جرى ويجري بالنسبة للبيض الفقراء حيال السود فى الولايات المتحدة ، وكما جرى ويجري بالنسبة لفقراء بلدنا الذين أقحموا فى التقاتل الطائفى فى ما بينهم . مما يؤول إلى تثبيت سلطة المتنفذين المستفيدين من الأوضاع الجائرة أو إلى إستبدالهم بسواهم ممن يسلكون النهج عينه . محزن أن نرى النساء فى بلدنا أكثر تحمساً وتشنجاً (« أشدَّ العشرة » كما نقول شعبياً) ، فى كثير من الأحيان ، من الرجال ، من حيث التعصب الطائفى (بالضبط بسبب ما يعانين منه من إحباط ينفّس عنه على هذا المنوال) ، بينما المفروض أن تتعاون نساء من الطوائف كلها فى نضال واحد ضد الهيمنة التى يعانين منها فى كل الطوائف (وإن بأشكال مختلفة) ، فيعود ذلك بالخير لا على قضيتهنّ فحسب بل على البلد بأكمله . لأن مكافحة الهيمنة فى ميدان واحد بالغ الحساسية ، ألا وهو علاقة الرجل بالمرأة فى كل طائفة ، من شأنها أن تنعكس إيجابياً على علاقات الطوائف بعضها ببعض ، فتخفف من حدة التنافس فيما بينها على الهيمنة والسؤود . فإذا إتخذت النساء من نضالهن ضد هيمنة الرجال عليهنّ منطلقاً لرفض مبدأ الهيمنة نفسه فى كل المجالات ، كان لهنّ ، كما يوضح إريك فروم ، دور هام فى النضال من أجل مجتمع متجدد .(٧٤)

هـ – أن تدرك أن المسيرة طويلة

ثم لابد للمرأة التى قررت التزام خط النضال ضد التبعية المفروضة عليها ، أن تدرك أن المسيرة طويلة. فتحرير المرأة ، على أهمية إنطلاقه فى هذا القرن ،

لا يزال ، كما يقول إريك فروم ، فى أول الطريق .(٧٥) ذلك لأن هناك قوالب فكرية ونفسية قد رسختها قرون من الحكم الذكورى ولا تكفى الإرادة وحدها ، حتى إذا اقترنت بنصوص تشريعية ، لتغييرها . فالرجل قد تعود أن يربط بين تصوره لرجولته من جهة وهيمنته على المرأة من جهة أخرى ، بحيث أن كل تراجع لهذه الهيمنة يبدو له ، ولو على صعيد اللاوعى ، إنتقاصاً لرجولته . من هنا أن على المرأة أن تجمع ، إلى صلابة نضالها وإصراره واستمراريته ، الحكمة والإتزان ، فلا تسمح لنفسها بالإنقياد وراء العدوان حيال الرجل - كما هى الحال فى بعض الحركات النسائية المعاصرة - لأن هذا العدوان من شأنه أن يوقظ لدى الرجل الخوف الدفين من المرأة الكامن فى أعماقه ، وأن يدفعه بالتالى إلى مزيد من التشبث بهيمنة يحتمى بها من هذا الخوف .

و - أن يكون أفق نضالها تحرير الجنسين معاً

هذا وإن مما يساعد المرأة على تخطى الموقف العدوانى الذى من شأنه ، كما قلنا ، أن يرتد سلباً على قضيتها ، إنما هو إدراكها بأن هدف نضالها ليس إستبدال هيمنة بهيمنة (إذ أن كل هيمنة إنما هى إنتقاص لإنسانية صاحبها وضحيتها على حد سواء) ، بل تحرير المرأة والرجل كليهما . فالرجل ، كما بينت الباحثة جرمان تيلليون ، إنما هو أيضاً ، من حيث هو ولد وزوج وأب ، ضحية للنظام المجحف الذى يحكم على المرأة بالإنتقاص والدونية ، مع أنه يبدو فى الظاهر مستفيداً من هذا النظام . أما تحرر المرأة من إستلابها ، فإن نتائجه لا تقتصر على السماح لها بتحقيق إنسانيتها كاملة ، بل إنه يؤول أيضاً لصالح الرجل ، إذ أن هذا يتحرر به من هيمنته التى تعطل وتحدّ وتبتر وتقزّم وتشوه وتوزّم علاقته بالمرأة وبالتالى علاقته بنفسه ،فينتقل من التقوقع ، الذى يكتفي بموجبه بتسخير المرأة ، من الخارج ، لأغراضه ، وكأنها شىء

أو أداة ، إلى مشاركة وتواصل يسمحان بتفاعل وتداخل حقيقيين بين إنسانيته وإنسانيتها الفريدتين ، بحيث يصبح كل منهما للآخر « عوناً * » على تحقيق إنسانيته في خط خصوصية جنسه .

* راجع تكوين ٢: ١٨

حواشى الفصل الثالث

١ – Cité par Jacques VAN RILLAER : L'Agressivité humaine, Ed. Dessart et Mardaga, Bruxelles, 1975, pp. 178-179.

٢ – Pièrre DACO : Comprendre les femmes ... et leur psychologie profonde, op. cit., p. 311.

٣ – Cf les recherches de MAC GUINNES et PILGRIM, citées pa G. TORDJMAN ; La violence, le sexe ... et l'amour, R. laffont, Paris, 1979, pp. 20-22 et 213-214.

٤ – مذكور فى : شكرى نجار : ظاهرة إنتقاص المرأة ، ص ٧١–٧٢، « الفكر العربى »، السنة الثانية ، العددان ١٧–١٨، أيلول – كانون الأول ١٩٨٠، ص ٦٨–٨٢.

٥ – Cf Ada ABRAHAM : Le dessin d'une personne, Delashann et Niestlé, Neuchâtel - Paris, 1962, p. 178.

٦ – Héiene DEUTSCH : La Psychologie des femmes (The Psychology of Women, New York, 7th ed., 1942), traduit par le Dr Hubret BENOIT (1949), t. 1, Enfanse et Adolescence, P.U.F, Paris, 3e ed., 1959, p. 273.

٧ – راجع :

* فريدا حداد : شموسية النساء فى تراث الكنيسة الشرقية ، مجلس كنائس الشرق الأوسط ، برنامج المرأة ، ١٩٨٣ ، بيروت .

*" La Place de la femme dans l'Eglise Orthodoxe et la question de l'ordination des femmes" Conclusions du Congrés théologique interorthodoxe (Rhodes, 30 Octobre - 7 novembre 1988), par. 32 à 36 in "Contacts", no 146, op. cit., pp. 105-106.

* Evangélos THÉODOROU: L'institution des diaconesses dans l'Eglise Orthodoxe et la possiblité de sa rénovation, "Contacts", no 146, op. cit., pp. 124-144 .

٨ – راجع

* Karl STERN : Refus de la femme, Mame, 1969, p. 275.

* Marléne LIEST : L'enfant et Dieu, Desclée, 1970, p. 16.

٩ – Cf Olivier CLÉMENT : Questions sur l'Homme, op. cit, pp. 114-115.

١٠ – Cf Elisabeth BEHR- SIGEL : " La femme aussi est à l'image de Dieu" (Saint Basile de Césareé), pp. 66-69, "Contacts", Paris, 35e année, no 121, ler trimestre 1983, pp. 62-70.

ولنتأمل على سبيل المثل هذا المقطع من العظة السابعة والثلاثين لغريغوريوس اللاهوتى (النزينزى) يحتج به على تشريع عصره بحق المرأة :

« لماذا تعامل النساء بقساوة بينما يسمح بكل شيىء للرجال ؟ المرأة التى تسربل رجلها بالعار تُعدّ زانية والقانون يدينها بقساوة، أما الرجل الذى يخدع إمرأته فلا يحاسب . أنا لا أُوافق على هذا التشريع ولا أُرضى عن هذه العادات . المشرعون هم الرجال ولذلك ينصبون قوانينهم ضد المرأة ».

مذكور فى : إيما غريب خورى : المرأة بين حواء ومريم، مرجع مذكور، ص ٢٠٢ .

١١ – Cf Pierre DACO : Comprendre les femmes ... et leur psychologie profonde, op.cit., pp. 69-72.

١٢ – Cf louis EVELY: Oser parler. Desir et peur de communiquer, Le Centurion, Paris, 1982, p.68.

١٣ – راجع كوستى بندلى : الإيمان ومجتمع الإستهلاك، منشورات النور، بيروت، ١٩٨٢

١٤ – راجع : د. مصطفى حجازى : التخلف الإجتماعى مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور ، الطبعة الثانية، معهد الإنماء العربى، بيروت، ١٩٨٠، ص ١٣٨-١٣٩ .

١٥ – راجع مثلا :

* Dr. André BERGE: La sexualité aujourd'hui, Casterman, 1970, pp. 101-102 .

* Marie-Thérése VAN EECKHOUT: Nos enfants devant la sexualité, Casterman, 1966, pp. 147-148.

* Dr. Marthe RISVIER : Les Filles aujourd'hui, Casterman, Paris-Tournai, 1974. pp. 153-154.

* Nancy FRIDAY : Ma Mére, mon miroir (My mother, my self, New York, 1977), traduit de l'américain par théo CARLIER (1975), R.Laffont, Paris, 1980 p. 242.

١٦ – راجع : كوستى بندلى : الجنس ومعناه الإنسانى، منشورات النور، بيروت، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٥ .

١٧ – راجع :

* د. نوال السعداوى : الوجه العارى للمرأة العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٧، ص ١٧١-١٧٢، ص ٢٠٠-٢٠٢، ص ٢٠٤.

* د. نوال السعداوى : المرأة والصراع النفسى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٧ ، ص ٦٩ .

١٨ – راجع كوستى بندلى : نضال عنفى أو لا عنفى لإحقاق العدالة ؟ منشورات النور، بيروت ١٩٨٨ .

١٩ – Cf Günter GRASS : Le Turbot (Der Butt, 1977) Traduit de l'allemand par Jean AMSLER 1975 Coll. " Points-Roman " , Seuil, Paris, 1981, pp. 510-511.

٢٠ – Pierre DACO : Comprendre les femmes ... et leur psychologie profonde, op. cit, p. 45.

٢١ - Manuela SEMIDEI : Les contestataires aux Etats-Unis, Serie "Documents", Casterman, Paris- Tournai, 1973, p. 87.

٢٢ - op. cit., pp. 140-141.

٢٣ - Cf Sylvie KERVIEL : Situation du Féminisme. Le pouvoir en partage, p. 29, "Le Monde Diplomatique", 35e année, no 411, Juin 1988, p. 29.

٢٤ - Danielle LE BRICQUIR : La paix, Les femmes : presses Universitaires de Grenoble, 1987, cité in Sylvie KERVIEL : art. cit., p. 29

٢٥ - يتصدى المفكر لويس افلى لمفهوم بغيض للتكامل بين الرجل والمرأة. ساهم برأيه فى ترسيخ كل من الجنسين فى نقائصه، ملقيا على الجنس الآخر تبعة التعويض عنها بخصال مضادة . يقول :

« وكأن بعض الفضائل الإنسانية وقف على النساء ومحرّمه على الرجال، والعكس بالعكس ! وكأن كل جنس محروم نهائيا أو معفى من أن يكون إنسانياً بكل ما فى ذلك من معنى ! أحرى بنا أن نتمنى أن يصبح الرجال رقيقين ومحترمين للحياة ومتحسسين للجمال وأن تصبح كل النساء قويات، خلاّقات ، جريئات ، مستقلات. »

Louis Evely: Oser parler. Desir peur de communiquer, op. cit., p. 66

ويوضح شارل مولر معنى هذا « التكامل » الذى كثيرا ما يساء فهمه فيقول :

« ... إن نمط الوجود الذكوريّ ونمط الوجود الأنثوى متكاملان ، ليس بين الجنسين وحسب، إنما داخل كل من الجنسين (...)

إن الشخصيات العظيمة تشهد لهذ « الوجود الثنائى » (أى وجود ذى قطبين : ذكورى و أنثوى : ك.ب.) إذ أنك تجد فيها القدرة على تأكيد الذات، والجرأة، والنشاط الذى لا يكمل فى المجتمع، والقوة المؤثرة التى تقلب العوائق « وتخترع » حلولاً، إنما أيضاً الحنان الخفيّ ، الرقة ، الانتباه

إلى الآخرين ، عبر حضور يمنحهم شعورا بأنهم وحدهم فى الكون وبأنهم يستأهلون عطاء كليا ... »

Charles MŒLLER: Simone de Beauvoir et la "situation" de la femme, p. 191, in Litterature du xxe siècle et Christianisme, t. v., Amours humaines, Casterman, 1975, pp. 135-200.

بالمعنى نفسه كتب بيار داكو

« ... الأبطال الحقيقيون إنما هم نساء ورجال بآن : رأفة ونضال معاً ... »

Peirre DACO: Comprendre les femmes ... et leur psychologie profonde, op. cit., p. 48.

من جهة أخرى، فإن الدكتور ف.دودسون، وهو أخصائى نفسى ومعالج نفسى أمركى. فى معرض توجيهه الأهل إلى مساعدة كل من أولادهم على تقبل جنسه الخاص، يتحدث عن ضرورة أن يتحاشوا مع ذلك اصطناع تمييز مطلق بين خصائص الجنسين . يقول :

« حسن أن يبقى فى فكرنا أنه ما من ولد ذكوريّ كليا أو أنثوى كليا. وإلا كيف كان بالإمكان التوصل إلى تفاهم متبادل بين الجنسين ؟ علينا أن نتجنب الصور النمطية (أى : الجامدة : ك.ب.) على شاكله : ينبغى للمرء أن يكون قاسيا وعديم الإحساس حتى يكون رجوليا » ، « الصبيان لا يبكون »،« البنات لا يحتجن إلى إعمال الفكر »، إننا نريد أن نجعل من أبنائنا رجالاً قادرين على إبداء صفات « أنثوية » على شاكلة الرأفة وتفهم الآخرين. ونريد أن تصبح الصغيرات نساء أقل امتثالا بقليل وأكثر أصالة وأكثر ميلاً إلى المغامرة وقادرات على إعمال العقل بما لا يقل منطقية عن الرجل.

لهذه الأسباب كلها ينبغى تحاشى التصلب فى صياغة مفهوم السلوك الأنثوى أو الذكورى الذى ننقله إلى أولادنا.

(...) شجعوا أولادكم على التصرف كما ينتظر من جنسهم ولكن لا تكونوا متصلبين أو نمطيين. »

Fitzhugh DODSON: Tout se joue avant six ans (How to parent, 1970), traduit de l'anglais par yvon GEFFRAY (1972), les moevelles Editions Marabout, Verviers, 1980, P. 162.

٢٦ – من هنا أن اللاهوتىّ الأرثوذكسى المعاصر أندريه بورّلى يؤكد كم هو بعيد عن الوجود المسيحى النمط ، كل مجتمع إنسانى يتسم بذكورة أحادية الجانب تتجلى بالفظاظة والقسوة والشراسة الباردة والمنهجية ، على شاكلة ما اتسمت به تاريخيا فى العديد من الأجواء العسكرية من عالم غليوم الثانى إلى عالم الجنرال بينوشه ، وعلى غرار ما اتسمت به الأجواء النازية ومعسكرات الإعتقال الستالينية . برأيه أن الرجل الذى يعرف الوجه الأنثوى لكيانه لابد له أن يتقهقر إلى أدنى من مستوى الإنسان. فهناك بعد أنثوى للكائن الذكر كما أن كل امرأة مدعوة إلى نوع من الرجولة على شاكلة صورة المرأة الشجاعة التى رسمها سفر الأمثال (أمثال ٣٠ : ١٠-٣١) إن الرجل إذا غاب عنه نوع من الأنوثة، يبقى مغلقا حيال سر الوجود. ويذكر الكاتب، من هذا القبيل، مثال زهّاد التراث المسيحى الشرقى، الذين استطاعوا – وهم العازبون بحكم دعوتهم الرهبانية، العائشون فى محيط لم يكن للمرأة فيه من مكان – أن يحققوا فى شخصياتهم الوجه الأنثوى للكائن البشرى، فكان حنانهم مؤشرا لما بلغوه من إتزان عاطفىّ. إذ لولا هذا الحنان، ينحرف البعد الذكورىّ فى الإنسان، فتتحول إنطلاقته التلقائية الغلابة إلى قسوة وعنف وتسلط وتملك. بهذا المعنى قال سفر حكمة يشوع بن سيراخ : « لاتكن كليث فى بيتك » (٤: ٣). ويشير الكاتب إلى أن الزهاد الذين تحدث عنهم إنما كانوا تلامذة يوحنا المعمدان الذى كان عنيفاً على طريقة أنبياء العهد القديم، وعلى غرار إيليا بشكل خاص، إنما كان عنفه، الذى

هذّبه الروح، مُمتزجاً برقة عبر عنها بشكل مؤثر قبل استشهاده بقليل (يوحنا ٣: ٢٩-٣٠) . كذلك كان يسوع « وديعا ومتواضع القلب » ولكنه طرد الباعة والصيارفة من الهيكل بدون مجاملة وسمّى الكتبة والفريسيين حيات وأولاد الأفاعي.

Cf André BORRÉLY: Qui est près de moi est prés du feu, DDB, Paris, 1979, pp. 134-136.

بهذا المعنى يمكن أيضاً أن نفهم المقطع التالى للمطران جورج خضر (الذى قد يؤخذ عليه بعض المبالغة فى التعبير، إذ المؤمن يبقى برأيى ذكراً أو أنثى إنما يتجاوز بالإيمان حدود الذكورة والأنوثة، هذا ما قصده المطران جورج دون ريب) :

« الإنسان المسيحى ليس رجلاً أو إمرأة، إن كان إنجيلى الروح والسلوك فهو فى آن معاً رجل وامرأة. وكما أن الإنسان فى تركيبه البيولوجى، وعلى مستوى تركيبه الطبيعى، يملك خاصيات الذكورة والأنوثة. تغلب أحياناً هذه أو تغلب أحياناً تلك، فالإنسان المؤمن ليس ذكراً ولا أنثى. ولكنه إنسان ... »

المطران جورج خضر : الإنسان المسيحى ليس رجلاً أو امرأة (١٩٧٨)، ص ٩٦ ،فى : المرأة فى الكنيسة والمجتمع فى الشرق الأوسط، مجلس كنائس الشرق الأوسط، لبنان، ١٩٧٩، ص ٩١-٩٦.

٢٧ - Cf Elisabeth BEHR-SIGEL: "La femme aussi est l'image de Dieu" (Saint Basile de Césarée), art, cit.

٢٨ - عن المجتمع الاستهلاكى ، راجع كوستى بندلى : الإيمان والمجتمع الاستهلاكى ، مرجع مذكور.

٢٩ - Cf Marie Françoise HANS et Gilles LAPOQUE: Les Femmes, la pornographie, l'érotisme, Coll. "Points-Actuels", Seuil, Paris, 1980, pp. 389-391.

٣٠ – راجع : الدكتور مصطفى حجازى : التخلف الاجتماعى. مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، معهد الإنماء العربى، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٠، ص ١٣٧–١٣٩.

٣١ – والجدير بالذكر أن الحضارة الإستهلاكية حضارة « فمية »، قوامها نزعة غير ناضجة إلى « إبتلاع العالم كله »، راجع :

Erich FROMM: Avoir ou être ?, R. Laffont, Paris, 1984, p. 45.

٣٢ – Lenardo BOFF: Jesus-Christ Libératuer (1974), Cerf, Paris, 1982, p. 139.

راجع أيضا :

* Gustavo GUTIÉREZ: Theologie de la libération. Perspectives (1971) Ed. Lumen Vitae, Bruxelles, 1974, p. 193, note 12.

* Michel LEGRAIN: Le Corps Humain. Du soupçon à l'évangélisation (1978), Centurion, Paris, 1980, p. 266.

٣٣ – راجع : كوستى بندلى : تعليم الفتاة وآفاق المرأة، منشورات النور، بيروت، ١٩٨٥، ص ١٠١–١٢١.

٣٤ – إن الأخصائى النفسى هوفمان، من جامعة ميشيغان، أجرى دراسة ميدانية سنة ١٩٦٣ استخلص منها أن النساء اللواتى يعاملهن أزواجهن بطريقة ديكتاتورية ينزعن إلى معاملة أولادهن بدورهن بنفس الطريقة، كرد فعل على المعاملة التى يتلقينها.

Cf Rose VINCENT: Counaissance de l'enfant, Coll, Comprendre-Savair-Agir", Centre d'Etude et de Promotion de la Lecture, Paris, 1969, p. 116.

وتقول الكاتبة مارى كاردينال إن روح التملك البغيضة التى تبديها النساء فى علاقاتهن الأسرية والتى تترجم تشبثاً رديئاً بذويهن، إنما هى وسيلة

يعتمدنها لاشعورياً حيال وضع الخضوع والرضوخ المفروض عليهن، يحتمين بها من الشعور بعدمية وجودهن ويحاولن من خلالها أن يضفين معنى على هذا الوجود.

Cf Marie CARDINAL: Autrement dit (1977), "Le livre de Poche" Paris, 1978, p. 81.

أما الباحثة جرمين تيلليون ، فقد بينت أن ذلك نوع من الإستعباد الذى تتعرض له المرأة فى مجتمعات حوض البحر الأبيض المتوسط إنما يتحمل الطفل عبئه المدمرّ، وهو عبر الطفل ، يمد أثره إلى مستقبل هذه المجتمعات، فيشل رقيها وتقدمها.

Cf Germaine TILLION: Le Harem et les Cousins, op. cit, pp. 13-14 et 199-200.

٣٥ – سلام الراسى : فى الزوايا ... خبايا !، مؤسسة نوفل، بيروت، ط٢، ١٩٧٩ ص ٤٦–٤٩.

٣٦ – سلام الراسى : شبح بريخ ، مؤسسة نوفل، بيروت ، ط ٢، ١٩٨٠، ص ٢٢٠.

٣٧ – توفيق يوسف عواد : ، ص ٤٥، فى : قميص الصوف (١٩٣٨) (مجموعة قصص) ص ٤١–٥٦ ، مكتبة لبنان، بيروت ط ٨، ١٩٧٨.

٣٨ – Cf. E. FROMM: Avoir ou Etre ? (To Have or to Be ? New York, 1976) traduit de l'americain par Theo CARLIER (1978), R. Laffont, Paris, 1984, pp. 220-221.

٣٩ – راجع :

* Anne-Marie ROCHENBLAVE-SPANLÉ: Rôle masculin, Rôle féminin, pp. 55-58, in "Le Groupe familial", Paris, no 61, Octobre 1973, pp. 47-58.

* Dr. Jean-G. LEMAIRE: Les conflits conjugaux, les Editions Sociales Françaises, 1967, pp. 26-27.

٤٠ - Cf Anna Oliverio FERRARIS: Les dessins d'enfants et leur signification (Turin, 1973), traduit de l'italien par Marc BAUDOUX, les Nouvelles Editions Marabout, Verviers, 1980, p. 103.

٤١ - P. GOLDBERG: Are Women prejudicd against Women ? Transaction, 1968, 5, 28 - 30.

٤٢ -د. عبدالستار ابراهيم : الإنسان وعلم النفس، « عالم المعرفة »، الكويت،العدد ٨٦، شباط ١٩٨٥، ص ٢٣٤-٢٣٥.

٤٣ - راجع مثلاً :

* Jean DIERKENS: L'amour a 18 ans, Editions Universitaires, Paris, 1970, pp. 30-40.

* Dr. Bernard MULDWORF: L'Adultère, casterman, Tournai-Paris, 1970, PP. 49-55 .

Ernest ELL: De L'Enfant à l'Adulte. Les Etapes de la vie affective et sexuelle, le Centurion, 1971, pp. 114 - 118.

٤٤ - Cf Margaret MEAD: Trois sociétés primitives en Nouvelle-Guinée (sex and Temperament in three primitive societies, 1935), P. x , in Mœurs et sexualité en Océanie, traduit de l'amercain par Georges CHEVASSUS (1963), Plon, Paris, 1973, pp. I à XII et pp. 1 à 289.

٤٥ - كوستي بندلي : خلاف الأهل والأبناء، منشورات النور، بيروت، ١٩٨٢، ص ٧٠-٧١ .

٤٦ - راجع بهذا الصدد :

* كوستي بندلي : خلاف الأهل والأبناء. مرجع مذكور، ص ٦٨-٧٤.

* كوستي بندلي : مع تساؤلات الشباب، منشورات النور، بيروت، ط٣، ١٩٨٥، ص ٨٣-٩٢ .

٤٧ – راجع : سلامه موسى : فن الحب والحياة (١٩٤٧)، مكتبة المعارف، بيروت، ط٤، ١٩٧٨، ص ١٧٢–١٧٣، ص ١٧٥.

٤٨ – راجع : كوستى بندلى : تعليم الفتاة وآفاق المرأة، منشورات النور، بيروت، ١٩٨٥، ص ٨٨–٩٣.

٤٩ – د. شكرى نجار : ظاهرة إنتقاص المرأة ، ص ٦٩، « الفكر العربى » ، العددان ١٧–١٨، أيلول – كانون الأول ١٩٨٠، السنة الثانية، ص ٦٨–٨٢ ، معهد الإنماء العربى، بيروت .

٥٠ – ذكاء الحر : مشكلة ثقافة الأطفال فى عصرنا، ص ٢٤٧، « الفكر العربى » العددان ١٧–١٨ مرجع مذكور ص ٢٣٢–٢٥٦ .

٥١ – Cf Terre des Femmes, op. cit,. pp. 142-145.

٥٢ – د. منيرة حلمى : مشكلات الفتاة المراهقة وحاجاتها الإرشادية (١٩٦٥) ، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٢٠٧ .

٥٣ – كوستى بندلى : تعليم الفتاة وآفاق المرأة، مرجع مذكور، ص ٩٠ .

٥٤ – د. عزت حجازى : الشباب العربى ومشكلاته (١٩٧٨) ، « عالم المعرفة » ، الكويت العدد ٦، طبعة ثانية (منقحة)، شباط ١٩٨٥، ص ٢١٩ .

٥٥ – Cf Salhia ABDELLATIF: Tunisie, Un "Feminisme au maseulin ?" p. 101, Terree des Femmes,. op. cit., pp. 100-102.

٥٦ – J.-P. VALIN: Le Pluralisme Socio-Scolaire au Liban, Beyrouth, Dar El Machreq, 1969, p. 138.

٥٧ – مذكور فى : د. جليل شكور : تمايز توظيفات الذكاء بين الذكور والإناث. هل هو واقع بيولوجى أم هو نتاج المجتمع ، « الثقافة

النفسية » المجلد الأول ، العدد الثالث ، تموز ١٩٩٠، ص ٢٣-٢٤ ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ص ٢٢-٣٣.

٥٨ – Joseph ANTOUN: Problèmes Socio-éducatifs au Liban, Beyrouth Liban, Beyrouth, Liban, 1984, p. 164.

٥٩ – د. جليل شكور : المقال نفسه ، ص ٢٤.

٦٠ – د. عزت حجازى : المرجع المذكور، ص ٢١٩ .

٦١ – Cf Michel GILLY: La schholarisation des débiles mentaux en France, pp. 232-233, in. Reni ZAZZO et Equipe de L'Hôpital Henri Rousselle: Les Débilités mentales (1969), Coll. U. Armand Colin, Paris, 1971, pp. 214-247.

٦٢ – Cf Rémy CHAUVIN: Les Surdoués, Stock, Paris, 1976, pp. 166-167.

٦٣ – المرجع نفسه

٦٤ – يأسف تقرير أعدته لجنة كارنيجى للتعليم العالى فى الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٧٤ لذلك الهدر للطاقات البشرية المتمثل بانخفاض نسبة النساء فى مستويات التعليم العالى من علمى وأدبى فى أمريكا، مما يعنى، بنظر التقرير ، إهمال نسبة كبيرة من مصدر رئيسى للإنتاج ، وهو المصدر المتمثل بالنساء اللواتى يتمتعن بذكاء ممتاز . إذ يلاحظ التقرير المذكور بأنه، بينما تكوّن الفتيات نحو ٥٠,٤٪ من عدد الخريجين من المدارس الثانوية، فإن النساء لا يشكلن سوى نسبة ٢٤٪ من عدد العاملين فى التدريس بالجامعات و ٨,٥٪ فقط من عدد الأساتذة الجامعين المتفرغين. من هنا مطالبة التقرير بإزالة جميع العوائق التى تقف أمام تقدم المرأة فى ميدان التعليم العالى وإتاحة الفرصة أمام النساء للعودة إلى الدراسة الجامعية بعد زواجهن ، ومنحهن أجازات للوضع وتربية أولادهن وغير ذلك من الميزات التى تشجع المرأة المتزوجة على إستئناف دراساتها العليا .

راجع : « العربي » ، الكويت ، العدد ١٨٥ ، نيسان ١٩٧٤، ص ١٠٠-١٠١ .

٦٥- Cf René ZAZZO : Un travail de terrain : filles et garçons de 10 à 13 ans, p. 171 in R. ZAZZO: Où en est la psychologie de l'enfant ?, Ed. Denoël - Gonthier, Paris, 1983, pp. 169-173.

٦٦ - Cf Michéle SALTIEL: Qui réussit le mieux?, p.52, in Christine GARIN et Michèle SALTIEL: Etre bon élève (ènquête), pp. 51-52, "Le Monde de l'Education", no 103, Octobre 1984, pp. 36-59.

٦٧ - Nicole CHEVILLARD: Le progrès technique est-il sexiste? p. 44, in Terre des Femmes, op. cit., pp. 40-47.

٦٨ - Cf Michele SALTIEL: Art. cit., p. 51.

٦٩ - Cf Bianca ZAZZO: Panages delicats, pp. 62-63, in l'Enfant et l'échec scolaire, numéro hors serie trimestriel, "Science et Vie", Paris, no 164, sept. 1988, pp. 54-63.

٧٠ - Cf Abdelkader DJEGHLOUL: La révolution scolaire, "Suplement Algérie", p. 33. "Le Monde Diplomatique" 33e année, no 392, Novembre 1986, p. 33.

٧١ - راجع الدكتور مصطفى حجازى : التخلف الإجتماعي . مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، مرجع مذكور، ص ١٣٧-١٣٩ راجع أيضا المقال السابق في كتابنا .

٧٢ - Cf Georges DUPONT: Les Femmes dans la science , p. 33. "Science et Vie", no 479 août 1957, pp. 32-43.

٧٣ - راجع مثلاً : Terre des Femmes ، مرجع مذكور .

٧٤ - Cf Erich FROMM: Avoir ou Etre?, op. cit., p. 221.

٧٥ - المرجع نفسه، ص ٢٢١ .

ملحق

معاناة المرأة ورجاؤها في رسالة وجواب

- مقدمة
- نص الرسالة
- نص الجواب

مقدمة

وددت أن أختم كتابى بإسماع صوت المرأة مباشرة ، عبر رسالة وردتنى من فتاة جامعية مقيمة فى إحدى المدن العربية ، وهى مسيحية مؤمنة . إنطلاقاً من مطالعتها لبعض كتبى ، تجرأت هذه الفتاة على أن تبثنى شكواها مما تعانيه بحدة من جراء إنتقاص للمرأة وَجَدَتْهُ لا فى المجتمع بوجهه العام وحسب ، بل – وهو ما راعها وحيّرها إلى أبعد حدّ – فى الجماعة الكنسية نفسها ، التى كانت تنتظر منها بحق أن تكون وسط المجتمع باكورة مجتمع مضاد وبؤرة لنمط جديد من العلاقات بين الرجال والنساء . فإذا بها ترى تلك الجماعة تتشبث بقراءة لكتابها المقدس تسمح لها بتبرير الأوضاع الراهنة وما فيها من إستلاب للمرأة ، أى أنها تتواطأ مع عتاقة المجتمع وعفونته ، لابل تجد لهذا التواطؤ مبررات قدسية ،بدل أن تكون فى دنياها خميرة تجدد وانبعاث . من هنا خيبة تلك الفتاة التى قُمعت تساؤلاتها واعتُبرت ضرباً من الكفر ، ولكنها بقيت فيها حادة ، متوثبة ،مقلقة ، تتركز كلها حول هذا السؤال المصيرىّ : هل يمكن أن يكون الله ، ملاذ المرأة الوحيد حيال جور المجتمع الذى يتحكم به الذكور ، هل يمكن لهذا الإله أن يكون حليفاً للمتسلطين ومبرراً لظلمهم ؟

إن رسالة هذه الفتاة – وهى صيحة صادرة عن الأعماق يمتزج فيها الشعور الخفاق بعقل نيّر واع – وجوابى عليها ، يختصران كل مضمون هذا الكتاب . إذ أنهما يتناولان ، عبر خبرة نابضة بالحياة والقلق والإيمان والإخلاص ، سائر مواضيعه الرئيسية وهى موقع المرأة فى المجتمع والكنيسة وتطلعاتها إلى مستقبل أفضل .

اولاً : الرسالة*

« (...)

« أيها الأخ . قد لا تذكر شكلى وحتماً لا تعرف إسمى وربما لم ألتقى أنا بحضرتك إلا من خلال بعض كتبك . إلا أن ما شجعنى على تخطى هذه العقبات الشكلية – هو وحده – الذى انغرس فى قلوبنا فمحا الوجوه ، وعشش فى عقولنا فطمس الأسماء ولم يبق إلا صورة واحدة تدفعنا جميعاً وإسم واحد نُكنّى به كلنا ، وإن كنا لم نصل إلى أعماقه بعد حيث تختفى الوجوه وتضمحل الأسماء إلا أننا على الطريق ولابدّ أننا واصلون .

« سيدى ،

« على الرغم من عدم معرفتك بى إلا أنك لا تدرى كم من العزاء أعطيتنى وأعطيت الكثيرات من بنات جنسى ، ولربما يفرحك أن تعلم كم أثلجت تفسيراتك للكتاب والرسائل صدرى وكم خففت من آلامى وداوت من جراحى .

« سيدى ،

« إن المرأة على مرّ العصور وتتالى الأيام عاشت مظلومة مقهورة فى كل أنحاء العالم ، وإن اختلف أسلوب القهر والعبودية بمرّ العصور والأزمان . فتارة كانت كالأمة وطوراً تُملك كشيء ، وتارة تُستغل إقتصادياً وطوراً فكرياً . ولكن مهما إختلف أسلوب الإستغلال وتطور واتخذ صبغة عصرية ، فإن جوهره واحد ألا وهو النظر إلى المرأة كشيء وتجريدها من صفات الإنسان الكيانية .وعندما تشعر المرأة ، ولاسيما الشرقية ، بمرارة ظلم المجتمع وعقم محاولاتها الواهنة لصده ، عندما يحاك التمييز واعتبارها بالمرتبة الأدنى

* وصلتنى هذه الرسالة فى ١٩٨٨/٨/٣٠ ، وقد أجيب عنها فى اليوم التالى .

قيداً يحيط بعنقها ويكاد يخنقها ، وبعد أن كلّت يداها من مصارعة التيارات المضادة ووهنت قواها فى مواجهة القوى المحاربة ، ترفع ناظريها لخالقها . ولكن الرب الرؤوف يستقبلها فى أحضان حنانه ويرمى عليها سر محبته ، ليوضح لها كذب مزاعمهم لأنها خُلقت على صورته ومثاله ، وفى صورته لا وجود لرتب ودرجات ولافضل لإنسان على آخر ولكل البشر الحق فى الخلاص يناله بقدر ما يجتهد فى تنمية وإذكاء مواهبه المعطاة وإكثار وزناته . فاطمأنت وارتاحت فى حضرة الله وحلّ طعم الراحة مكان مذاق المرارة واسدل السلام أستاره على نفسها فى جنة الإيمان . إلا ان ذلك لم يستمر طويلاً وأتت الطعنة هذه المرة من صميم إيمانها وسُدِّدت لها الضربة فى أعماق محبتها . فها هو رسول إلهها الرحيم ينكر عليها أن تعظ وتعلّم . ترى لماذا ؟ أتراها لا تملك الموهبة أم أنها ليست على مستوى كاف لتدخل عقولهم وتقنع ذكاءهم ؟ وطوراً آخر يعتبر رأساً غير المسيح لها رأساً ؟

« سيدى ،

« ألف سؤال يئن فى الوجدان ويضطرب فى الكيان ، وإن حاول التعبير عن ذاته جوبه بالكفر والإلحاد واتهم بالهرطقة والخروج عن تعاليم الرب وبأن هذا هو الكتاب ويجب القبول به كما هو ، وكأنهم ينسون أن « الحرف يقتل والروح يحيى » ويريدون تحويلنا (إلى) عبيد للحرف وأصنام لعبارات .

« سيدى ،

« لقد لمستُ لأول مرة فى حياتى محاولة شعرت بأنها ستنصف المرأة وتضعها فى المكان الذى يريده ربها لا فى المكان الذى يختارونه ويحددونه لها على هواهم . وقد لمست هذا فى حديث دار مع شبيبة تعلّمها أنت أيها الأخ وتتحاور معها ، لذا أعطيت لنفسى الحق فى أن أكتب ، علّني أحصل على جواب يخفف أنين فكرى وألم نفسى التى وجدت نفسها وحيدة فى كنيستها وغريبة وسط أحبّتها . وأنا واثقة – ولستُ أدرى لماذا – أنه ليس المسيح ذاك الذى ينادون به ، إنه مسيح غريب عنه . أما وجه خالقى المحبوب

فهو عطوف محب لا يميز بين إنسان وآخر ، إنه خالق عطوف ورب رحيم حتى بذل نفسه عن أحبائه . أترى خالق يعطى ذاته وبارىء أحب أعداءَه وغفر للمسيئين إليه بل أتي من أجلهم ليعدّ لهم طريق الخلاص ، أتراه يضع إنساناً فى مرتبة أعلى من أخرى لا لشيء إلا لأنه خلق أحدهم بجسد رجل وآخر بجسد إمرأة ؟

« لذا إسمح لى ،يا سيدى ، أن أطرح بعض التساؤلات التى تحيّرني ، وآمل أن تجد بعض الوقت للرد عليها

● فى رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس (١١ : ٣ –١٢)

١ – لماذا رأس الرجل المسيح ورأس المرأة الرجل ؟

٢ – لماذا « الرجل لا ينبغى أن يغطى راسه لكونه صورة الله ومجده وأما المرأه فهى مجد الرجل » ؟ ترى أليس الرجل والمرأة مخلوقان على صورة الله ومثاله ؟ أو ليست صورة الله فى الرجل لا تختلف عن صورة الله فى المرأة ؟

٣ – « لأن الرجل لم يخلق من أجل المرأة بل المرأة من أجل الرجل » (الآية ٩)

ترى هل هذا يعنى أنها ، كما يدّعون ،فقط معين ومساعد ، أتراه خلقها بتلك الطريقة ليعطى لغيرها الحقّ بالتصرف بها والتحكم بمقدراتها ، ليمكن الرجل من حمل عصا القيادة وصولجان الملك فيضع نفسه تاجاً على رأسها يوجهها حسب خطته ووفقاً لمشيئته ، وهى ، ككل مُقاد ، عليها أن تطيع وليس لها الحق فى رفع صوت الإعتراض ؟ ولكن ما أعلمه أيضاً أن الإنجيل ، والكتاب ككل ، موحى به وليس منزلاً . أتراها خُلقت هكذا حقاً ، معيناً ومساعداً فقط ؟

٤ – لماذا « كما أن المرأة هى **من** الرجل (كلمة « من » وردت فى نص الرسالة مشددة بسطرين تحتها : ك .ب .) هكذا الرجل أيضاً هو بالمرأة » (الباء مشددة بسطرين تحتها : ك .ب .) ؟ أترى الرجل أعظم من المرأة

لأن المصدر أعظم من المشتقّ ؟ وهل يا ترى حقاً هي منه ؟ أليست كائناً بشرياً يتمتع بكل صفات الخالق كما وهبها للرجل ؟

٥ – لماذا عليها أن تتغطى ؟ إذا كان بولس الرسول يقصد أهل كورنثوس بالذات ، تلك المدينة التى كان لها ظروف خاصة لموقعها على الساحل ولبعض الأمور الفاسدة التى حدثت فيها ، فلماذا تعممها الكنيسة على كل العصور ؟ لماذا ، عندما نحاول تفسيرها ، لانفسرها فى ضوء الزمان والمكان المناسب ونعمّمها على كل العصور والأجيال ؟

● فى رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس (٥ :٢٢–٢٥)

١ – لماذا على المرأة الخضوع وليس على الرجل نفس الصفة ؟ وإذا كان المقصود خضوع محبة ، فالمحبة متبادلة ، وبالتالى الخضوع متبادل ، أى خضوع الرجل للمرأة والمرأة للرجل بالمحبة . وفى هذه الحال لماذا شبهه بخضوع الكنيسة للرب ؟ إن خضوعنا للمسيح يختلف عن خضوعنا لإنسان ما حتى ولو كان بالمحبة .

٢ – لماذا قال فى هذه الحال للرجال : أحبوا نساءكم ، وللنساء : إخضعن ،كأنه لا ينبغى تطبيق نفس الأحكام على الإثنين ؟

٣ – لماذا الرجل رأس المرأة ؟ أليس رأسنا جميعاً هو المسيح ؟

٤ – لماذا اعتمدت هذه الرسالة فى سر الزواج ؟

« سيدى ،

« آسف لهذه العجالة لأن الوقت الذى كتبت به الرسالة ضيق ، ولم أتمكن من تركيز كل فكرى . فعذرا إذا ورد أى خطأ أو عدم وضوح فيها .

« ولك جزيل الشكر الذى لا أستطيع أن أقدمه إلا فى صلاتى (لأجلك) إلى الرب ليثبتك فى إيمانك لتستمرّ فى تعزية النفوس الحزينة .

ثانياً : الجواب

عزيزتي (...)

سلام بالرب يسوع . أما بعد فقد تسلمت بالأمس رسالتك وقرأتها بكل إهتمام ، وأعتقد أنني استوعبتها (...) . وقد لمست عبرها ما تعانين منه من ألم ومرارة وحيرة ، وتجاوبت في العمق مع هذه المشاعر التي اعتقدت أنني تفهمت تماماً أسبابها ومشروعيتها . لقد اعتبرتِ بحق أن الرب هو ملاذ المرأة المنتقصة والمهدورة كرامتها جيلاً بعد جيل ، ولذا هالك ما رأيته من كلمات للرسول بولس تبدو وكأنها تجعل من الوحي الإلهي حليفاً لما يلحق المرأة من ظلم وإنتقاص . وعندما شئت الإستفسار سعياً إلى جلاء الغموض وتبديد الحيرة ، جوبهتِ برفض لتساؤلاتك ، أتصوره صادراً ولا شك عن نية طيبة ، ولكنك شعرت به بحق ضرباً من الإسكات والقمع ضاعف من شدة معاناتك . لذا شئت أن ترفعي إلي أسئلتك المعبرة عن احتجاج على صورة لله تجعل منه مسانداً لاستلاب المرأة ، وقد أدركت بحسك الإيماني الصادق أن هذه الصورة لا تنطبق ، ولا يمكن أن تنطبق ، على الـ يسوع المسيح .

ولسوف أحاول أن أجيب ، ولو بشكل إجمالي ، عن أسئلتك القلقة ، علّنا نجد في ما بعد فرصة التبسط في الموضوع في لقاء يجمعنا وجهاً لوجه إن شاء الله (والوجه ، خلافاً لما قلته ، بالغ الأهمية في إيماننا . والشركة التي أتى المسيح يحققها فيما بيننا لا « تمحو » الوجوه بل على العكس تبرزها في نور التجلي ، لأن الوحدة التي دُعينا إليها ليست ذوباناً بل وحدة في تمايز على شاكلة وحدة الإله المثلث « **الوجوه** » . والأسماء أيضاً بالغة الأهمية ، لا « تُطمَس » ولا « تضحمل » ، لأن المسيح قال إنه « يدعو خرافه **بأسمائها** ») .

أعتذر لهذا الإستطراد الذى كان لابد منه لتوضيح حقيقة إيمانية أُساسية أنت تدركينها ولاشك فى عمق خبرتك المسيحية ، وإن كانت قد خانتك العبارات . أما الآن فلنعد إلى تساؤلاتك حول نصوص الرسول بولس .

لابدّ ، بادىء ذى بدء ، من إشارة إلى طبيعة الوحي الإلهي كما يفهمه إيماننا المسيحي . لقد قلت بحق إننا نفهم الوحى مختلفاً عن « التنزيل » . ولكن ما معنى ذلك ؟ أنه يعنى أن الكلمة الإلهية تنسكب وتصاغ فى كلمات بشرية ، لأن الله لا يريد أن يلغي الإنسان بل أن يتعاون وإياه على قدر إستعداد هذا الإنسان للتعاون . الله لا يغتصب الإنسان ولا يقتحمه بل يوجهه باحترام وتأنٍ وصبر . الله ، فى الوحى ، يرتضي أن يُنقل إلينا عبر كلمات بشرية ينيرها هو من الداخل بمقدار ما يكون كاتبها قابلاً لتلك الإستنارة . ولا أجد أجمل مما كتبه المطران جورج خضر بهذا الصدد :

« نحن فى ترابية مضاءة بالتالى فى تجاوز الترابية . ولذا صحّ قول بولس : « ولنا هذا الكنز فى آنية خزفية » . لا الخزف وحده بل الكنز فيه . لا الكنز وحده لأنه يحتاج إلى إناء يحتويه وينقله . هذا هو سبب الوحى أن ثمة إنساناً يوحى إليه ويستطيع أن ينسجم ، فى حدود معينة ، مع الوحى » *

فإذا كان الوحى الإلهى منسكباً ومصاغاً فى كلمات بشرية ، فهذا يعنى أن التعبير عنه يتأثر بنفسية الكاتب من جهة وبالمناخ الحضارى الذى يحيا فيه ويتمثله من جهة أخرى . من هنا واجب الدقة فى التمييز لئلا نتسرع فنلصق بالله ما هو إنعكاس لكلمته فى بيئة تاريخيه معينة ومزاج بشرى محدد . مقياسنا لهذا التمييز إنما هو شخص يسوع المسيح ، الذى لا يمكن

* المطران جورج خضر : آنية خزفية ، ص ٨ ، « النهار » ، ٩/١١/١٩٨٦ ، ص ١ و ٨ .

أن نعرف الله حقاً إلا عبره : «من رآنى فقد رأى الآب» (يوحنا ١٤: ٩) . ففى نور هذا الشخص الفريد الذى « يحلّ فيه كل ملء اللاهوت جسدياً » (كولسى ٢: ٩) ، كما يقول الرسول ، والذى كانت إنسانيته الإناء الكلى الشفافية لهذا الحلول ، فى نور هذا الشخص يمكننا أن ندرك حقاً ما أراد الله أن يقوله لنا فى سائر نصوص الكتاب ، بعهديه القديم والجديد . من هنا أنك كنت محقة بالرجوع إلى هذا الشخص المحورى وبتأكيدك أن سوء تأويل نصوص الرسول بولس يؤدى إلى التنكر للمسيح الحقّ واستبداله بمسيح آخر غريب .

ولنعد ، فى ضوء ما تقدم ، إلى نصوص الرسول التى ألقت الحيرة فى نفسك . فمن أجل حسن تأويلها ينبغى أن لا تنسي ما قاله الرسول عن نفسه أنه يحمل هذا الكنز (أى كنز البشارة الإنجيلية) فى وعاء خزفى (٢ كورنثوس ٤: ٧) ، (مما يعني فيما يعنيه) أن جدة الإنجيل تتصارع فيه مع عتاقة الإنسان كما تتجلى فى الأهواء والعُقد النفسية من جهة ، وفى القوالب الحضارية البالية المهترئة من جهة اخرى . أن هذه العتاقة كانت توحى للرسول بصورة منتقصة للمرأة نابعة من المقام الدونى الذى كان نصيبها فى الحضارة القديمة (ولا يزال إلى الآن سائداً إلى حد كبير فى حضارة اليوم رغم كل إدعاءاتها الكلامية البراقة) وفى الشرع اليهودى ، كما رُسّخت هذه الصورة من جراء رد فعله الإنفعالى على الإنحلال الخلقى السائد فى العالم الرومانى حينذاك (وفى كورنثوس على وجه الخصوص كما ذكرت) مما دفعه إلى أن يقسو دون مبرر على المرأة ، وكأنها المسؤولة عن هذا الإنحلال (!) ، فيسعى إلى إخضاعها للرجل ليروّضها ويأمن « شرّها » (!) . من هنا هذه المواقف المجحفه بحق المرأة ، التى نلمسها للأسف عند الرسول ، والتى تؤلمك وتؤلمني .

ولكن بيت القصيد ليس هنا . ليس فى هذه التركة التى ورثها الرسول من بيئته ومزاجه ، والتى تنتمى إلى عالم العتاقة والموت . إنه فى الجدة

الإنجيلية التى تلتمع فى وسط تلك العتاقة « كمصباح يضيء فى مكان مظلم » . لقد حصل للرسول ما قاله السيد عن الخمر الجديدة التى ، إذا ما وُضعت فى زقاق عتيقة ، مزّقت هذه الزقاق بجدّتها (متى ٩: ١٧) . من هنا هذا التمزق الذى نلمسه – ولابد إنك لمستِهِ أنتِ – فى نصوص الرسول ودوافعه . فهو يُخضع المرأة للرجل ولكنه يؤكد ، من جهة أخرى ، أنه « ليس بعد ذكر وأنثى ، لأنكم جميعاً واحد فى المسيح يسوع » (غلاطيه ٣: ٢٨) . يؤكد سلطة الرجل على المرأة ولكنه يقول ، فى معرض حديثه عن حياة الزوجين الجنسية ، بتساوٍ بينهما يبدو لنا مذهلاً إذا ما قيس بمفاهيم ذلك العصر : « إن المرأة لا تتسلط على جسدها بل الرجل ؛ وكذلك الرجل أيضاً لا يتسلط على جسده – بل المرأة » (١ كورنثوس ٧: ٤) . يوحى بأن تصمت النساء ، باسم الخضوع ، فى الإجتماعات الكنسية (١ كورنثوس ١٤: ٣٣–٣٥) ، ربما كردّ فعل حيال عدم انضباط بعضهن ، ولكنه يذكر فى رسائله نساءً كُنَّ يساهمن بنشاط فى عمل البشارة ، كفيبي خادمة كنيسة كنخرية (روميه ١٦: ١) وبريسكا التى يسميها مع زوجها « معاونَي فى المسيح يسوع » (روميه ١٦: ٣) وجونيا التى يدعوها « رسولة » أى مبشرة بالإنجيل ، ويقول أنها تقدّمته فىالمسيح (روميه ١٦: ٧) وأفوديا وسنتيخي اللتين عاونتاه ، كما يقول ، فى نضاله من أجل الإنجيل (فيلبيي ٤: ٢،٣) .

وهنا أتوقف معك عند المقطع من رسالته إلى أفسس الذى يُتلى فى خدمة الإكليل . لا شك أن الرسول ، فى تصويره هنا العلاقة بين الزوج والزوجة . بقي إلى حد ما أسير تصورات مجتمعه ، فأكد رئاسة الرجل وخضوع المرأة . ولكن هذا ينبغى أن لا يحجب عنا المضمون الجديد بالكلية الذى أعطاه لهذه الأدوار والذى يؤدى – إذا ما أُخذ على محمل الجدّ – إلى قلبها رأساً على عقب . فالزوج رئيس بنظره ، هذا صحيح ، ولكن العبرة إنما هى فى نمط رئاسته ، فهو رئيس على صورة المسيح ،ولم يكن للمسيح

من رئاسة إلا رئاسة الحب التى مارس ذروتها يبذل نفسه على الصليب ، فأصبح هكذا ، بموته الطوعيّ ، بجسده المكسور ودمه المهراق ، « رئيس الحياة » (أعمال ٣: ١٥) ، أى مَبدأها ومصدرها وينبوعها . فإذا كانت رئاسة الزوج على شاكلة رئاسة المسيح ، فإنما هى بالتالى رئاسة الحب . والحب يفترض لا محالة طاعة للمحبوب ، نابعة من الإحترام له وأخذه على محمل الجدّ (ألا يتصرف الله نفسه حيالنا على هذا المنوال ، طالما أنه يضع مشيئته ومقاصده رهن مشيئتنا وحريتنا ، بحيث يخولنا بأن نعطلها إذا أردنا ؟) . من جهة أخرى ، فإذا كانت رئاسة الزوج رئاسة حب ، فلابدّ أن يكون خضوع المرأة لها متسماً هو أيضاً بالحب بالمقابل . هكذا يزول هذا التوزيع الجامد للأدوار الذى تشكين منه بحق ، أى حصر الحب بالرجل وحصر الخضوع بالمرأة ، إذ يجتمع الإثنان فى كل من الزوجين . هذا ما يوضحه المطران جورج بقوله :

« ... إنه (أى بولس) يفرغ التراتب العبرىّ (...) من فضل الذكورة على الأنوثة ، من فضل الرجال على النساء ، هذا الفضل الشرعيّ فقط الذى جاء فى كتب موسى ، ويعطيه مضموناً آخر (...) فإذا كان الرجل المفروض أنه صورة المسيح يحب إمرأته حتى النهاية ، حتى الموت ، إذ ذاك ينتفى التساؤل عن المحبّ وعن المطيع . لأن المحبّ هو مطيع والمطيع هو محبّ ، فتنقلب العلاقة فى الحقيقة إلى محبة كاملة بين الرجل والمرأة بحيث يبقى فى النهاية ، أى يبقى الموضوع غير وارد ... » *

هذا هو الموقف السليم الذى ينبغي ، برأيي ، أن نتخذه عند قراءتنا لنصوص بولس عن المرأة . لسنا عبيد الحرف ، كما تقولين بجرأة وحق ،

---

* المطران جورج خضر : رؤياى فى المرأة ، ص ٢٣ ، المرأة فى اللاهوت الكنسى ، ص ٢١-٢٦ ، برنامج المرأة ، مجلس كنائس الشرق الأوسط ، بيروت ، لبنان ، تشرين الثانى ١٩٨٠ .

ولا نتعبد لصنمية العبارات . ديانتنا ليست ديانة كتاب بل ديانة الإله الحيّ المتجسد الذى أرسل إلينا ، ولا يزال ، روحه القدوس ليرشدنا تدريجياً إلى الحقيقة كلها (يوحنا ١٦: ١٣) . إن فعل القيامة ظاهر وملموس فى صراع بولس ضدّ قوالب عتاقته وعتاقة عصره . إنما ينبغى لنا أن لا نتوقف عند ما توصل إليه الرسول بل أن نذهب ، بفعل الروح ، إلى أبعد مما ذهب إليه ، مستفيدين مما تحقق فى عصرنا من وعى لم يكن متوفراً فى عصره . ذلك هو طموحنا إن كنا مؤمنين بفعل القيامة **اليوم** ، وبأن الحقيقة ، التى هى المسيح ، ليست وراءنا بل هى دائماً أمامنا تجتذبنا إليها فى حركة تجاوز متواصل للمواقف والتصورات التى ألفناها . وليس من باب الغرور أن نطمح إلى تجاوز ما وصل إليه الرسول فى موقفه من المرأة ، طالما أن يسوع نفسه قد أعلن لنا :

« من آمن بى يعمل هو أيضاً الأعمال التى أعملها . بل **يعمل أعظم منها** لأنى إلى الآب ذاهب . » (يوحنا ١٤: ١٢)

أما تمسكنا بحرفية كلام الرسول وإحجامنا عن التمييز بين ما علق بهذا الكلام من رواسب البيئة والظروف وبين حقيقة الله المحيية ، فقد يكون مرده – ولو حسنت النوايا – إلى كسل فكرى من جهة ، وإلى تحكم العتاقة بنا من جهة أخرى ، بحيث نكون ليس فقط غير متحررين بعد – وقد مضى على إعلان الإنجيل نحو ألفى عام – من مركّب الإستعلاء الذكورى على الإناث ، بل محاولين أيضاً أن نسخر الإنجيل نفسه لدعم هذا المركب وتثبيته ، أى متخذين من كلمة الحياة نفسها ذريعة لخدمة أغراض الموت .

ولم يكن هذا موقف المتجددين فعلاً بالإنجيل . فعلى سبيل المثل ، أذكر أن إيريناوس ، أحد آباء الكنيسة الأوائل (القرن الثانى للميلاد) ، فسّر العبارة الواردة فى سفر التكوين : « أصنع له **معيناً** نظيره » (تكوين ٢: ١٨) ، وهى عبارة تتوقفين عندها فى رسالتك ، على أنها تعني « الشخص الأقوى »

(ولكونه أقوى يستطيع أن يصبح معيناً) . ويشير الكاتب الذى أورد ذلك أن تفسير إيريناوس هذا ينسجم مع الصيغة التى وردت بها هذه العبارة فى الترجمة السبعينية للكتاب المقدس ، التى تعتبرها كنيستنا موحاة . يقول :

« فقد وردت هذه الكلمة فى الترجمة السبعينية ٤٥ مرة ، منها ٤٢ مرة بمعنى الشخص الأقوى الذى يأتي لنجدة الإنسان الأضعف »* .

أما الذهبى الفم فيقول عنه المطران جورج خضر :

« يشهد القديس يوحنا الذهبى الفم ،فى أواخر القرن الرابع ، يشهد مع قسوته فى الحديث عن المرأة ، أن بولس كان على شيء من حضارة عصره . يوحنا الذهبى الفم رأى أن كلام بولس مرتبط بترتيب حضاريّ .

ولهذا قال القديس العظيم الناسك المتصلب فى أن المرأة كثيراً ما تكون سّباقة للرجل فى تقواها وفى نضالها المسيحى . وقد عرف نسوة فى أنطاكية والقسطنطنية سباقات للرجال . ثم قال إن هذا الترتيب بيْن الرجل والمرأة الذى يتكلم عنه بولس نتجاوزه نحن بالنضال الإنجيلى ،بحيث يمكن أن تكون المرأة رأساً للرجل إذا كانت الأتقى »* .

أتركك على هذه الكلمات ، سائلاً الرب أن يجعل من رسالتي هذه مصدراً لبعض النور والتعزية لك ، راجياً منه أن يكون رفيقك فى معاناتك وحافزاً لك على الإستمرار فى درب النضال الطويل من أجل إحقاق حقه ورسم سمات قيامته فى كل مجالات الحياة . مع المودة .

---

* راجعى : القس فهيم عزيز : نظرة العهد الجديد إلى المرأة ، ص ٧٠-٧١ ، المرأة فى اللاهوت الكنسى ، ص ٦٩-٩٣ .
* المطران جورج خضر : رؤياى فى المرأة ، مقال مذكور ، ص ٢٢ .



المراجع

المراجع العربيـة

١ – إبراهيم ، عبدالستار (د.) : **الإنسان وعلم النفس**، « عالم المعرفة »، الكويت، العدد ٨٦، شباط ١٩٨٥.

٢ – بندلى ، كوستى : **الجنس ومعناه الإنسانى** (١٩٧١)، منشورات النور، بيروت، ط ٣ ، ١٩٨٥.

٣ – بندلى ، كوستى : **مع تساؤلات الشباب** (١٩٧٣)، « تساؤلات الشباب »، ١، منشورات النور، بيروت، ط ٣، ١٩٨٥.

٤ – بندلى ، كوستى : **الإيمان ومجتمع الإستهلاك**، « الإنجيل على دروب العصر » ،٢، منشورات النور، بيروت، ١٩٨٢ .

٥ – بندلى ، كوستى : **خلاف الأهل والأبناء** ،« تساؤلات الشباب »، ٢، منشورات النور، بيروت، ١٩٨٢.

٦ – بندلى ، كوستى : **صورة المسيح فى الزواج والأسرة**، « الإنجيل على دروب العصر »، ٦، منشورات النور، بيروت، ١٩٨٣ .

٧ – بندلى ، كوستى : **تعليم الفتاة وآفاق المرأة**، « تساؤلات الشباب »، ٤، منشورات النور، بيروت، ١٩٨٥ .

٨ – بندلى ، كوستى : نضال عنفى أو لا عنفى لإحقاق العدالة ؟ منشورات النور، بيروت ، ١٩٨٨ .

٩ – بيباوى ، جورج حبيب (د.) : « تطور النظرة إلى التطهيرات الجسدية فى الطقوس والقوانين الكنسية ، » فى : **المرأة فى اللاهوت الكنسى**، برنامج المرأة – مجلس كنائس الشرق الأوسط، بيروت، ١٩٨٠ ، ص ٩٥–١٧٤.

١٠ - حجازى ، عزت (د.) : **الشباب العربي ومشكلاته** (صدر لأول مرة سنة ١٩٧٨ بعنوان :الشباب العربي والمشكلات التي يواجهها)، « عالم المعرفة »، الكويت ، العدد ٦، طبعة ثانية (منقحة)، شباط ١٩٨٥.

١١ - حجازى ، مصطفى (د.) : **التخلف الإجتماعي. مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور**، الطبعة الثانية، معهد الإنماء العربى، بيروت، ١٩٨٠ .

١٢ - حداد ، غريغوار : « المرأة وتحريرها فى نظر المسيح والجماعة المسيحية الأولى ،» فى : غريغوار حداد وجيروم شاهين : **المسيحية والمرأة،** منشورات مجلة « آفاق »، بيروت ، د.ت.، ص ٥-٤٨ .

١٣ - حداد ، فريدا : **شموسية النساء في تراث الكنيسة الشرقية،** مجلس كنائس الشرق الأوسط - برنامج المرأة، بيروت، ١٩٨٣.

١٤ - حرّ ذكاء آل : **مشكلة ثقافة الأطفال فى عصرنا** ، « الفكر العربى » ، السنة الثانية ، العددان ١٧-١٨ ، أيلول . كانون الأول ١٩٨٠، قضايا المرأة العربية ، ص ٢٣٢-٢٥٦ ، معهد الإنماء العربى ، بيروت .

١٥ - حلمى، منيره (د.) : **مشكلات الفتاة المراهقة وحاجاتها الإرشادية** (١٩٦٥) ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

١٦ - خضر، جورج (المطران) : « الإنسان المسيحى ليس رجلاً أو إمرأة (١٩٧٨) » ، فى : **المرأة فى الكنيسة والمجتمع فى الشرق الأوسط** ، مجلس كنائس الشرق الأوسط، بيروت ، لبنان ١٩٧٩، ص ٩١-٩٦.

١٧ - خضر، جورج (المطران) : « رؤياى في المرأة » ، في : **المرأة فى اللاهوت الكنسيّ** ، ص ٢١-٢٦ .

١٨ - دنيا العلم (مجلة) : « الجنس الأقوى ،» السنة الأولى، العدد ٥، تشرين الثانى ١٩٧١ ص ٨٠-٨٣ .

١٩ – سعداوى، نوال أل (د.) : **المرأة والصراع النفسى**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٧ .

٢٠ – سعداوى، نوال ألـ (د.) : **الوجه العارى للمرأة العربية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٧.

٢١ – شكور، جليل (د.) : « تمايز توظيفات الذكاء بين الذكور والإناث. هل هو واقع بيولوجى أم هو نتاج المجتمع » ، **الثقافة النفسية**، المجلد الأول ، العدد الثالث ، تموز ١٩٩٠ ، دار النهضة العربية ، بيروت، ص ١٥–٣٣

٢٢ – عزيز، فهيم (القس) : « نظرة العهد الجديد إلى المرأة » ، فى : **المرأة فى اللاهوت الكنسى**، ص ٦١–٩٣

٢٣ – علوية، نعيم : « نهج البلاغة » وحوار حوله مع العلامة السيد محمد حسنين فضل الله ، « **الفكر العربى** » ، السنة ٧ ، العدد ٤٢ حزيزان ١٩٨٦ ، ص ٤٣٨–٤٥٣ ، معهد الإنماء العربى ، بيروت .

٢٤ – عمارة ، محمد (د.) : **قاسم أمين وتحرير المرأة**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٠.

٢٥ – غريّب خورى ، إيمّا : « المرأة بين حواء ومريم ،» فى : **المرأة فى اللاهوت الكنسى**، ص ١٩٣–٢٠٩ .

٢٦ – قلعجى ، قدرى : **غاندى أبو الهند** ، أعلام الحرية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٥٦.

٢٧ – مسعود ، ميخائيل : **أمثال وحكايات** ، دار الكتاب اللبنانى، بيروت ، ١٩٨٠ .

٢٨ – موسى، سلامة : **فن الحب والحياة** (١٩٤٧) مكتبة المعارف، بيروت ، ط٤ ، ١٩٧٨.

٢٩ – نجار، شكرى : « ظاهرة إنتقاص المرأة ، « **الفكر العربى**» العددان ١٧–١٨، أيلول – كانون الأول ١٩٨٠، **قضايا المرأة والمرأة العربية**، ص ٦٨–٨٢ .

المراجع الأجنبية :

30 – ABDELLATIF, Salhia: Tunisie. Un "Féminisme au masculin?", in **Terre des Femmes. Panorama de la situation des femmes dans le monde,** pp. 100-102, La Dicouverte Maspero (Paris) – Boréal Express (Montréal), 1983.

31– ABRAHAM, Ada: **Le Dessin d'une personne,** Dclachaux et Niestlé, Neuchâtel – Paris, 1962.

32 – ACTUALITÉ RELIGIEUSE DANS LE MONDE (L') (revue): C.Œ. **E. Nouvel Elan pour les Eglises** (dossier), Paris No. 3, 15 Juillet 1983, pp. 31-38.

33 – ACTUALITÉ RELIGIEUSE DANS LE MONDE (L') (revue): Supplément **C.Œ. E. Depuis quarante ans, qu'est-ce qui fait courir le Conseil Œcumenique ?** (dossier), Paris, No. 58, Juillet-août 1988, pp. 23-30.

34 – BEAUVOIR, Simone de: **Le Duexième Sexe** (1949), 2 tomes Coll. "Idées", Ed. Gallimard, Paris, 1968.

35 – BEHR-SIGEL, Elisabeth: "La femme aussi est à l'image de Dieu" (Saint Basile de Cisarée), in **CONTACTS**, Paris, 35e anée, No. 121, 1er trim. 1983, pp. 62 - 70.

36 – BEHR-SIGEL, Elisabeth: La Consulaltion interorthodoxe de Rhodes (30 Oct. - 7 Nov. 1988). Presentation et essai d'evaluation, **CONTACTS**, Paris, No. 146, pp. 81- 93.

37 – BERGE, André (Dr.): **La Sexualite aujourd'hui,** Casterman, Tournai, Paris, 1970.

38 – BETTELHEIM, Bruno: " Devenir femme " in **Survivre** (Surviving and other essays, 1952, 1960, 1962, 1967), traduit de l'américains par Theo CARLIER, 1979, Coll. "Reponses", R. Laffont, Paris, 1979.

39 – BOFF, Leonards: **Jesus - Christ libérateur,** traduit du brésilien par François MALLEY (1974), Cerf. Paris 1982.

40 – BORRÉLY, André: **Qui est près de moi est près du feu,** Desclée de Brouwer, Paris 1979.

41 – CARDINAL, Marie: **Autrement dit** (1977), "Le livre de Poche", Paris, 1978.

42 – CARLONI, Glauco et NOBILI, Daniela: **La Mauvaise Mère: Phénoménologie et Anthoropologie de l'infanticide** (La maman cattiva, Rimini - Florence, 1975), traduit de l'italien par Robert Maggiosi (1977), Petite Bibliothéque Payot, No. 320, Paris, 1981.

43 – CHARPENTIER, Etienne: **Pour lire l'Ancien Testamemt,** Cerf, Paris, 1983.

44 – CHAUVIN, Rémy: **les Surdoués**, Stok, Paris 1976.

45 – CHEVILLARD, Nicole: " Le progrès technique est-it sexiste? " in Terre des Femmes, pp. 40 - 47.

46 – CLÉMENT, Olivier: **Questions sur l'Homme**, Stock, Paris, 1976.

47 – CLÉMENT, Olivier: "Faut-il avoir peur du voile?" (d'après l'hebdomadaire "France Catholique", de 24 Nov. 1989), "S.O.P." Courbevoie, No. 143, Dec. 1989, pp. 21 - 24.

48 – CLÉMENT, Olivier: "Petite introduation a la connaissance du christianisme," in Mohamed Talbi et Olivier clement, **Un respest têtu,** Ed. Nouvelle Cité, Paris 1989.

49 – CLOUTIER, R. et DONNE, L.: **L'Agressivité chez l'enfant,** Edisem-Le Centurion, 1981.

50 – CONGRÈS THÉOLOGIQUE INTERORTHODOXE, (Rhodes, 30 Oct. - 7 Nov. 1988): " La Place de la femme dans l'Eglise Orthodoxe et la question de l'ordination des femmes," **Contacts,** Paris, 41e année, No. 146, 29 trim, 1989, pp. 94 - 108.

51 – COTHENET, Edouard: **Saint Paul en Son temps,** "Cahiers evangile", 59 année, nouvelle serie, No. 26, Nov. 1978, Cerf, Paris.

52 – DACO, Pierre: **Comprendre les femmes... et leur psychologie profonde** (1972), Coll. "Marqbout Service", No. 250, Les nouvelles Editions Marabout, Verviers, 1983.

53 – DASTARAC, Alexandre et LEVENT, M.: " Pakistan: le verrouillage " (reportage) in **Le Monde Diplomatique**, 31e année, No. 365, Aout 1984, pp. 12 - 14.

54 – DEUTSCH, Héléne: **Psychologie des Femmes** (The Psychology of Woman, New York, 9e ed., 1945), traduit par le Dr. Hubert Benoît (1949), t. 1, Enfance et Adolessence, PUT, Paris, 3e ed, 1959.

55 – DHAVERNAS, Marie-Josèphe: " Le viol, " in **Terre des Fammes** pp. 342 - 344.

56 – DIERKENS, Jean: **L'Amour a 18 ans,** Ed. Universitaires, Paris, 1970.

57 – DJEGHLOUL, Abdelkader: " La revolution scolaire, Supplement Algerie", "LE MONDE DIPLOMATIQUE", 33e année, No. 392, November 1986, p. 33.

58 – DODSON, Fitzhugh: **Tout se joue avant six ans** (How to parent, 1970), traduit de l'anglais par Yvon GEFFRAY (1972), Les Nouvelles Editions, Marabout, Verviers, 1980.

59 – DOLTO, Françoise et SEVERIN, Gerard: **l'Evangile au risque de la psychanalyse,** Ed. Jean-Pierre Delarge, Paris, 1977.

60 – DOUGLASS, Carol-Ann: Etats-Unis. La crise du valeurs, in **Terre des Femmes,** pp. 206-210.

61 – DUPONT, Georges " Les Femmes dans la Science, " **Science et vie,** Paris, No. 479, août 1957, pp. 32 - 43.

62 – ECOLE BIBLIQUE DE JERUSALEM (L') (Sous la direction de): **La Sainte Bible,** traduit en français, Le Club Français du Livre, Paris, 1964.

63 – ELL, Ernest: **De l'Enfant à l'Adulte: Les Etapes de la vie affective et sexuelle,** trad. de l'allemond par Joseph FEISTHAUER et Christiane DEYDIER, Le Centurion, Paris, 1971.

64 – EVELY, Louis: **Oser parler, Désir et peur de communiquer**, Le Centurion, Paris, 1982.

65 – FERNANDEZ, Dominique: **Mére Mediterranée** (1965), "Le Livre de Poche" Paris, 1983.

66 – FERRARIS, Anna Oliverio: **Les devices d'enfants et leur signification** (turin, 1973), traduit de l'italian par Marc BAUDOUX, Les Nouvelles Editions marabout, Verviers, 1980.

67 – FRIDAY, Nancy: **Ma mére, mon miroir** (My mother, my self, New York, 1977), traduit de l'américain par Theo CARLIER (1979), Coll, "Réponses", R. Laffon, Paris, 1980.

68 – FROMM, Erich: **Avoir ou Etre?** (To Have or To Be? New York, 1976) trad. de l'Américain par Theo CARLIER (1978), R. Laffont, Paris, 1984.

69 – GANDHI: **Tous les Hommes sont frères**. Textes choisis par KRIPALANI (all men are brothers, 1958), traduit en français par Guy VOOELWEITH (1969) "Idées", Gallimard, Paris, 1969.

70 – GEORGE, Susan: **Comment meurt l'autre moitié du monde** (How the other half dies, 1976) trad. de l'anglais par Zéno BIANU (1978), R. Laffont, Paris, 1982.

71 – GERARD, A. - M.: **L'Ere de la Femme, cette inconnue,** Ed. Guy de monceau, Paris, 1964.

72 – GILLY, Michel: "La scolarisation de débriles mentaux en France," in René ZAZZO et Equipe de l'Hopital Henri Rousselle: **Les Debilités mentales** (1969), coll. U, Armond Colin, 1971, pp. 214 - 247.

73 – GRASS, Gunter: **Le Turbot** (Der Butt, 1977), traduit de l'allemand par Jean AMSLER (1979), Coll "Points - Roman" Seuil, Paris, 1981.

74 – GUTIÉRREZ, Gustavo: **Theologie de la liberation,** Perspectives (1971 et 1973), traduit et l'espagnol par François MALLEY, o.p. Ed. Lumen Vitae, Bruxelles, 1974.

75 – HANS, Marie-Françoise et LAPOUGE, Gilles: **Les Femmes, la pornographie, l'érotisme,** Coll. "Points-Astriels", Sueil, Paris, 1980.

76 – HOMÈRE: " L'Odyssée, " in HOMÈRE: **l'iliade. L'odyssée**, traduation de Mario MEUNIER, La Guilde du Livre Lousanne, 1961.

77 – JOHANSONN, Lise-Lott: " suède. Premières au hit - parade? " in **Terre des Femmes,** pp. 245-248.

78 – KERVIEL, Sylvie: " Situation du féminisene. Le pouvoir en partage, " **Le Monde Diplomatique,** Paris, 35e année, No. 411, Juin 1988, p. 29.

79 – KHODRE, Georges (Metropolite): " Pouvoir et Autorité. Une vision Chrétienne de l'Etat, de l'Eglise et de la famille " . "S.O.P." **(Service Orthodoxe de Presse),** Courdevoie, No. 155, Fev. 1987, pp. 15 - 20.

80 – LEDERER, Wolfgang (Dr.): **La Peur des Femmes** (The fear of Women), new York, 1968), traduit de l'Américain, par Monique MANIN (1970), "Bibliothèque Scientifique", Payot Paris, 1980.

81 – LIEST, Marlène: **l'enfant et Dieu** (Neue Wage du religiöses, Erzickung, Munich, 1967),Traduit de l'allemand par A. LIEFOOGHE, Deselée, Paris 1970.

82 – LEMAIRE, Jean-G.: **Les Conjugaux,** Les Editions Sociales Françaises. Paris, 1967.

83 – LÉON-DUFOUR, **Dictionnaire du Nouveau Testament** (1975), 2e éd. revue (1978), "Livre de Vie" Seuil, Paris, 1981.

84 – LOUVET, Alain: **Gosses de Livre** (1989), Coédition R. Laffon, Paris et FMA. Beyrouth, 1989.

85 – MEAD, Margaret: **Trois sociétés primitives en Nouvelle Guinée** (Sex and Temperament in three primitive societies, 1935) in

Mœurs et sexualite en Oceanie, trad. de l'américain par Georges CHEVASSUS (1963), plon, Paris, 1973.

86 – MŒLLER, " Simone de Beauvoir et la "Sitution" de la Femme, " in **Littératuré du xxe siecle et Christianisme,** t. 5, Amours humaines, Cesterman, 1975, pp. 135 - 200.

87 – MULDWORF, Bernard (Dr.): **L'Adultère**, Casterman, Tournal - Paris, 1970.

88 – MULLER, Jean - Marie et KALMAN, Jean: **César Chavez, Un Combat non violent,** Fayard - Le Cerf, Paris, 1977.

89 – OLIVIER, Christiane: **Les Enfants de Jocaste. L'empreinte de la Mère** (1980), Ed. Duroil - Gonthier, paris, 1982.

90 – PAQUOT, Elisabeth: "France. Don Juan au pays du bœuf mode," in **Terre des Femmes,** pp. 255 - 258.

91 – POINSIGNON, Claire: " Féminisme et luttes de Femmes, " in **Terre des Femmes,** pp. 82 - 90.

92 – QUÉRÉ, france: **Les Femmes de l'Evangile,** Seuil, Paris, 1982.

93 – RIQUIER, Marhe (Dr.) **Les Filles aujourd'hui,** Casterman, Tournai Paris, 1974.

94 – ROCHEBLAVE - SPENLÉ, Anne - Marie: "Role masculin, rôle feminin," in LE GROUPE FAMILIAL, Paris, No. 61, Oct. 1973, pp. 47 - 58.

95 – RUBIN, Gabrielle: **Les Sources inconscientes de la misogynie,** Coll. "Réponses", R. Laffon, Paris, 1977.

96 – SALTIEL, Michèle: " Qui réussit le mieux? " in Christine GARIN et Michèle SALTIL: " être bon élève " (enquête), LE MONDE DE L'EDUCATION No. 109, Oct. 1984, pp. 36 - 59.

97 – SAULNIER, Christine et ROLLAND, Bernard: La Palestine au temps de Jesus, **"Cahiers Evengile"**, No. 27, Fev. 1979.

98 – SEMIDEI, Manuela: **Les Contestataires aux Etats- Unis,** Serie "Documents", Casterman, Tournai - Paris, 1973.

99 – STERN, Karl: **Refus de la Femme** (The Flight from woman, New York et Toronto, 1965), Meme 1969.

100 – STORR, Anthony: **L'Agressivité Nécessaire** (Human agression, 1968), traduit de l'anglais par Simone Roux, Coll. "Réponses", R. Laffont, Paris, 1969.

101 – THEODOROU, Evangélos: " L'institution des diaconesses dans l'Eglise Orthodoxe et la possibilite de sa renovation ", **"Contacts"**, No. 146, pp. 124 - 144.

102 – THIBAULT, Odette: **Le Couple, aujourd'hui,** Ed. Casterman, Tournai, Paris, 1971.

103 - TILLION, Germaine: **Le Harem et les Cousins** (1966), Coll. "Points", Seuil, Paris, 1982.

104 – TORDJMAN, Gilbert (Dr.): **La violence, le sexe... et l'amour,** Coll. "Reponses", R. Laffont, Paris, 1971.

105 – VAN CANEGHEM, Denise: **Agressivité et combativité,** "Le psychologie", PUF, Paris, 1978.

106 – VAN CANEGHEM, Denise: " Comment ritualiser notre agressivité ". Entretien avec Jacques SEMELIN, ALTERNATIVES NON VIOLENTES, Lyon, No. 38, Sept. 1980, pp. 36 - 48.

107 – VAN EECKHOUT, Marie - Thérèse: **Nos enfants devant la sexualite,** Casterman, Tournai, Paris, 1966.

108 – VAN RILLAER, Jacques: **L'agressivite humaine,** Ed. Dessart et Mardaga, Bruxelles, 1975.

109 – VARONE, François: **Ce Dieu causé aimer la souffrance,** Cerf, Paris, 1984.

110 – VINCENT, Rose: **Connaissance de l'Enfant,** Coll. "Comprendre-Savoir-Agir", Centre d'Etude et de Promotion de la Lecture, Paris, 1969.

111 – WALSH, J. (sous la direction de): **Mon enfant bouge tout le temps et il a du mal à apprendre.** Travaux de l'Institut pour le

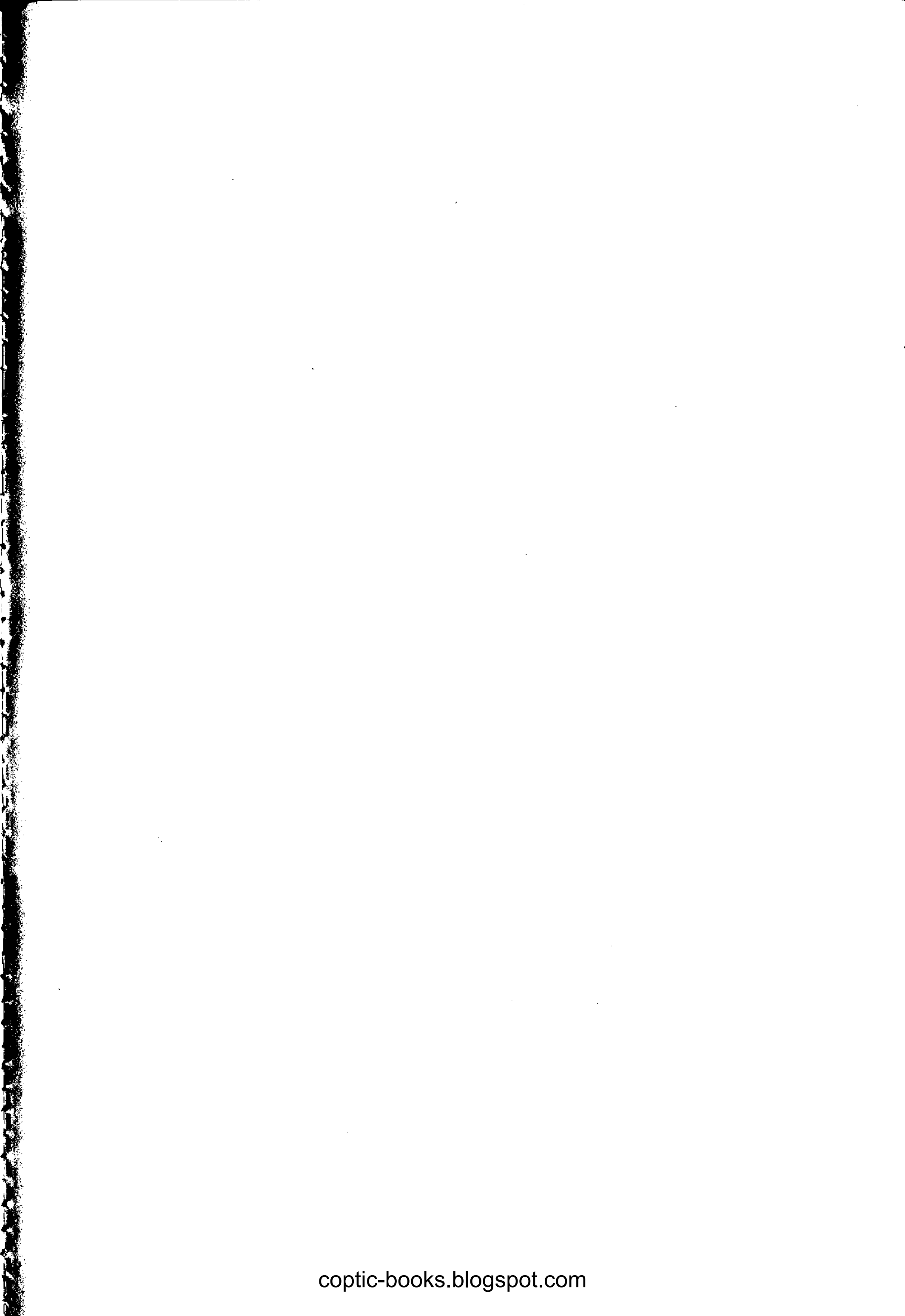
développment de l'enfant de New York, adaptation française par Patrick VINCELET, trad. de l'américain par E. CHATELIN, Epi, Paris, 1983.

112 – WERTHER, Betty: **Les Etats-Unis contre l'Unesco. La loi de la minorité,** LE MONDE DIPLOMATIQUE, Paris, 32e année No. 370 Janv. 1985, p. 28.

113 – WEST, D. J.: **Homosexualité,** traduit de l'anglais par Marie DALLEMAGNE, Ed. Charles Dessant, Bruxelles, 1970.

114 – ZAZZO, Bianca: " Passages Délicats, " in **L'Enfan et l'echec scolaire**, numéro hors serie trimestriel, "SCIENCE ET VIE", Paris, No. 164, Sept. 1988, pp. 54 - 63.

115 – ZAZZO, René: " Un travail de terrain: filles et garçons de 10 a 13 ans," in R. ZAZZO. **Où en est la psychologie de l'enfant?**, Ed. Denoél - Gonthier, Paris, 1983, pp. 164 - 173.



الفهـــرس

موضوع المرأة من مواضيع الساعة . ولابد للشباب أن يتحسسوا له، خاصة في مجتمع إنتقالى كمجتمعنا حيث تتصادم بحدة وصخب المواقف التقليدية الموروثة وتيارات الحداثة . فموضوع المرأة موضوع يمس كل إنسان في صميم كيانه ، إذ يضع على المحك تصوره لجنسه وللجنس الآخر وللعلاقة بينهما . علماً بأن الجنس يمتد إلى جذور الشخصية ويطبع كل أبعادها ، فمشكلة المرأة يعانى منها كل من الجنسين . فالرجل – وهو المستفيد في الظاهر من إنتقاص المرأة – يتأذى بالفعل من هذا الإنتقاص ، وينوء تحت أعبائه ... .

إن المرأة هى الضحية المباشرة لهذا الإنتقاص ، وصاحبة النصيب الأكبر من المعاناة . وتزداد هذه المعاناة لدى المرأة على قدر نموّ وعيها الإنسانى والروحى ، حتى أنها قد تبلغ عند أكثرهن حدّ الشعور المأساوىّ بالغبن والجور ... .

المرأة المظلومة ، المرأة المستضعفة ، المرأة المغتصبة ، المرأة المقهورة ، المرأة المستعبدة ، المرأة السلعة ... .

دور المرأة في المجتمع ... . نظرة المجتمع الإستهلاكى إلى المرأة ....

إبراز أصالة المرأة كإنسان ... . معنى الحرية عند المرأة ...

موقف المسيح من المرأة .... نظرة بولس الرسول إلى المرأة...

هذه بعض المواضيع التى يعالجها كوستى بندلى في هذا الكتاب بطريقة جدية ورصينة ، معتمداً العلم والمنطق والحجة ومعطيات الإيمان والكتاب المقدس .... وهمه في هذا كله السمو بالمرأة إلى المرتبة التى تليق بها في مجتمعنا المعاصر .